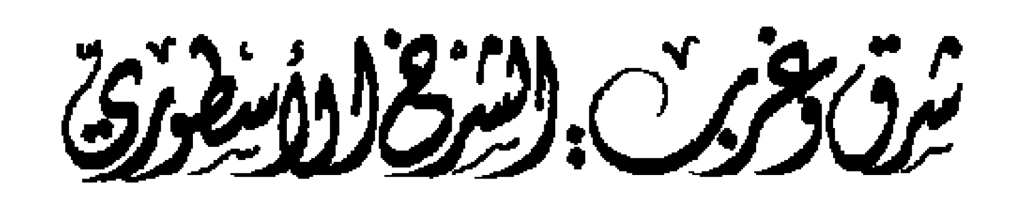
شرق وغرب: الشرخ الأسطوري

جورج قرم



دار الساقي


شرق وغرب: الشرخ الأسطوري

صدر للمؤلف

تعدد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار، بيروت ١٩٧٧؛

التنمية المفقودة: دراسات في الأزمة الحضارية والتنموية، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١؛

التبعية الاقتصادية: ديون العالم الثالث في المنظور التاريخي، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٤؛

انفجار المشرق العربي، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٧؛ صدر أيضاً بالفرنسية والإنكليزية؛

أوروبا والمشرق العربي: من البلقنة إلى اللبننة، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٠؛ صدر أيضاً بالفرنسية والألمانية؛

النزاعات والهويّات في الشرق الأوسط: ١٩١٩ـ١٩٩١، صدر بالفرنسية في باريس عام ١٩٩٢؛

الفوضى الاقتصادية الدولية الجديدة، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٤؛ وقد نُشر أيضاً بالفرنسية والإيطالية والبرتغالية والرومانية؛

مدخل إلى لبنان واللبنانيين، تليه اقتراحات في الإصلاح، دار الجديد، بيروت ١٩٩٦؛

المتوسط: حيّز نزاع وحيّز أحلام (مجموعة دراسات)، باريس ٢٠٠٠؛

الفرصة الضائعة في الإصلاح المالي في لبنان، الشركة العربية للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠١.

* يمكن الاطلاع على مؤلّفات الكاتب عبر موقعه الإلكتروني: www.georgescorm.com

جورج قرم

شرق وغرب: الشرخ الأسطوري

ترجمة

ماري طوق

أشرف على الترجمة

جورج قرم



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ISBN 1 85516 751 4

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

لا تحسبوا أن الإنسان يقع ضحية نهم حواسه فقط، وإنما قد يكون نهم روحه أشدَّ وطأةً عليه. فنَهم الروح منسوج غالباً من رغبات خفية لا تزيدها النواهي إلا ترسيخاً وحضوراً لها. وقد يحلو للمتغطرس أن يتعالى على كل شيء، حتى على نفسه، فيتجاوز أوامر الدِّين ونواهيه، وهو طالما أجلَّه وتمسك بأذياله. ثم يصنِّف نفسه في عداد المتقزِّزين، فيزدري ضعفاء النفوس الذين يقتدون بغيرهم من دون أن يبتدعوا شيئاً من تلقاء أنفسهم. وإذ يصبح المتغطرس هو الذات والموضوع في آن معاً، يتحول إعجابه بنفسه إلى نوع من العبادة، لا بل يصيرُ معبودَ نفسه.

بوسوييه Bossuet، العظة الجنائزية في تأبين آن دو غونزاك

إن الميادين التي يحدد العالِم لنفسه غايةَ اكتشافها ليست في العلوم الإنسانية أراضي بكراً، بل قارات رسم خوارطها التقليد، وألمَّ بها الفكر الديني منذ زمن بعيد، محدِّداً مسالكَها ومحطاتِها.

جان بيار ڤرنان، مقدمة كتاب: موريس أولندر،
لغات الجنة: الآريون والساميون، الثنائي المُرسَل من السماء

إذ تحوكُ روحُ الأرض خيوطَها وتنسجها على سداة الزمن، فإنما تكتب تاريخ البشرية وفقاً للأطوار التي مرّت بها المجتمعات البشرية بدءاً من تكوُّنها وخلال نموِّها وإلى حين زوالها. ويمكننا في خضمِّ هذه الفوضى التي تضجّ بها حياة البشر والزوابع التي تعصف بها، أن نُصغي إلى نبض الحياة المرافق لإيقاع أساسي، مميِّزين تنويعاته بين كرٍّ وفرّ، وانتشار وانكفاء، وانحراف وعدول، وصعود وهبوط، وانشقاق وولادة ثانية.

أرنولد توينبي، **التاريخ، محاولة تفسير**

الحاضر حقبة تتسم بالتمدُّن، لا بالثقافة.

أوزوالد شبنغلر، **أفول الغرب**

المحتويات

التمهيد

منذ سنوات وأنا أسعى إلى استنباط الصور والتخيُّلات التي تتكون في أذهاننا وفي منهج تفكيرنا حول الشرق والغرب. هل تقسيم العالم إلى هذا الثنائي الذي يفصل بين جزأيه جدار منيع من الأفكار المسبَقة والسطحية في كثير من الأحيان، والذي يأسر المجتمعات في تقوقع على الذات وعداء للآخر، له جذور في الواقع الموضوعي؟ وهل للشرق والغرب سمات أبدية، سرمدية، لا تتغير؟ وأين حدود الشرق وحدود الغرب، ومن يحددها؟

يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عن هذه الأسئلة عبر سبر غور فلسفة الأنوار الأوروبية ومناهج الفكر في العلوم الإنسانية الرئيسية الحديثة، وهي «غربية» الطابع، وكذلك عبر ردة فعل المجتمعات «الشرقية» في احتكاكها مع «الحداثة» الآتية من الغرب والتأثر بها بأشكال مختلفة، وفي ميادين عديدة، بما فيه الميدان الديني والروحي. وقد سعينا أيضاً إلى وضع أنماط تأثير الفكر الغربي في المجتمعات الشرقية في إطارها التاريخي الصحيح، أي في ديناميكية المجتمعات الغربية وهيمنتها على مقدّرات العالم.

وقد استعرضنا في بحثنا هذا المسلَّمات الفكرية الرئيسية التي استند إليها الفكر الحديث، والتي غالباً ما قَبِل بها المثقفون العرب من دون نقد معمَّق أو من دون التطرق إلى وظيفة هذه المسلَّمات في الخطاب الغربي، سواءً

الذي يوجِّهه إلى نفسه وقد سميته الخطاب النرجسي الطابع، لتأكيد شخصيته الفريدة عن شخصيات سائر الشعوب؛ أو الذي يوجِّهه إلى «الآخر» الشرقي، ليبرهن له أنه غير قابل لاستيعاب أسرار التقدم والرشد. وهذه المسلَّمات هي التي ترسم الخط الخيالي الفاصل بين الشرق والغرب، وهو خطٌ تغيرت حدوده ومعالمه بتغير السياسات الدولية والأوضاع الاقتصادية والعسكرية في الأجزاء المختلفة من الشرق، وبشكل خاص في الشرق الأقصى (اليابان والصين).

أصف هذا الخط بالخيالي لأسباب عديدة أشرحها بإسهاب، منها عدم ثباته عبر التاريخ وتأرجحه حسب تطورات السياسة الدولية، حيث أصبحت الدول التي تصف نفسها بالغربية تهيمن عليه بشكل مطلق، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك امبراطورية نفوذه، التي كانت تسمى «الكتلة الشرقية». أما اليوم، فقد انحسر مفهوم الشرق وتجسد حصرياً بالمجتمعات العربية والإسلامية، وقد سعيت في هذا الكتاب إلى وصف هذا التطور الخطير ومغزى أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كنقطة تحول مركزية.

وُضع هذا الكتاب قبل الهجمة العسكرية الأميركية على العراق التي يرى البعض أنها متابعة ونتيجة منطقية لصراع مزعوم بين الشرق والغرب، أو بين الدول المسيحية والدول الإسلامية. لكن هذه الصورة لا تتطابق بتاتاً مع الواقع. فالكنيسة الكاثوليكية، على لسان الحبر الأعظم، قد أدانت هذه الهجمة إدانة قوية لا لبس فيها، كما أن الرأي العام الأوروبي وأجزاء واسعة من الرأي العام الأميركي، قد تظاهرت ضد الحرب في شوارع العواصم والمدن الغربية، أكثر مما تظاهرت الجماهير العربية. كما أن كلاً من حكومات فرنسا وألمانيا وروسيا وبلجيكا رفضت علناً منطق هذه الحرب. فأين الشرخ إذاً؟ إنه فقط في مخيلة رجال الإعلام وبعض الأكاديميين النافذين وأركان الحكومة الأميركية الحالية الذين روَّجوا لمقولة صراع الحضارات أو الأديان، وينظرون إلى التاريخ على أنه جامد، يتمحور فقط

حول التعصب الديني والعرقي، أو حول صراع ديكتاتوريات شرقية الطابع، وديموقراطيات غربية الأصول.

هذا كله هذيان يسعى هذا الكتاب إلى تفكيك مقوماته من خلال نقد أهم مقولات الفكر الغربي والفكر العربي أو الإسلامي الذي يبقى أسير هذه الجدلية العقيمة المفروضة بشكل واسع على الأذهان في الشرق كما في الغرب. وفي تقديري أن مسؤولية المثقف العربي لا تقل خطورة عن مسؤولية المثقف الغربي في العجز عن القضاء على هذه الثنائية الفتاكة لتقسيم العالم إلى شرق وغرب. وعلينا أن نتعمق في أسس الثقافة الغربية ومنطقها ومسلّماتها لنقدها بعد فهمها، وفهم أبعادها المترامية الأطراف، من دون أن ننسى أن الفلسفة الغربية هي التي امتازت أيضاً بالفكر النقدي الحديث الذي لا يمكن تجاهله لما له من جوانب مفيدة. فما يجب مقاومته هو انحراف الفكر «الغربي» في الخطاب النرجسي الطابع الذي يمجّد بشكل أسطوري عبقرية الغرب وتميزه عن غيره من الشعوب بشكل ينظر إليه على أنه جوهري وتكويني.

وما يجب مقاومته أيضاً هو هذا الميل في الفكر العربي، وفكر الحركات الدينية السياسية الإسلامية الطابع، إلى التجاوب والتناغم مع الطروحات الغربية حول انقسام العالم إلى شرق وغرب لا يمكن أن يلتقيا. وهذا ما يسهّل للدوائر السياسية الغربية أن تسير على خططها العدوانية تجاه المجتمعات «الشرقية».

كما أن هذا المؤلَّف هو متابعة للرحلة الفكرية التي أقوم بها بين «الشرق» و«الغرب» منذ كتابة **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**[1] قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وهي رحلة سعيت من خلالها إلى تحليل العلاقات بين السلطنة العثمانية، بأجزائها العربية والبلقانية، وبين أوروبا، ومن ثم العلاقات بين

١. جورج قرم، **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**، دار النهار، بيروت، ١٩٧٧؛ أما الطبعة الأولى باللغة الفرنسية فقد صدرت في باريس عام ١٩٧٠.

الدول العربية وكل من أوروبا والولايات المتحدة. وهكذا، وضعت كتاب **أوروبا والمشرق العربي: من البلقنة إلى اللبننة، تاريخ حداثة غير منجزة**[2]، وكتاب **انفجار المشرق العربي**[3] الذي أرّخ للأحداث الجسيمة التي مرت بها المجتمعات العربية منذ تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦.

وقد تناولت في هذا الكتاب، قضية العلمانية الغربية وظروف نشأتها وتطورها وتناقضاتها، وكذلك سوء فهم الفكر الإسلامي الأصولي لهذه الظاهرة وإبداء العداء العميق لها. كما حلّلتُ بإمعان الموقف المعقَّد والملتوي للفكر الغربي العلماني من إنشاء دولة إسرائيل. وأدعو، عبر هذه الصفحات، إلى إعادة النظر في الأنماط الفكرية المتأثرة بالروايات التوراتية في الشرق، كما في الغرب، لأن منطق هذه الروايات ما يزال يؤثر إلى حد بعيد في الثقافة والتصرفات السياسية في الشرق والغرب على حد سواء. لذلك، أرى أن علمانية الغرب هي ناقصة ومشوَّهة وشكلية الطابع، وأن ما نحتاج إليه، في الغرب كما في الشرق، هو بلورة مفاهيم علمانية لا تخضع لخصوصية تطور الأوضاع الدينية ـ السياسية في الغرب. وهذا ما كنت بدأت التحدث عنه منذ عام ١٩٨٥ حينما كتب في جريدة **النهار**، بتاريخ ١١ شباط/ فبراير من ذلك العام، مقالاً بعنوان «علمنة العلمانية».

أملي أن تساهم هذه الصفحات في تعميق فهمنا للعالم الصعب، بل الشرس، الذي نعيش فيه، خاصة بعد الغزو الجديد الذي تعرضت له المنطقة العربية على أيدي جيوش غربية، ونحن، كعرب، كالعادة، في حالة تفكك وانحطاط متواصلين، وتناحر في ما بيننا. فقد أردت من خلال هذا الكتاب

---

٢. جورج قرم، **أوروبا والمشرق العربي: من البلقنة إلى اللبننة**، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٠.

٣. جورج قرم، **انفجار المشرق العربي**، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥؛ أما الطبعة الفرنسية الأولى فقد صدرت في باريس عام ١٩٨٣، وقد تتالت الطبعات بشكل متواصل مع إضافات تتناول الأحداث الأخيرة، وآخر طبعة صدرت في بداية عام ٢٠٠٣.

أن تتضح للقارئ الغربي، كما للقارئ العربي، سراديب الفكر الحديث وطلاسمه، والرياح السياسية والثقافية المتناقضة التي تعصف هواءً ساماً، غرباً وشرقاً، وتجعلنا تائهين ضائعين في غابة من الصور والتخيُّلات والمسلَّمات المنحرفة، والمحرَّمة مناقشتها بالمنطق والرشد في الشرق، كما في الغرب.

ويجب التنوية هنا، بأن عملية تعريب هذا الكتاب لم تكن سهلة، ذلك أن كثيراً من المفاهيم والتعابير الفلسفية الحديثة لم تدخل بعدُ في قاموس لغتنا العربية، إلاّ في بعض الحالات أو لدى بعض المفكرين العرب المطّلعين على تاريخ الثقافة الأوروبية الحديثة ومدارسها الفلسفية السياسية العديدة. لذلك، كان حرصي، في هذه الطبعة العربية، على تفسير المفاهيم والتعابير التي استعملتها بكثرة في الأصل الفرنسي للنص، وهي مقبولة ومفهومة لدى القراء الفرنسيين، لكنها قد تبدو غريبة وغامضة لمن ليسوا على اتصال بالمصطلحات الفلسفية في الثقافة الأوروبية. وآمل أن أكون قد وُفِّقت في هذا الجهد، مع أنني كنت أودّ أن أتوسع أكثر في شرح وتوضيح هذه المفاهيم التي أثّرت، إلى حدّ بعيد، في صياغة الخطاب الغربي، والخطاب الشرقي الموالي أو المعادي للغرب، وكذلك في نشأة وتطور كل هذه التخيُّلات الغريبة التي نحملها بشكل عفوي في أذهاننا الشرقية أو الغربية، كل واحد منّا تجاه الآخر.

وفي الختام، أرجو أن يساعد هذا الكتاب على فهم ما توصلنا إليه كعرب من حالة وهن وضعف وانحطاط مقابل ما توصلت إليه بعض الدوائر السياسية والإعلامية والأكاديمية الغربية من نرجسية فائقة وحب الهيمنة على مقدَّرات العالم. وفي هذا الإطار، أردت أن أقدِّم مساهمة، ولو متواضعة، في تضميد جراحنا وخيبات آمالنا المتكررة، لكي نتمكن مستقبلاً من أن ننهض من كبوتنا ونعيد بناء مجتمعاتنا على أسس جديدة أكثر متانة، تؤمّن الحرية والازدهار عبر إرساء دعائم جديدة لتأمين استقلالنا الفكري، وبالتالي السياسي، عن أية قوة خارجية، غربية كانت أم غير غربية.

المقدمة

الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١: رمزية الصُوَر

لا شك في أن «الإرهاب» و«الذعر» هما الكلمتان الأكثر تداولاً منذ اعتداء الحادي عشر من أيلول، سواءً في الحياة السياسية والاجتماعية، أم في أحاديث الصالونات المغلَقة، وإن كان مدلولهما يتغير باختلاف الأمكنة. فأحداث الحادي عشر من أيلول أثارت عاصفة هوجاء من الهذيان والخُطَب والتخيُّلات، أغرقت العالم في الذهول، كما استحضرت من الموروثات الثقافية الغابرة، أحقاداً ومخاوف تعرّض لها عالمنا منذ قرون عدة بائدة، وعملت على إعادة ترسيخها في السيكولوجيات الجماعية المعاصرة.

لكن أكثر ما يذهل في الحدث، هو بلا منازع رمزية الصور: في نيويورك، عاصمة الاقتصاد العالمي ومركز ثقل الكون، ينتحر برجا التجارة العالمية التوأمان، معلنَين نهايةَ الامبراطورية الغربية وسقوطها في أيدي «البرابرة»؛ وفي أفغانستان، عند حافة اليأس والجوع والموت، تصطاد الطائرات الفائقة التطور، بأشعة الليزر، المحاربين الأكثر بدائية بين البشر، في مشهد يعيدنا بالخيال إلى العصر الحجري. «الامبراطورية» في السماء و«البرابرة» في الكهوف، كما في أفلام الخيال العلمي. «الامبراطورية» المتحضّرة بجنودها الأنيقين ومدنييها في كامل لباسهم الرسمي مع ربطات

العنق، و«البرابرة» الحفاة أو منتعلو الصنادل بعماماتهم ولحاهم الكثّة، يبدون أشبه بصور طالعة توّاً من مجتمع بطريركي ينتمي إلى الممالك القديمة أو التوراتية التي خلنا، للحظة، أنها تلاشت بين ركام التاريخ.

«وسترن»[1] توراتي جديد

يمكن أن نضخّم، قدر ما نشاء، رمزية الصور التي أنتجتها الأحداث منذ اعتداء الحادي عشر من أيلول: صور كأنها طالعة من ألعاب الفيديو وأفلام الخيال العلمي مقرونة بمشاهد من «وسترن» توراتي يليق به عنوان: «طالبان أو شغف الرعب المقدَّس». بَيْدَ أننا لا نسعى في هذا البحث إلى معالجة أنيقة ولا إلى تحليل مسهب لأحداث سوف يكتنفها الغموض طويلاً، بل تهدئة الحمّى والمخاوف الدفينة في دواخلنا التي تغذّيها منذ وقت طويل أدبيات وموروثات ثقافية شتّى، سواءً كانت جادة أم تافهة، بدءاً بالأعمال الأكاديمية الذائعة الصيت عن الإسلام والعرب، مروراً بالأعمال الروائية البوليسية، أو ما يُعرف برواية التجسس ذات النفحة العنصرية، وصولاً إلى الدراسة الميدانية الدقيقة عن شبكات الإرهاب وأيديولوجياته، وأيضاً الأغلفة المثيرة عن الإرهاب والإسلام التي تزدان بها المجلات الأسبوعية الناطقة بالفرنسية أو الإنكليزية. لقد أصبحنا عن قصد حيناً، وأحياناً من دون قصد، رحماً خصباً لتفريخ النزعات العنصرية، ونبذ «الآخر»، وخلقنا من تهويماتنا مادة دسمة تؤجج مخاوفنا ووساوسنا.

لقد أفرز الحادي عشر من أيلول صورة حادة في تناقضاتها: نحن، والآخرون: في مواجهة حادة؛ نحن «المتحضرون» وهُم «البرابرة»... «البربرية» التي تهدد «الحضارة»، «معتوهو الله»، «الانتحاريون قَتَلة المدنيين الأبرياء»... وما إلى ذلك من الصفات. وأياً تكن الجهود التي يبذلها الناس

---

١. وسترن: أفلام مغامرات وغزوات رعاة البقر cow-boys الأميركيين في مطاردتهم للسكان الهنود الأصليين.

ذوو الإرادة الطيبة للحفاظ على توازنهم ومقاومة النعرات العنصرية الكامنة في أعماقهم والتصدي للأحكام المسبقة، يبقَ الحادي عشر من أيلول حدثاً تاريخياً وشقّاً نافراً في شرخ قديم نعمل على إعادة إحيائه، يفصل بين «نحن المتحضرين» وهُم «البرابرة»، ويواكبنا منذ العهد الإغريقي بشكله العلماني، والعهد التوراتي بشكله المقدّس، حيث يحارب «شعبُ الله المختار» الشعوبَ المتخبّطة في غياهب الجهل.

كنا اعتقدنا أن هذا الشرخ تمت السيطرة عليه في القرن السابق من خلال الحديث عن عالم متطور وآخر متخلف. ولكن، يبدو أننا أخطأنا باستنباط النتائج. اليوم، تختزل هذا العالم المتخلف، للأسف، ظاهرة «الطالبان». وأسامة بن لادن، الملهِم الأعظم لهذه الحركة، يقذف ناراً دينية مفوّعة الحُمَم، يحار أمامها كبار المحلّلين من ذوي الاختصاص والخبرة. لكن ابن لادن ينتمي إلى إحدى العائلات الأكثر ثراءً في المملكة العربية السعودية، وهي البلاد الغالية على قلب الغرب بصفتها أهم منتجة للنفط في العالم. تداعت الأوهام إذاً، اليوم، والناس العاديون مدعوون إلى حسم أمرهم واتخاذ موقف. لم يعد العالم الشيوعي موجوداً. ثمة عالم آخر نشأ بدلاً منه، يسوده الإرهاب والرعب المتوحش العشوائي اللذان انقضّا على رمزين من رموز ازدهار الامبراطورية الغربية: برجي التجارة العالمية.

لن نناقش هنا الكيفية التي حصل فيها هذا الحدث، ولسنا في صدد المحاسبة بسبب التهاون والإهمال اللذين سبقاه وأديا إليه.[2] لقد فرضت رمزية الحادي عشر من أيلول نفسها في كل مكان على أنها الحرب الواقعة بين الحضارة والبربرية، بين الديموقراطية والإرهاب، بين الإسلام والغرب

---

٢. بالإمكان أن نتساءل أيضاً عن السبب الذي حال دون اتخاذ الولايات المتحدة كلَّ الإجراءات المضادة للإرهاب قبل حصول اعتداء الحادي عشر من أيلول، وبخاصة أنها كانت اتهمت ابن لادن بأنه وراء الاعتداءين المتكررين على السفارتين الأميركيتين في أفريقيا عام ١٩٩٨.

اليهودي ـ المسيحي. عاد ابن لادن الذي لاذ بالصمت في البداية، ليعزف، بشكل كامل، معزوفة الحرب الشاملة بين عالمين متناحرين لا يمكن التوفيق بينهما، مبرِّراً بذلك كلَّ الإجراءات الداخلية والدولية التي اتخذتها الولايات المتحدة في مواجهة هذا الخطر الشامل، والتي أثارت حفيظة أكثر من نظام ديموقراطي متمسك بمعايير دولة القانون والقانون الدولي. لكن، في زمن الخطر الأقصى، هل في الإمكان رفض الوسائل التي تتيح الدفاع عن النفس إزاء عدو لا يرحم؟

يهدف هذا الكتاب، ببساطة، إلى المساعدة على التصدي لرمزية تبسيطية يمكن أن تقضي فعلاً على ما تبقّى لدينا من حسّ نقدي ومن استقلالية في طريقتنا لفهم العالم والإحاطة به. لا يُقصَد بكلامنا هنا، استحالة مقاومة محاولات زعزعة المجتمعات والعنف المدمِّر، بل الإشارة إلى أن المقاومة الفعلية لهذه المحاولات الهدّامة تفترض أننا نعرف جيداً طبيعة المعركة التي تنتظرنا، والميدان الذي ستدور فيه.

أفول العالم وصياغته من جديد على يد الغرب

منذ اختراع الطباعة وغزو أميركا واختراع آلة البخار والكهرباء، ينفرد ما يسمى الغرب برسم العالم وصياغته في السرّاء والضرّاء. ومنذ صدور كتاب أوزوالد شبنغلر Oswald Spengler، **أفول الغرب**، من سبعين عاماً، يجري الحديث بسذاجة في الأوساط الغربية، عن نهاية الهيمنة المتحضِّرة للغرب وعن الخطر الذي يهدّد «الحصن المنيع» بالسقوط في أيدي البرابرة.[3] وتدفعنا

---

٣. صدر كتاب شبنغلر **أفول الغرب**: **مُجمل الميثولوجيا عن التاريخ العالمي**، الجزء الأول: الشكل والواقع، والجزء الثاني: منظور للتاريخ العالمي Spengler, *Le Déclin de l'Occident: Enquisse d'une mythologie de l'histoire universelle*; tome 1, Forme et Réalité, tome 2, Perspective de l'histoire universelle، في ألمانيا عام ١٩٣٢ (والترجمة الفرنسية: منشورات Gallimard، باريس ١٩٤٨). كما نشير إلى العمل المعاصر للأستاذ =

سذاجة التحليل هذه إلى التذكير بالأثر العميق الذي تركه المؤرخ الإنكليزي الكبير أرنولد توينبي Arnold Toynbee، الذي حاول من خلال مؤلّف ضخم ترافق ظهوره مع كتاب شبنغلر، أن يمنهج عوامل العظمة والانحطاط في الحضارات الكبرى.[٤]

تشغل مسألة الانحطاط الغرب اليوم أكثر من أي وقت مضى: إن عظمته بالذات هي ما يخيفه، لأن هذه العظمة لا يمكن إلا أن تُنذر بأفول وشيك. تثير نظرة توينبي المتأملة في أسباب انحطاط الحضارات القديمة، القلقَ في كل المجتمع الغربي، لأنها تتمحور حول وصف الأثر المدمِّر الذي تُحدثه «البروليتاريات الداخلية»[٥] و«الأقليات الناشطة» في الامبراطوريات الحضارية العظمى.[٦] وفي إطار ندوة تمحورت حول مؤلفات توينبي، وخلال إحدى الجلسات المخصصة لمناقشة نظرته إلى مختلف الحضارات والمراحل في التاريخ، قال ريمون آرون: «أول ما يذهلنا لدى توينبي هو أنه، على غرار

= الجامعي الأميركي بول كنيدي: **نهضة وسقوط القوى العظمى: التغير الاقتصادي والنزاع العسكري من ١٥٠٠ حتى ٢٠٠٠**، Paul Kennedy: *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000*، منشورات Fontana، غلاسكو ٢٠٠٠.

٤. راجع كتاب أرنولد توينبي: **التاريخ: محاولة تفسير**، Arnold Toynbee, *L'histoire: Un essai d'interprétation*، Gallimard، باريس ١٩٥١.

٥. البروليتاريات: الطبقات العاملة.

٦. تجدر الإشارة إلى أن الأعمال الفكرية عن التاريخ العالمي تعود نشأتها في الأصل إلى بوسوييه Bossuet وفلسفة الأنوار التي علمنت، إضافةً إلى أعمال ڤولتير Voltaire ومونتسكيو Montesquieu، تقاليدَ كتابة التاريخ المقدس، أي التاريخ ذي الغاية السامية. نشير أيضاً إلى كتاب جاك بيرين: **التيارات الكبرى في التاريخ العالمي** Jacques Pirenne, *Les grands courants de l'histoire universelle*، (اثنا عشر جزءاً، منشورات La Baconnière، نوشاتيل، سويسرا، ١٩٥٩) الذي يمنهج الفكرة القائلة بأن الامبراطوريات البريّة هي في جوهرها استبدادية، بينما الامبراطوريات البحرية ليبيرالية.

شبنغلر، وخلافاً لما أبداه من تحفظات، أعلن موت الحضارة الغربية، أو أنه على الأقل عبَّر عن حدسه بشأن المستقبل القاتم للغرب.»[7] ويبدو الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن الفوضى التي يتخبط فيها العالم ويجسّدها الحادي عشر من أيلول أفضل تجسيد، تُثبت صحة طروحات شبنغلر وتوينبي، وتجعلها ماثلة في الأذهان أكثر من أي وقت مضى.

لن نقوم هنا بتوصيف هذه الهيمنة الغربية التي ما إن تبدو على وشك الأفول ويكتنفها الشحوب ويعتريها الوهن بفعل تجلياتها المادية والفلسفية بالذات، حتى تنهض متوثّبة من جديد بحيوية أكثر من ذي قبل،[8] بل سنحاول معالجة الأسئلة الملحّة وفك رموز الصور التبسيطية والكليشيهات القاتلة التي تصنِّف المجتمعات بين غرب «متحضِّر» وشرق «بربري»، وتزيد هذا الشرخ المزعوم بين الشرق والغرب، أي بين «الحضارة» و«البربرية»، عمقاً، معزِّزة نفوذ البعض وقصور البعض الآخر.

تواجهنا بشكل حادّ، انطلاقاً من هذا الأمر، عودة الكليشيهات الدينية والترسيمات التوراتية والحروب المقدسة و«انتقامات الله» التي تطغى منذ عدة عقود على الدراسات وسلوك السياسات الدولية.[9] ثمة سؤال يطرح نفسه هنا: أين أصبحت، إذاً، فلسفة الأنوار و«الڤولتيرية»[10] وعلمنة الفكر التي

---

٧. ريمون آرون، **التاريخ وتأويلاته: أحاديث حول أرنولد توينبي**، Raymond Aron, *L'histoire et ses interpréations, entretiens autour d'Arnold Toynbee*، منشورات Mouton and Cie، لاهاي ١٩٧١، ص ١٩.

٨. راجع بهذا الخصوص كتاب صوفي بسيس: **الغرب والآخرون: قصة تفوق**، Sophie Bessis, *l'Occident et les autres: Histoire d'une suprématie*، منشورات La Découverte، باريس ٢٠٠٢.

٩. نستلهم في هذا المضمار عنوان كتاب جيل كيل: **انتقام الله: المسيحيون واليهود والمسلمون يعيدون فتح العالم**، Gilles Kepel, *La Revanche de Dieu: Chrétines, Juifs et Musulmans à la reconquête du monde*، منشورات Points/ Seuil، باريس ١٩٩٢.

١٠. الڤولتيرية: نسبة إلى ڤولتير Voltaire وهو كاتب فرنسي من القرن الثامن عشر، تزعّم =

قوبلت بارتياح على المستوى العالمي إثر الحرب العالمية الثانية؟ لقد قدمت فلسفة الأنوار بعض المبادئ العقلانية، وحرّرتنا من الماورائيات والعقائد الدينية الجامدة، كما حثّتنا على التفاؤل بقدرتنا على بناء عالم أفضل واستكمال معرفتنا الدنيوية للعالم ونوابض حضاراته وتطور الفكر البشري. فهل ولّت هذه الفلسفة وتآكلت مع انهيار الشيوعية وزوال الاستعمار؟[١١] ألا توجد لغة للأخوّة العالمية تسمح للإنسان بأن يشعر بالأمان، وبأنه ما من داعٍ للخوف في علاقته مع «الآخر» المختلف عنه؟ فهل حُكم علينا بأن نتقبلَ بسلبية سَخَطَ الله، الله المعاقِب والمنتقِم كما يظهر في التوراة؛ الذي يكافئ بعض الشعوب ويخلِّصها بينما يبيد شعوباً أخرى؟ هل يجب الاستمرار في التعايش مع هذا الشَّرخ البغيض الذي زاده الحادي عشر من أيلول عمقاً وبروزاً؟ ثم ما هي حدود هذا الشرخ وما هي نوابضه؟

إن هدف هذا البحث هو حثّنا على التأمل العميق لندحض الكليشيهات السهلة وأنصاف الحقائق والدعوات الغيبية والماورائية (الميتافيزيقية) العنفية التي تنضح بها وسائل الإعلام والأعمال الأكاديمية والأدبية أو تلك المكتوبة للترفيه. فإذا كان يتوجب علينا فعلاً التصدي للقوى التي تهدف إلى زعزعة قواعد المجتمع وإرباكه، فهذا يعني أنه لا يمكننا بأي شكل من الأشكال، القبول بانحطاط فكرنا من خلال السقوط في اللاعقلاني والماورائي والأفكار المبسَّطة والجامدة حول أصول ومعتقدات وإثنيات الشعوب المختلفة، حيث تُصاغ الكليشيهات والقوالب الجاهزة، السطحية والمخادعة في آن، بشأن ما يُنظَر إليه كجوهر ثابت للشعوب والأديان والحضارات. يجب إسقاط الرمزية

= حركة الفلسفة السياسية المتحررة من الإطار الديني وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية، ونقدهم بقلمه اللاذع.

١١. بالإمكان الرجوع إلى البحث المشوّق الذي قام به جان غوليمو: **وداعاً أيتها الفلسفات: ماذا تبقّى من فلسفة الأنوار؟** Jean M. Goulemot, *Adieu les philosophes: Que reste-t-il des lumières Fontana*، منشورات Seuil، باريس ٢٠٠١.

السلبية المهيمِنة إثر الحادي عشر من أيلول، فيختتم هذا الحدث المأساوي والدامي حقبةً ويفتتح أخرى أفضل، بدلاً من أن يزيدنا إمعاناً في استحضار اللغات الخشبية[١٢] المحنَّطة واللاعقلانية ولجم الحريات وقمع أي رغبة في تطوّرنا وتحضّرنا ككائنات بشرية.

ينبغي، إذاً، النضال من أجل الإبقاء على الحس النقدي والسخرية على طريقة الفيلسوف الفرنسي ڤولتير Voltaire، وكذلك على مثالية روسو Rousseau ولوك Locke وكانط Kant؛ يجب الفصل بين المهمات البوليسية التي تتوخّى محاربة محاولات زعزعة المجتمع، والمهماتِ الفكرية الهادفة إلى بناء عالم أفضل، ذلك أن الجمع بين هذين النوعين من المهمات بمثابة تعزيز للمخاوف والهواجس التي أثارها الأديب الإنكليزي الشهير جورج أورويل George Orwell وعبَّر عنها في روايته الشهيرة: ١٩٨٤، حيث يستوطن الخوفُ الجميعَ ويجعل كل محاولة لتغيير العالم والنظام الاستبدادي الفولاذي مهمّةً مستحيلة. يجب، إذاً، أن نرفض الانقياد للرعب الناجم عن أعمال الإرهابيين، وأيضاً لهؤلاء الذين يطاردونهم بحجة الحفاظ على سلامة الأجساد والأرواح، وأن نسعى إلى بلورة رؤية إنسانية مغايرة لكلا التيارين.

لذلك، يجدر بنا التغلب على هواجسنا ومخاوفنا العالقة في شبكة سميكة من الكليشيهات والأحكام المسبقة التي تحاصرنا من كل جهة، في الشرق كما في الغرب. هذه هي المهمة التي يضطلع بها هذا البحث محاولاً تعرية بعض التصرفات أو المواقف التي رسَّختها أحداث الحادي عشر من أيلول في السيكولوجيات الجماعية. فانكباب الناس في الغرب على إعادة قراءة آيات القرآن أو مؤلَّفات إسلامية بهدف فهم ما جرى في الحادي عشر من أيلول، يعبّر بوضوح عن مستوى السذاجة وضِيق الأفق اللذين انحدرنا إليهما، وكأنَّ

---

١٢. بمعنى أنواع الخطاب والكتابات الجامدة التي تكرر الأقوال والادعاءات نفسها، المطلقة الطابع والتي لا تستند إلى الوقائع الحقيقية والأوضاع الموضوعية المعقدة.

غنى معلوماتنا ومعارفنا الدنيوية بات غير ذي فائدة. من ناحية أخرى، لا يمكن أن نقع على أي منطق في ردود الأفعال التي تمخّض عنها الشرق على تنوعها، سواءً تلك التي تمّ التعبير عنها بالشعور بالرضى النسبي الذي اعترى الشرقيين أمام «الضربة» التي تلقتها الولايات المتحدة وهي أعظم قوة في التاريخ، أو ما سمعناه، ولا زلنا نسمعه يومياً، من التأكيد المتكرّر على «سلمية» الدين الإسلامي. إن سيكولوجيا المنهزمين والمضطهَدين التي لم يساهم زوال الاستعمار في انحسارها، تبقى مرتعاً خصباً لكل أنواع العُقَد النفسية (العُصاب) الجماعية التي تحنّ إلى العهود الذهبية المفقودة في تاريخ الحضارة الإسلامية. ويأتي السجال القائم حول العولمة الاقتصادية وما تتّصف به من محاسن وعيوب، ليزيد من تفاقم الأزمة الفكرية التي نتخبط في أوحالها.

فهل فقدنا الدليل إلى لغة عقلانية مشتركة تسمح بالتواصل بين البشر والبلدان والدول والمجتمعات؟ هل يجب التخلي عن فلسفة الأنوار وإنكارها والتبرؤ منها، والاهتداء فقط بالتوراة التي تجعل الخلاص حكراً على فئة من الناس بينما تقذف بالبعض الآخر في الجحيم وتصنّفهم كفرةً وبرابرةً؟ هذا ما تحاول الإجابة عنه صفحات هذا الكتاب من خلال جولة في فضاءات الخُطَب والصور والتخيُّلات التي يُنتجها الغرب عن نفسه وعن العالم بوفرة تثير القلق أحياناً، وذلك منذ ما سُمِّي عصرَ النهضة الأوروبية والثورة الصناعية. وسنسعى إلى اختيار الصور الأشد دلالة لنسلّط الضوء على خلاصة الثقافة الفكرية التي يدّعي الغرب أنه رسولها، وهو في الواقع أسير لها من حيث لا يدري.

سيعترض هذا البحث على بعض التبسيطات أو الاستحضارات الوجيزة للفلسفات الأنثروبولوجية[١٣] أو حتى التطرّق إلى غير عمل لا يندرج في سياق

١٣. الأنثروبولوجيا في الغرب فرع من فروع العلوم الإنسانية التي تدرس اختلاف الأجناس والأعراق البشرية.

التيارات الفكرية المطروحة هنا للنقد، بَيْدَ أنه لا يدّعي لنفسه صفة البحث الشامل الذي يهدف إلى إصدار خلاصة نقدية للفكر الغربي، وهو فكر لا يمكن الإحاطة به بسهولة، بل يسعى بالأخصّ إلى إثبات أن الذهنيّة الفردانيّة[١٤] التي يدّعيها الغرب لنفسه، ليست بديهية كما تحاول تصويرَها سلسلةٌ من الصور المعبِّرة أو نموذج من الخطاب النرجسي، كما أسميه، لأن هذه الصور وهذا الخطاب وليدة لغة أسطورية بلورتها الحداثة الثقافية في الغرب، وقد ترسَّخت في الثقافة الرائجة للإنسان السويّ وفُرضَتْ عليه كمسلّمات، لا بل أكثر من ذلك، كوسيلة لا بديل عنها لفهم العالم. هذه الثقافة الشائعة تعزّزها وتوقّعها المؤسسات الصحافية والإعلامية الضخمة، وأيضاً المسار الثابت للأبحاث الأكاديمية التي أضحت، أكثر من أي وقت مضى، رهينة أنماط السوسيولوجيا «القيبرية»[١٥] ـ التي سنتعرض لها لاحقاً ـ والتقاليد الأنثروبولوجية التي تُسمّر المجتمعات في تصنيف ثنائي وفق نماذج مثالية لا تتطابق وتعقيدات التطورات التاريخية والوقائع الميدانية.

الواقع، أن سوسيولوجيا ماكس ڤيبر Max Weber التي لا تزال تهيمن على العلوم الاجتماعية، وطّدت نمطاً لتصنيف المجتمعات من خلال نموذج مثالي يفصل بين المجتمعات الحديثة المعقلنة والمجتمعات «الكاريزماتية» أو «السحرية»، حيث السيطرة للدين والعلاقات العائلية والوجه الكاريزماتي[١٦] للزعيم البطريركي. وقد كرّس علماء الأنثروبولوجيا هذا الفصل بين

---

١٤. بمعنى individualisme: أي الحضارة المبنية على اتكال كل شخص على نفسه وتأكيد استقلاليته بالنسبة إلى عائلته وعشيرته، أو أي إطار جماعي آخر كالحزب أو النقابة أو المؤسسات الدينية.

١٥. نسبة إلى عالم الاجتماع الألماني ماكس ڤيبر Max Weber (١٨٦٤ـ١٩٢٠). أول من دعا إلى تطوير منهج البحث في علم الاجتماع واختيار شخصيات مثالية أنموذجية.

١٦. بمعنى charismatique أي ما للزعيم (رب عائلة أو عشيرة أو قائد منطقة) من حظوة على رعيّته.

المجتمعات «التقليدية» ما قبل الرأسمالية والمجتمعات الحديثة. ولا ننسى أيضاً تأثير دوركهايم Durkheim[17] من خلال كتابه الشهير: **الأشكال الأولية للحياة الدينية** (١٩١٢)، الذي يكرّس هذه الرؤية الثنائية ويؤكد أهمية الدِّين في صياغة أفكار الجماعات، مقابلاً بين المجتمعات البدائية والمجتمعات الأوروبية الحديثة المتحرّرة من سيطرة الدين.

نشعر بأن لدى دوركهايم وڤيبر حنيناً جارفاً ومثالياً للنفوذ الذي يمارسه الدين على المجتمع. يصف ڤيبر تاريخ الغرب الحديث بأنه تاريخ «إزالة الانشداه» désenchantement[18] والخروج من سطوة العالم الجذّاب للدين. لقد خلقت النهضة التقنية والصناعية في أوروبا شعوراً من الخيبة والضياع أدّى إلى الانقطاع عن الجذور والخوف من الأفول والانحطاط. وقد أصبحت، من جراء هذا التيار، النظرة إلى الشعوب القاطنة خارج القارة الأوروبية وإلى أسلوبها في التطور، مزيجاً من الانجذاب إليها والنفور منها في آن معاً.

وهكذا، حسب الفكر الغربي، بدأت مأسَسة «الكآبة» التي يتحدث عنها سيرج موسكوڤيتشي Serge Moscovici من خلال استخلاصه المعنى الحقيقي لأعمال دوركهايم وڤيبر.[19] يعتبر موسكوڤيتشي، لدى دراسته أعمال دوركهايم، أن كتابه، **الأشكال الأولية للحياة الدينية**، هو العمل الأكثر

---

١٧. إميل دوركهايم (١٨٥٨ـ١٩١٧): عالم اجتماع فرنسي، قال إن المجتمع هو مصدر الأحداث الأدبية والدينية.

١٨. إزالة الأثر السحري désenchatement، ويعني ڤيبر بهذه العبارة زوال أو اندثار انشداه الناس إلى المعتقدات والمسلّمات الدينية الطابع، التي يتمسك بها الإنسان عادة لما لها من قوة ذات أثر «سحري» (بمعنى الجاذبية) على حياته. وقد جرت، في بعض الأحيان، ترجمة هذه الكلمة، في ما بعد، بعبارات مختلفة تبعاً للسياق: انكشاف الأوهام؛ الخيبة؛ التخلي عن الأوهام.

١٩. سيرج موسكوفيتشي، **الآلة التي تصنع الآلهة**، Serge Moscovici, *La Machine à faire des dieux*، منشورات Fayard، باريس ١٩٩٨، ص ١.

اكتمالاً من بين أعماله، وأنه «مكتوب بأسلوب صفيق وشاق يميّز الكتابة السوسيولوجية العصية على القراءة. ومع ذلك، إذا أصغينا جيداً، سمعنا موسيقى ساحرة تنبعث من النص بأكمله أشبه بنهر جوفي يرافقنا خريره الخافت في الغابة. نشعر بالحيرة إذ تفك اللغة عقالها وترتقي معانقة لغة النبي والرائي. فهمْتُ عندئذٍ لدى سماعي هذه الموسيقى السببَ الذي دفع دوركهايم دائماً ليردد أمام مقرَّبيه: «لا تنسوا أنني ابن حاخام.» على أية حال، تكشف لنا نظريته في الدين بشكل بيِّن المعادلة بين الواقع الاجتماعي والسلطة الأخلاقية وحتى النفسية. هذا الكتاب الكبير هو قمة عمله السوسيولوجي. وتبدو كل أعماله السابقة مقارنة معه، أشبه بسلسلة الأنغام التمهيديّة لعازف البيانو، أو الخطوط الرفيعة على لوحة الرسّام.»[٢٠]

أطلقت هذه الكآبة العنان لتشاؤم كلٍّ من شبنغلر وكيركغارد Kierkegaard وهايدغر Heidegger الذين منهجوا، فلسفياً، هذا الشعور بالقلق العميق في المجتمع الغربي. هايدغر هو المنظّر الأكبر للتحرر المفترض نسبةً إلى الميتافيزيقا، الذي أنتجته «الأزمنة المعاصرة» ونهضة الغرب التقنية. وثمة مرحلة أخرى تمَّ اجتيازها في حضارة غربية انكشفت أوهامها متوصلة إلى قمة نفوذها لتجد نفسها وحيدة في مواجهة شكل جديد من القلق، والسبب أن الإنسان أصبح «كائناً جديداً».[٢١] وسوف نعود لاحقاً إلى تأثيرات هذا القلق في سلوك الغرب.

«البحث غير المنجَز» عن عالم أفضل

ليس من السهل تحطيم جدار العزلة الفكرية والثقافية التي حبس الغرب

---

٢٠. سيرج موسكوفيتشي، **الآلة التي تصنع الآلهة**، مرجع سابق، ص ٤٤.

٢١. مارتن هايدغر: «عهد مفاهيم صيرورة العالم»، في كتابه: **طرقات لا تفضي إلى أي مكان**، Martin Heidegger, 'L'époque des conceptions du monde', in: *Chemins qui ne mènent nulle part*، منشورات Gallimard، باريس، ١٩٦٢، ص ٩٩-١٤٦.

فيها نفسه. لذا، ستكون نبرة هذا البحث عالية أحياناً لزعزعة الحقائق المريحة التي ليست، غالباً، إلا كليشيهات مفرطة في التبسيط، أو لتقويض دعائم الحقائق العقلية البديهيّة التي تدّعيها لنفسها.

وبالرغم من النقد اللاذع والجريء الذي تصدّى به كارل بوبر Karl Popper لمعظم المفاهيم في الفكر الغربي الحديث، وعلى الأخص نقده نظامَ فهم العالم لدى هيغل Hegel، متبيّناً فيه السبب لكل الانحرافات التوتاليتارية في الدولة الحديثة، فقد ظلّ الفكر الغربي المعاصر رهينةً لنرجسية وطّدت بشكلٍ حاسم «نظام البديهيات»[٢٢] في كتابات هيغل.[٢٣] أليس من الخطير أن نكونَ أسرى لنظام الفكر الهيغلي[٢٤] حين نتحدث عن الغرب أو الشرق وأممهما، أو عن المسيحية أو الإسلام أو الأنظمة الدينية الأخرى الكبرى، وكأنها ذواتٌ حية وكائنات جماعية مشخّصة وكليات شمولية؟ حيث إنه «لولا نتائجها المشؤومة ـ حسبما يقول بوبر ـ لأصبحت فلسفة هيغل غير جديرة بالاهتمام والتحليل. لكن مَثَل هيغل يتيح لنا أن نفهم كيف يمكن لمهرّجٍ أن يصنع التاريخ.»[٢٥]

إن الهمّ الذي حرّك فكر الفيلسوف كانط وحدا به إلى تصوّر أخلاقية

---

٢٢. بمعنى système axiomatique، أي منظومة من المسلّمات الفكرية التي لا يناقَش صوابها.

٢٣. راجع بشكل خاص: كارل بوبر في كتابه: **المجتمع المنفتح وأعداؤه** Karl Popper, *La Société Ouverte et ses Enemis*، جزآن، منشورات Seuil، باريس ١٩٧٩، في ما يخص الترجمة الفرنسية (الأصل الإنكليزي صدر عام ١٩٦٢). بوبر هو أبستمولوجي كبير للعلوم، وُلد في فيينا عام ١٩٠٢ وتوفي في إنكلترا عام ١٩٩٣. وقد شنَّ معركة فكرية شرسة ضد الفكر السياسي للفلسفة الهيغلية التي تعتمد التاريخانية والجوهرانية، والتي أصبحت عملياً النموذج العالمي المُحتذى لأمثلة الدولة المفروض أنها تمثل جوهر شعب وعبقريته.

٢٤. نسبة إلى هيغل (١٧٧٠ـ١٨٣١)، وهو فيلسوف ألماني، قال إن الفكر والكائن شيء واحد هو الفكرة. والفكرة تتطور على مراحل الإثبات ثم النقض ثم الخلاصة.

٢٥. راجع: كارل بوبر، **المجتمع المنفتح وأعداؤه**، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٢٢.

عالمية كوزموبولويتية[٢٦] ومتنوّرة مختلفة تماماً عن الأخلاقية الهيغلية، لم يعد اليوم إلا رسماً كاريكاتورياً تهديه لنا الولايات المتحدة باستمرار من خلال استغلالها الفاحش للقانون الدولي، وعبر تحويل منظمة الأمم المتحدة إلى أداة طيّعة في يدها. لقد عمل الغرب الذي اطمأن باله بعد موت الفاشية والشيوعية والاستبدادية في عقر داره، على تهميش الفكر النقدي المتوثب لكارل بوبر برغم الفائدة الكبرى التي يمكن أن يقدمها إلينا هذا الفكر. ثمّ إن الليبرالية الجديدة الظافرة و«الفلاسفة الجدد» استعملوا فكر بوبر في غير موضعه وخارج سياقه فاقداً فائدته، من أجل التنديد الانتقائي بزوال الحريات في العالم حين لا يتلاءم مع مفهوم المصالح الجيوستراتيجية الغربية. لقد صاغت هذا المفهوم «النخبُ المثقفة» التي حققت تألقها المهني في إطار الانتصار على الاتحاد السوفياتي والشيوعية، ومارست مزايدة نرجسية تعلو وتيرتها على قدر اعتناق هذه النخب في الماضي الأيديولوجيا الماركسية. تستطيع «القبلية الجديدة»،[٢٧] المستوحاة من هيغل، كما يصفها بوبر بامتياز، أن تسترخي هانئة البال بعدما تحرّر الغرب من الفاشية والشيوعية: المصيبتين اللتين شوّشتا الصورة العقلانية التي انطبع الغرب بها. بات البحث غير المنجز لكارل بوبر، القائم على إعادة النظر الدائمة في المقدمات المنطقية للعقل والعلم والقادرة وحدها على توطيد الحرية وتقدم الفكر الإنساني، بحثاً «محرَّماً».[٢٨]

إن الحجة الأساسية لهذا البحث، أن الخطاب النرجسي للغرب عن

---

٢٦. بمعنى Cosmopolite، أي الشيء الذي يصبح مقبولاً لدى كل المجتمعات.

٢٧. بمعنى néo-tribalisme، أي إعادة تنظيم المجتمع على أساس قَبَلي.

٢٨. كارل بوبر، **السعي غير المنجز** *Karl Popper, La quête inachevée*، منشورات Calmann-Lévy/Agora، باريس ١٩٨١ (الأصل الإنكليزي صدر عام ١٩٧٤)، والكتاب يتناول سيرة حياة الكاتب الفكرية.

نفسه الذي لا يعرف حدوداً منذ انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الأيديولوجيا الماركسية، يهمّش أكثر فأكثر الخطابَ النقدي الذي صنع قوة الغرب الحقيقية. ثمّة حجة رديفة، وهي أنه لم يعد هناك وجود للغرب، بالمعنى الجغرافي والأنثروبولوجي للكلمة، لأن الثقافة الغربية «فرنجت»[29] العالم، ومن ضمنه المجتمعات حيث المعارضة للهيمنة الغربية هي الأكثر احتداماً. وتتخذ هذه الهيمنة أشكالاً امبريالية من لون جديد تتجسّد بما نسميه اليوم «العولمة»، ترافقها مزايدة تدور في خطاب نرجسي ورسولي[30] ذي رسالة نبويّة، في آن، يحاول استيعاب كل شكل للفكر النقدي. إلا أن التهميش المتزايد لهذا الفكر النقدي، لا بل محاولة سحقه، ستكون كارثة للبشرية جمعاء.

لا يعني هذا التهميش نهاية الفكر النقدي لأنه مستمر في الغرب، وخارج الغرب، ولا يزال يساهم في إثراء معارفنا. إن مفكّرين مثل بيار بورديو Pierre Bourdieu (الذي خطفه الموت قبل الأوان في بداية ٢٠٠٢) وريجيس دوبريه Régis Dobray في فرنسا أو يورغن هابرماس Jürgen Habermas في ألمانيا وإريك هوسباوم Eric Hosbawm في إنكلترا أو نعوم تشومسكي Noam Chomsky وإدوارد سعيد في الولايات المتحدة... كل هؤلاء لا ينفكون يؤكدون حضورهم في السجالات الدائرة.[31] وعندما تأتي

٢٩. بمعنى occidentaliser، أي جعلت العالم غربيَّ السِّمة والثقافة، من جراء التماثل به أو الدخول في «التغريب» بشكل واعٍ أو لاواعٍ، كما سيتم ذكره في ما بعد، خاصة بالنسبة إلى العالم العربي.

٣٠. رسولي، أي ذو رسالة نبويّة الطابع.

٣١. نعوم تشومسكي عالم لغوي كبير وأحد المفكرين الأميركيين القلائل الذين يجرؤون على التنديد، من دون أي تحفظ، بالسياسة الخارجية الأميركية، واصفاً إياها بالإرهابية. لم يتوان، إثر أحداث الحادي عشر من أيلول، عن التذكير بكل الأعمال الإرهابية التي ارتكبتها الولايات المتحدة في العالم الثالث. وقد جُمعت بعض المداخلات والأحاديث التي أجراها في كتاب: نعوم تشومسكي، **الحادي عشر من أيلول: تشريح الإرهاب** Noam =

وسائل الإعلام على ذكر هذا الفكر النقدي، فالغاية هي خداعنا وإيهامنا بأن التعددية الديموقراطية لا تزال حية، بينما يذوب الفكر النقدي ويغرق في فيض اللغات الخشبية والأفكار الامتثالية التي تصوغها المسلّمات الكبرى للخطاب النرجسي الغربي.

تستقي محاجتي هذه ضد المسلّمات، على نطاق واسع، من مَعين الفكر النقدي الغربي نفسه، وخاصة في ما يتعلق بالصلات بين الديني والسياسي (حيث يقع الخطاب النرجسي في جوهرانيّة[٣٢] من نمط خاص). كما ترتكز هذه المحاجة على ما سأدعوه «العلمنة المخادعة» للثقافة الغربية المعاصرة التي لم تستطع الانعتاق من النماذج الأولية التوراتية: النبوية،[٣٣] الشعب المختار، خلاص البشريّة. ربّما كانت مُثُلها العليا علمانية في الشكل، لكنها بقيت في المضمون رهينة الآلية الخفية للديانات التوحيدية. لقد كان تحوُّل النماذج الأولية التوراتية من المستوى الديني إلى المستوى الدنيوي، صنيعَ فلسفة الأنوار والثورة الفرنسية، وهذا الأمر يعرفه جيداً الأخصّائيون في علم الأديان وعلماء الاجتماع واللاهوتيون والفلاسفة وعلماء

= Chomsky, *11/9: Autopsie des terrorismes*، منشورات Le Serpent à Plumes، باريس ٢٠٠١؛ وأيضاً في كتابه: **شريعة الأقوى: إعادة الصواب إلى البلدان المارقة** (أي حسب النظرة الأميركية الخارجة على القانون) *La loi du plus fort: Mise au pas des Etats voyous*، منشورات Le Serpent à Plumes، باريس ٢٠٠٢.

ويستعيد تشومسكي في الكتاب الأخير نصوصاً لرمزي كلارك Ramsey Clark الوزير السابق للشؤون الخارجية الأميركية، وإدوارد سعيد؛ بالإمكان أيضاً قراءة المؤلّف القيّم لإدوارد سعيد: **الثقافة والامبريالية** Edward Saïd, *Culture et Impérialisme*، منشورات Fayard/ *Le Monde diplomatique*، باريس ٢٠٠٢.

٣٢. بمعنى essentialisme، أي نظرية فلسفية تقرّ بأن هناك جوهراً غير قابل للتغيير لدى الشعوب والأجناس والأعراق والأديان بالرغم من التطورات الهائلة التي تمرّ بها المجتمعات عبر التاريخ.

٣٣. بمعنى prophétisme، أي الدعوة التي تتّخذ شكل الرسالة النبويّة.

النفس الاجتماعي،[٣٤] لكن الثقافة السائدة لم تستخلص العِبَر من ذلك.

لقد أصبح الخطاب النرجسي الذي يجعل من تطوّر العالم الغربي استثناءً فريداً لا مثيل له في تاريخ البشرية، شمولياً أكثر فأكثر. وهو يجعل من هذه «الاستثنائية» المزعومة مُطلَقاً يستند إلى ميثولوجيا «العقل» و«استقلالية الفرد» نسبة إلى المعتقدات الجماعية، وتجسيداً لعبقرية الغرب وحدها. لكأنَّ الغرب انفصل منذ قرون عدة عن باقي البشرية، خارجاً من العالم «السحري»

---

٣٤. بالإمكان، على سبيل المثال، قراءة محاضر الندوتين المتتابعتين اللتين أقيمتا في روما عامي ١٩٧٦ و١٩٧٨: **تفسير العلمانية** (منشورات Aubier، باريس ١٩٦٧)؛ **والدين والسياسة** (منشورات Aubier، باريس، ١٩٧٨). بالإمكان أيضاً الرجوع إلى المحاضرات والسجالات التي جرت في Collège de France في باريس ونُشرت تحت عنوان: «الحاضرة والمقدس» في مجلة *Raison présenté*، باريس ١٩٩٢، عدد ١٨١. هذا ولا ننسى الدراسة المميزة لسيرج موسكوفيتشي **الآلة التي تصنع الآلهة** Serge Moscovici, *La Machine à faire des dieux*؛ وأيضاً كتاب بيار لوجاندر: **الرغبة السياسية في الله: دراسة عن ترتيبات الدولة والقانون** Pierre Legendre, *Le Désir politique de Dieu: Etude sur les montages de l'Etat et du droit*، منشورات Fayard، باريس ١٩٨٨، والذي يُظهر التأثير العميق الذي تركته البنى اللاهوتية في صياغة القواعد المعيارية للدولة المعاصرة؛ كما لا ننسى الإشارة إلى العمل اللافت لكارل شميت: **اللاهوت السياسي** Carl Schmitt, *Théologie politique*، منشورات غاليمار Gallimard، باريس ١٩٨٨، الذي يتعرض لأسطورة تصفية اللاهوت من النظام السياسي، وإلى التحليلات العميقة لمانويل دو دييغيز عن صياغة اللاهوت المسيحي وتأثيره في النظريات المعرفية التي «لا تزال تصنع اليوم أساطيرنا عن المعرفة التفسيرية» على أساس مفهوم «الشرائع» (مانويل دو دييغيز في كتابه: **وخلق الإنسان إلهه** Manuel de Diéguez, *Et l'homme créa son Dieu*، منشورات Fayard، باريس ١٩٨٤، ص ١٣؛ كما يمكن قراءة الكاتب نفسه في: **بحث في عالمية فرنسا** *Essai sur l'universalité de la France*، (منشورات Albin Michel، باريس ١٩٩١)؛ **وأسطورة العقل الغربي** *Mythe rationnel de l'Occident*، (منشورات فرنسا الجامعية، باريس ١٩٨٠)؛ **والصنم التوحيدي** *L'Idole monothéiste*، (منشورات فرنسا الجامعية، ١٩٨١)؛ يجدر أيضاً التذكير بكتاب ريجيس دوبريه: **نقد العقل السياسي أو اللاوعي الديني** Régis Debray, *Critique de la raison politique ou l'inconscient religieux*، منشورات Gallimard، باريس ١٩٨١.

للدين ليؤكد سيطرة العقل الجماعي الذي وصفه بإسهاب كل علماء الاجتماع الكبار وعلى رأسهم ماكس ڤيبر.

ومنذ ذلك الحين، يبدو وكأن دور سائر البشرية، خارج الغرب، بات مقتصراً فقط على محاكاة الغرب والعصرنة والخروج من البنى ما قبل الرأسمالية العائلية والعشائرية والدينية، وذلك من دون جدوى، لأن الأجزاء غير الغربية من الإنسانية تعود وتسقط من جديد في غياهب بربرية لا يمكن القضاء عليها.

يظلّ هذا الخطاب الغربي يدور على نفسه بشكل مطلَق من دون أي تناول جِدي للصيرورات المعقَّدة التي يشهدها تطور العالم. لذا، تبدو جميع السجالات الرائجة عن زوال العلمانية وعودة العالم إلى التأثر بالدين، وكأنها في تباين كامل مع واقع المشكلات والأسباب المعقَّدة التي تخلقها الحالات العديدة لعدم الارتياح والقلق في المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى، كما تكرّس أسطورة عقلانية الغرب المتعارضة مع لاعقلانية المجتمعات الأخرى وتستمر في إلقاء غلالة قاتمة على فهم الأحداث.

إن المسألة التي يطرحها هذا البحث وتحاول إظهار تناقضات فلسفة الأنوار أو تلك المتعلقة بالأيديولوجيات الغنية والمختلفة التي نتجت عنها، تقوم على معرفة ما إذا كانت هذه الفلسفة استنفدت وسائلها وباتت على عتبة الاحتضار الوشيك، أو إذا كان لا يزال بإمكاننا، انطلاقاً منها، أن نحلم ببناء نظام عالمي أكثر عدلاً وإنصافاً، شرط أن نتمكن من تقليص الأثر السلبي للخطاب الغربي النرجسي وللصور التي ترافقه. لا يرمي هذا الكتاب إلى توجيه النقد الذي يستهدف أسس نظام العولمة الاقتصادية وأيديولوجيا الليبرالية الجديدة التي تنظمه، ذلك أن النقد وكلّ الأفكار التي يقدِّمها سبق أن عالجها مفكرون عديدون.[٣٥] إلا أننا نحاول أن نضع نظريات العولمة

٣٥. نشير بشكل خاص إلى التحليلات العميقة التي قام بها يورغن هابرماس في كتابه: =

الاقتصادية ضمن آلية الفكر اللاهوتي ـ السياسي الذي ينظم الخطاب الغربي النرجسي، والسعي إلى فهم السبب الذي حدا بالفكر النقدي لكي يصبح مهمَّشاً بفعل الخطاب شبه الفلسفي السائد الذي يجعل الفكر عالقاً في إشكاليات لا فائدة منها في فهم العُقَد النفسية والعُصابات والموجات العارمة من القلق الوجداني والاستياء الناتجة عن «فرنجة» العالم.

نقصد، في الفصول اللاحقة، بعبارة «الثقافة الأوروبية» الإشارة إلى الأفكار الكبرى لعصر النهضة وفلسفة الأنوار التي سادت في أوروبا ابتداءً من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر. ونقصد بعبارة «الحضارة الغربية» أو «الغرب» الإشارة إلى النفوذ والتقنيات والأفكار التي أضافتها الولايات المتحدة إلى أوروبا، وهي أصلاً متحدِّرة منها، وإلى الثقافة الأوروبية. ومن البديهي أن الإنسان الغربي لا يحتاج إلى قراءة هيغل وكانط وفيبر ودوركهايم أو هايدغر وشبنغلر، لكي تطالعه المشاعر الملتبسة والأهواء

= ما بعد الدولة ـ الأمة: كوكبة سياسية جديدة Jürgen Habermas, *Après l'Etat-nation. Une nouvelle constellation politique*، (منشورات Fayard، باريس ١٩٩٨)؛ وإلى الكتاب المشترك لمايكل هاردت وأنطونيو نيغري: **الامبراطورية** Mickael Hardt, et Antonio Negri, *Empire*، (منشورات Exil-Editeurs، باريس ٢٠٠٠) الذي يقدّم الوصف الأكثر علمية وصواباً لآلية النظام الدولي الراهن؛ كما نشير أيضاً إلى لوك بولتنسكي وآيفا شيابللو في: **روح الرأسمالية الجديدة** Luc Boltansky et Eve Chiapello, *Le Nouvel Esprit du Capitalisme*، منشورات Gallimard، باريس ١٩٩٩. أما عن الكوارث الاقتصادية التي سبّبها التحالف بين الخزينة الأميركية وصندوق النقد الدولي في بلدان عدة تشهد مرحلة انتقالية باتجاه الرأسمالية، فسنعود إلى الشهادة الاستثنائية لجوزف. أ. ستيغليتز في: **الخيبة الكبرى** Joseph E. Stiglitz, *La Grande Désillusion*، منشورات Fayard، باريس ٢٠٠٢. وقد حاز الكاتب «جائزة نوبل» للاقتصاد وهو نائب رئيس سابق للبنك الدولي في مجال الدراسات الاقتصادية، وقد استقال من هذا المنصب. يتعرض في كتابه من دون تحفظ لقصر النظر وانعدام أي رؤية عقلانية للولايات المتحدة ولصندوق النقد الدولي لدى تدخلهما لنجدة الاقتصاديات المتأزمة ولامبالاتهما الكلية أمام الفساد ونهب القلة الحاكمة المتحالفة مع الغرب للبلدان التي تحكمها.

الفكرية والسياسية التي تبثها أعمال هؤلاء المفكرين في الثقافة السائدة. إن الخطاب الغربي حين يتناول نفسه أو العالم، يبقى غالباً في جوانبه النقدية خطاباً مغلقاً، متعالياً، ينحدر من الأعالي المفترضة للفلسفة الهيغلية نزولاً إلى التعليق السريع والأحادي النمط الذي يقوم به الصحافي، إلى رواية التجسس التي تستعيد، حتى الغثيان، كلَّ الكليشيهات العنصرية عن الصُّفر والسود والسوفيات والڤيتناميين والثوار الجزائريين و«معتوهي الله» والعرب.

لا بل أكثر من ذلك، إن جزءاً من الخطاب الغربي النقدي الذي تروِّج له وسائل الإعلام، هو بالتحديد ذلك الذي يشير إلى انعدام المعنى، معبِّراً عن الحنين إلى عالم «سحري» سابق على «الأزمنة المعاصرة»: عالم خيالي وأسطوري أنتجته الأنطولوجيا[٣٦] الغربية لتفسر هذا القلق العميق الذي صاغت خطابه الحضارة الغربية الموسومة بالتفوق. ويصبح البحث عن الإكزوتيكية[٣٧] وعن الغربة المَرَضية لدى الشعوب والحضارات الأخرى، الملاذَ الوحيد. ويزج الدين بكل كبيرة وصغيرة، وتغدو بالتالي جميع المعارف عقيمة، بحيث يسود الكليشيه والتعميمُ التحليلاتِ الدائرة على نفسها والتي لا جدوى فيها. ولا علاقة لهذا الخطاب بذاك الذي يحلّل ويفضح الممارسة السياسية للغرب وآثارها الهدّامة، ذلك أن الخطاب النقدي الحقيقي يبقى مهمَّشاً إعلامياً، ومقتصراً على بعض الأجهزة الصحافية النادرة، أو على دُور النشر التي تملك الجرأة في إسماع صوت «المنشقّين» الجدد عن الفهم الدوغمائي[٣٨] للعالم.

لقد سُطِّرت هذه الصفحات في محاولة للتصدي للحجج الوهمية

---

٣٦. الأنطولوجيا: علم الكائن، فلسفة ما يكون، وما يوجد. والأنطولوجيا هي مركز الميتافيزيقا أو الماورائيات، وترى أن الكائن خليق بالدرس من زاويتي جوهره ووجوده.

٣٧. بمعنى exotisme، وهي الرغبة في الأشياء الغريبة والمنتمية إلى حضارة مختلفة تماماً.

٣٨. بمعنى dogmatique، أي الفهم الذي يرفض القبول بأن الاعتقادات التي يقرّها قد تحتمل خطأً أو نقصاً.

المتداوَلة التي تذرّ الرماد في العيون، فإذا بات متعذِّراً أن نفهم عالمنا على حقيقته، فلن تكون أحداث الحادي عشر من أيلول مأساةً محصورة في المكان والزمان فقط، ولن تستدعي منا الأسف الشديد والشجب الصريح فحسب، بل توشك أن تصبح نموذجاً مصغَّراً لردات فعل أعنف وأدهى، أو ذريعةً لشن حملات إعلامية تستهدف حرية الفكر في الصميم.

الفصل الأول

البحث عن جذور الشرخ الوهمي

المقاربة الثنائية للعالم وفشل «العالم الثالث»

غالباً ما نكون سجناء مقاربة ثنائية للوجود: السماء والجحيم، الخير والشر، التقليد والحداثة، الحضارة والبربرية، الشرق والغرب، العظمة والانحطاط، البداوة والمدنية، الطبيعة والثقافة، الجماعة والفرد، الديني والدنيوي، البدائي والمتحضِّر، العالم المتطور والعالم المتخلف... إلخ، حيث جرى، خلال فترة الحرب الباردة، الحديث عن البلدان الاشتراكية وكأنها تجسّد الشرق («الكتلة الشرقية»)، وصُوِّرت دول الحلف الأطلسي وكأنها تجسد الغرب، وهما القطبان اللذان كانا يتنافسان على السيطرة على العالم: التوتاليتارية[1] في البلدان الاشتراكية والديموقراطية في دول الحلف الأطلسي؛ الحضارة في الغرب والبربرية[2] في الشرق. إن تقسيم العالم هذا إلى ثنائيات متنافرة ومتناقضة يفترض خطأً أنها تعبّر عن اختلافات جوهريّة وأنها مسؤولة عن انقطاعات لا يمكن التغلّب عليها، يحدُّ كثيراً من قدرتنا على فهم العالم وتطوّره.

---

١. بمعنى totalitarisme، أي النظام الاستبدادي استبداداً مطلقاً.

٢. بمعنى barbarie، أي الهمجيّة والبدائية في الحياة المجتمعية على عكس التمدن والحضارة.

استُحدث مصطلح «العالم الثالث» كمفهوم جديد يزيل تقسيم العالم بين الكتلة الشرقية والحلف الأطلسي في ستينيات القرن الماضي. لكن «العالم الثالث» الذي افترض أنه مختلف عن الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي، سرعان ما أصبح ساحة دولية للمواجهة بين هذين المعسكرين. لذا، أطلقت بلدان «العالم الثالث» على نفسها تسمية «دول عدم الانحياز» وانتظمت في إطار المجموعة المسماة «السبعة وسبعين» التي أرادت أن تكون على مسافة متساوية من الشرق والغرب. ولا تزال هذه المجموعة موجودة، لكنها لا تملك تأثيراً يُذكَر في مجرى الأحداث الدولية، والسبب يعود إلى بروز منظمة أخرى نافستها، هي «منظمة المؤتمر الإسلامي» التي تزعمتها الباكستان والمملكة العربية السعودية، وهما اللتان حملتا لواء المعارضة للنظام السوفياتي، باسم الدين والإيمان، وتخضعان للنفوذ الأميركي.

انبثقت «حركة عدم الانحياز» من علمانية زعمائها: جمال عبد الناصر زعيم مصر الثورية، وتيتو رئيس يوغوسلافيا وبطل المقاومة ضد النازيين في البلقان، ونهرو رئيس وزراء الهند ورمز التحرّر والحداثة لشبه القارة الهندية. أما «منظمة المؤتمر الإسلامي»، فقد خرجت من «عباءة» الدين الإسلامي، وقام بصياغة توجهاتها الباكستانيون والسعوديون المتأثرون بالقرآن والشريعة الدينية المستمَدة منه، وكان هدفهم المعلَن محاربة الماركسية «الملحدة» في بلدان «العالم الثالث».

ثمة تناقض واضح بين الحركتين، فـ«منظمة المؤتمر الإسلامي» ذات ولاء غربي بينما «حركة عدم الانحياز» كانت ميّالة إلى الاعتماد على الاتحاد السوفياتي من أجل تسريع عملية إزالة الاستعمار. وقد ساهمت الثروة النفطية التي تتمتع بها المملكة العربية السعودية في تعزيز دور «منظمة المؤتمر الإسلامي»،[٣] كما أدت دوراً فعّالاً في إضعاف التأثير السوفياتي في «العالم

٣. بلغ عدد الدول الأعضاء في «منظمة المؤتمر الإسلامي» ستاً وخمسين دولة عام ٢٠٠٠.

الثالث» ونجحت في جعله ينقاد إلى المدار الأميركي. وهكذا، فإن ثنائية العالم ما لبثت أن اختفت إثر الانتصار الحاسم والشامل الذي أحرزته دول الحلف الأطلسي على البلدان الاشتراكية، و«الغرب» على «الشرق»، والرأسمالية على الشيوعية.

لكن الحادي عشر من أيلول يُظهر لنا، بطريقة صارخة، «تمرّد الفقراء المتسولين» في الشرق. إن الجنود المشاة الذين دفعتهم الولايات المتحدة إلى الذهاب إلى أفغانستان خلال الحرب الباردة وزوّدتهم بالأسلحة والعتاد بهدف محاربة الغزو السوفياتي تحت راية «الإيمان الإسلامي»، عادوا وتمرّدوا على «أسيادهم» الأميركيين، معتدين على الرموز المرئية لنفوذ الولايات المتحدة ومعسكراتها في شبه الجزيرة العربية وسفارتيها في أفريقيا وبرجيها المكابرين في نيويورك.

لقد أثار سقوط الاتحاد السوفياتي جدلاً كبيراً حول طبيعة التحالفات المحتملة في حقبة ما بعد المدّ الماركسي. فهل انتفض الشرق المسلم ضد الغرب المسيحي إثر هزيمة الاتحاد السوفياتي، بعد أن كان تحالف معه للقضاء على النفوذ السوفياتي؟ وهل حذا حذو الاتحاد السوفياتي السابق، بعد أن تحالف مؤقتاً مع الغرب للقضاء على النازية، فعاد وارتد عليه معلناً بداية الحرب الباردة. فما سرّ هذا التجاذب بين القطبين، هذا الشرق وهذا الغرب، اللذين يتصارعان ويتناحران من دون توقف؟ هل تحوّل تاريخ العالم إلى المعادلة القائمة على أساس الشرخ البنيوي الحاصل بين الشرق والغرب، والذي لا يمكن التغلّب عليه؟ وهل قُدِّر على الشرق والغرب أن يتصارعا من دون رحمة، منذ معركة الماراتون عام ٤٩٢ ق.م. التي خاضها الإغريق ضدّ الفرس، وحتى الحملة الأميركية على أفغانستان؟ وهل قدرهما أن يظلاّ إلى الأبد غريبين واحدهما عن الآخر؟

الواقع، أن مخيِّلتنا تزخر بصور تبسيطية وقوية، في آن، تجعلنا عالقين في الكليشيه والحكم المسبَق المتمحورين حول هذه التناقضات الثنائية

المصطنَعة بين الشرق والغرب. وهكذا، يتم تصوير الشرق على أنّه روحاني ولاعقلاني وعنيف، ووسم الغرب بأنه عقلاني وعلماني وتقني ومادي وديموقراطي. أي باختصار: الشرق بربري بالنسبة إلى الغربيين، والشرقيون «يجاملونهم» أيضاً بالتهمة والادّعاء المعاكسين: الغرب هو أرض البربرية المتجسدة، قارة بلا روح وبلا دين، آلة نفوذ حسابية جشعة تريد السيطرة على العالم من خلال الحرب والتطور العلمي والتقني والتجارة غير المُتكافئة واستغلال أنوثة المرأة. وتواكب هذه الصورةَ سلسلةٌ من التقاليد الأدبية والأكاديمية الثابتة على جانبي الشرخ القائم سنتحدث عنها لاحقاً.

هل المتوسط هو المحور المركزي للشرخ بين الشرق والغرب؟

ولكن، أين هو محور الشرخ هذا؟ ما الذي يصوغه وينظّمه؟ تلك هي المسألة الرئيسية. هل هو الدين أم اللغة أم العِرق أم الحضارة؟ وهل عالمنا المتوسطي الصغير الذي انطلقت منه كلُّ هذه الصور، هو المحور المركزي لهذا الشرخ؟ ثم ألم تتصارع وتتناحر هذه الثنائيات المتعارضة: الإغريق ضد الفرس، الرومان ضد القرطاجيين، المسلمون والعرب ومن بعدهم العثمانيون الأتراك ضد أوروبا الكاثوليكية... إلخ، من أجل السيطرة على المتوسط، وهو مركز النزاعات العِرقية القديمة والحديثة؟

ألم يحاصر الإسلامُ أوروبا مرتين؟ المرة الأولى باحتلال إسبانيا غرباً، والمرة الثانية عند بلوغه مشارف فيينا شرقاً. ألم يطوّق أوروبا المسيحية على الدوام، من المغرب حتى البلقان، بحرٌ ذو مناخ إسلامي؟ ثمّ، ألم تحاصر أوروبا، بدورها، أيضاً الشرقَ مرتين؟ أولاً مع حملات الصليبيين، وثانياً بعد عدة قرون، مع الغزو الظافر لأوروبا الاستعمارية من المغرب حتى آسيا الوسطى المسلمة، على أيدي الروس والفرنسيين والإنكليز والإيطاليين. أليست مفاهيم الحياة والدين والعادات ومستويات التطوّر، مختلفة كل الاختلاف بين ضفتي المتوسط إلى درجة نستطيع معها أن نتحدث عن شرخ

عميق وحدود شبه مغلَقة تفصل بين عالمين غريبين أحدهما عن الآخر؟ وهل يكون الحادي عشر من أيلول فصلاً جديداً من صراعات التناحر القديم الدامي بين الشرق والغرب؟

إذا كانت هذه هي الحال مع الشرق المتوسطي، فما هي الحال، إذاً، مع الشرق اللامتوسطي واللامسلم، أي الشرق الأقصى، عالم «الخطر الأصفر»؟ لقد أعلن الغربُ هذا الشرقَ الذي لا علاقة له لا بالمسلمين ولا بالعرب، «عالماً غريباً» أيضاً. ويتجلى هذا مثلاً في الصورة الساخرة والمُهينة التي رسمها الأدب الغربي الشعبي لليابانيين والصينيين، «قصيري القامة، ذوي الوجوه الصفراء الجامدة والنفوس التي يكتنفها الخداع والغموض». كذلك، بادل الصينيون واليابانيون الغربيين باحتقار مماثل. فرعايا امبراطورية السماء الصينية، أو رعايا امبراطورية الشمس اليابانية، يرون في الإنسان الغربي الأبيض نموذجاً للبربريّ، «المبتذل والغضوب وغير القادر على التحكم بمشاعره، والذي يريد بأي ثمن فرض دينه وتجارته». لذا، ألا يفصل هذا الشرق الأقصى عن الغرب شرخ أكثر عمقاً من ذاك الموجود بين الأوروبيين المسيحيين من جهة، والعرب والأتراك والإيرانيين المسلمين من جهة أخرى؟ هؤلاء الجيران الأعداء الذين كان يجدر بهم أن يتآلفوا ويتعارفوا، بينما يبدو التآلف مع العالم الشاسع المغلق للصينيين واليابانيين أكثر صعوبة؟

مع ذلك، يبدو اليوم وكأن هذا الشرخ الكبير بين الصُّفر الشرقيين والبِيض الغربيين، قد اختفى أو كأنه لم يعد يُنتج النمط نفسه للعداء والعنصرية اللذين سادا حتى منتصف القرن العشرين حين سيطر الذعر على النفوس من جرّاء الحديث عن «الخطر الأصفر». يجدر بنا، هنا، التساؤل عن سبب اختفاء هذا الشرخ. ربَّما كان مرد ذلك إلى الإنجازات الباهرة التي حققها الشرق الأقصى في المجال الاقتصادي، وبخاصة اليابان، والتي تحقَّقت في الميدان العسكري أيضاً، وتحديداً في الصين والفيتنام. فالصين

خلال حرب كوريا،[٤] أظهرت قوة كبيرة، وأثبتت في ما بعد قدرتها على تطوير السلاح الذري. كما نجحت الفيتنام في تحقيق جلاء الجيوش الاستعمارية الفرنسية ثم الوحدات الأميركية عنها. وحقَّق الفيتناميون، برغم تفاوت القوة بينهم وبين الغرب، النصر على إرادة التسلّط الغربية بفضل حزمهم وقدرتهم على التنظيم والتضحية. وقد لعب هذا الأمر دوراً حاسماً في تغيير نظرة الغرب حيال الشرق الأقصى.

إن المقاومة العسكرية الظافرة تفرض دوماً الاحترام. كانت هذه هي الحال بالنسبة إلى الأتراك عند نهاية الحرب العالمية الأولى حين نجحوا، تحت إمرة مصطفى كمال، في إلحاق الهزيمة بالجيوش الغربية المنتشرة على الأراضي العثمانية والساعية إلى تقسيمها. وقد صمتت، منذ ذلك الحين، التعليقات الغربية الساخرة للأتراك الذين كانوا يُنعَتون بأقذع النعوت طوال القرن التاسع عشر، حين كانت السلطنة العثمانية المفككة و«المريضة» غير قادرة على الدفاع عن نفسها. ويكفي هنا التذكير بأنه لا تزال تُستعمل حتى يومنا هذا، في المفردات الغربية الشعبية، عبارة Tête de Turc للسخرية من الأتراك كشعب «عنيد لا يفقه شيئاً وهُزْأة للناس؟» فإذا كان الأتراك قد مسحوا الخزي عنهم، فإننا نشهد، بخلاف ذلك، استمرار النظرة التحقيرية التي لا يزال الغربيون يرمقون بها جيرانهم العرب الذين لم يستطيعوا الحؤول دون الغزوات العسكرية والهيمنة الغربية على أرضهم، وذلك منذ غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ إلى يومنا هذا، مروراً بالغزو الصهيوني لفلسطين، ولم يستطع أي مجتمع عربي أن يتوصل إلى تطوير قدراته العسكرية للدفاع عن نفسه.

---

٤. حصلت الحرب الكورية عام ١٩٥٠ عندما قامت الولايات المتحدة بإنزال عسكري ضخم في شبه الجزيرة الكورية لمنع استيلاء الشيوعيين عليها، بعد أن سقطت الصين في أيديهم. وقد أدّت الحرب إلى تقسيم شبه الجزيرة هذه بين كوريا الشمالية التي أصبحت في أيدي الشيوعيين، وكوريا الجنوبية التي أصبحت خاضعة لحكم عسكري تحت سيطرة الولايات المتحدة.

وفي الاتجاه المعاكس، غالباً ما يعاني العرب، في وعيهم البائس وقلقهم الحياتي، انجذاباً يخالطه نفور انفصامي حيال نمط الحياة الغربية. لم يتشبّث العرب إلا بكليشيهات مبسَّطة عن الغرب، بعضها شبيه بالطروحات الكبرى للثقافة الرومنطيقية الغربية وفلسفة «خيبة الأمل» التي سنتحدث عنها لاحقاً. لقد تمكّن الفرنسيون والإنكليز، بعد الحرب العالمية الأولى، بواسطة فِرَق صغيرة، من السيطرة على كل البلدان العربية التي لم تُفلح، في أيٍّ من الأوقات، في التصدي لأيّ من هاتين القوتين الاستعماريتين. وبعد الاستقلال، ألحقت بالعرب الهزائم العسكرية المتتالية على يد الجيش الإسرائيلي (أعوام ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣)، ثم على يد الجيش الأميركي في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ومن ثم الثالثة في عام ٢٠٠٣. وتشهد هذه الهزائم على استمرار القصور العسكري العربي، بما يشجع على النظرة الاحتقارية الغربية للعرب الذين يزيد عجزهم العسكري من تفرقهم، ويغري ذوي الأطماع بهذه المنطقة الغنية من العالم، في مشهد مؤثّر يبدو معه العالم العربي وكأنه إرث من دون وريث.

بالمقابل، لن تشعر تركيا الحديثة بأي عقدة كونها عضوة في حلف شمالي الأطلسي، وقد سمحت بتمركز فرق أميركية على أرضها. لكن وجود الفرق الأميركية في السعودية كان، على العكس، رأس حربة للأيديولوجيا العنيفة المعادية للغرب التي ينادي بها أسامة بن لادن وشبكة مقاتليه. لقد أنشأت تركيا في ظل حكم مصطفى كمال، مؤسسات علمانية بعد أن كانت مقراً لآخر خلفاء الإسلام الكبار. ولا تزال هذه المؤسسات ناشطة. أما العالم العربي والباكستان وإيران، فتُظهر عداءً مستمراً للعلمانية التي يجري اتهامها في الأدب الإسلاموي بوصفها آلة حرب غربية ضد الإسلام، وسوف نعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.[٥]

---

٥. راجع الفصل السادس بهذا الخصوص. يُلاحظ أنه برغم علمنة تركيا وانضمامها إلى حلف =

على أية حال، يبدو هذا الشرخ اليوم وكأنه يعود إلى نقطة المحور الأساسية، أي شرق المتوسط وآسيا الصغرى المسلمة: هذه البلدان التي ترفض الوجود الإسرائيلي وتُشهر القرآن معلنة عداءها للثقافة الغربيّة. بَيْدَ أن الفوضى التي يتخبط فيها العالم لا تبدو سهلة الفهم؛ لأنه إذا كان اختلاف الأديان هو الذي يعزِّز هذا الشرخ، فكيف بالإمكان، إذاً، تفسير الشرخ الذي قوَّض في ما مضى وحدة الكنيسة المسيحية ذات الديانة الواحدة؟

كيف انفصلت امبراطورية بيزنطيا، ابنة اليونان القديمة، عن روما، مما سهّل الغزوات العربية في القرن السابع، حيث تمت أسلمة غرب المتوسط وشرقه، وهما الموئل الأول للمسيحية وركيزتها؟ هل كانت الامبراطورية البيزنطيا امبراطورية شرقية أم غربية؟ وإلى أي عالم انتمت هذه الامبراطورية المنتشرة على جهتي أوروبا وآسيا الصغرى، هذه الغائبة الكبيرة من ذاكرة الغرب التاريخية؟ إذا كان التباعد الحاصل قد بلغ هذا القَدْر، فكيف استطاعت، إذاً، هذه الامبراطورية «الهجينة» أن تسود أكثر من عشرة قرون؟ كيف أمكن للهيلينية[٦] التي عمَّ نفوذها أرجاء آسيا الصغرى خلال ثلاثة عشر قرناً، أن تختفي بهذا الشكل؟ كيف استطاع العِداء بين كنيستين تنتميان إلى عقيدة إيمانية واحدة، أن يفضي إلى نهب بيزنطيا على أيدي المحاربين الصليبيين عام ١٢٠٤؟ ولماذا انتقلت المسيحية، وهي دين نشأ وساد الشرق خلال سبعة قرون، إلى الغرب مُخليةً المكان للإسلام على أرضها الأصلية؟ وكيف استطاعت اليهودية، وهي الديانة المؤسِّسة للتوحيد والمعتبَرة رمزاً للروح الساميّة، المعذَّبة على مدى قرون طويلة في أوروبا المسيحية، حيث

= شمالي الأطلسي، فهي ليست مقبولة كدولة كاملة العضوية في الاتحاد الأوروبي. ويبدو هنا أن الحدود بين الشرق والغرب لا تختفي من نمط التفكير الأوروبي.

٦. بمعنى Hellenisme، أي الحضارة الإغريقية التي عمّت شعوب المتوسط وتمازجت بثقافاتها المختلفة بشكل لافت. وقد حافظ العرب على هذا التراث الهيليني بعد أن انقطعت كنيسة روما عن الكنيسة البيزنطية.

تعرَّضت للإبادة على أيدي النازيين، أن تحقق الآن هذه النهضة في جميع البلدان الغربية الكبرى؟ ولماذا لا تتمكن اليهودية، ذات الأصل الساميّ، من إعادة توطيد قدميها في الشرق الساميّ، مهدِها الأول في ما مضى، إلا على نحو عنيف ومتأزم؟

إذا كانت الأديان هي التي ترفع بنية المجتمعات وتؤمّن تماسكها كما ندّعي، فلماذا عرفت المسيحية هرطقات وصراعات داخلية مماثلة في الشرق كما في الغرب؟ لماذا حصل هذا الانشقاق الكبير بين الكاثوليك والبروتستانت، والذي غيَّر تماماً وجه المسيحية الغربية إثر الحروب الدينية الدموية التي رسمت معالم التنوع الثقافي الغربي الحديث؟ لماذا تم أيضاً تمزيق الإسلام الذي يضطلع بدور شمولي وجامع، عبر الانشقاقات الدائمة واختلاف المِلل والمدارس الدينية المتناحرة؟ ثم، ألا يزال حتى اليوم الخلاف بين الشيعة والسُّنة فاعلاً ومتجذّراً في كثير من المجتمعات الإسلامية؟

أسئلة شتى تدحض الحقائق المبسَّطة والمسلَّمات الوهمية التي تغذّي المخاوف والضغوط والضغائن المترسِّخة في مختلف أشكال العُصابات الثقافية،[٧] التي سنحاول تحليلها بالرجوع إلى أسبابها.

أسطورة تقسيم العالم بين آريين وساميّين

نستطيع العثور على الجذور الثقافية لهذا الشرخ المتخيَّل بين الشرق والغرب في أعمال علماء أصل اللغات وتصنيفها، الأوروبيين، الذين رسموا خارطة اللغات انطلاقاً من تقسيم مُفترَض للعالم بين شعوب ساميّة وشعوب هندو ـ أوروبية. وقد تمحورت حول هذا التقسيم كل النظريات والخيالات والخطب المتداولة عن الشرق والغرب. وقد استندت أعمال إرنست رينان Ernest Renan وجورج دوميزيل Georges Dumézil وميرسيا إلياد Mircéa

٧. بمعنى névroses، أي العُصابات، وهي اضطرابات عصبية نفسية تسبّب عقداً.

Eliade إلى تطور الألسنية[٨] الذي يحدد ويُصنّف المجموعات اللغوية ذات الأصول المشتركة. فاللغات الهندو ـ أوروبية، حسب نظريات الألسنية السائدة، تنتمي إلى المجموعة العرقية الآرية الكبرى التي يُفترض أن تفرّعت منها كل الشعوب الأوروبية والهندية، بينما تنتمي اللغات الساميّة، السائرة وفق آلية مختلفة، إلى شعوب الشرق القديم: البابليين والآراميين والعبرانيين والسريان والعرب وغيرهم من الشعوب التي سكنت هذه المنطقة من العالم.

يُفترَض، إذاً، باللغات أن تتطابق والبُنى الذهنيةَ والأعراقَ. هذا ما يؤكده موريس أولندر Maurice Olender ، وهو اختصاصي في علم الأديان، بالقول: «العِرق ـ أي التصنيفات حسب الملامح الجسدية التي وضعها علماء الأنثروبولوجيا، أو «العِرق اللغوي» ـ كما وصفه رينان ـ لا يمكن في أي حال من الأحوال الدخول فيه ولا الخروج منه. فلغتنا تحدِّدنا، إذاً، كما يحدِّدنا ديننا ولون بشرتنا.»[٩] ويضيف أولندر قائلاً: «يعيش علماء كثيرون في الغرب ما بعد عهد الثورة، أزمة هوية قومية ودينية، سواءً كانوا مؤيدين لداروين Darwin[١٠] أو مناهضين له، مما يدفعهم إلى التفتيش عن هويّة أجدادهم ليتسنّى لهم مواجهة الحاضر بشكل أفضل، أو لكي يتّجهوا ناحية المستقبل على رجاء أن يتحكموا بفهم مغزاه.» وهذا ما يؤكده جان لامبير Jean Lambert مستعيداً عنوان كتاب أولندر، بالقول: «ابتدع القرن التاسع

---

٨. الألسنية: علم أصل اللغات linguistique.

٩. موريس أولندر، **الآريون والساميون في معارف القرن التاسع عشر**، موسوعة الأديان، **Maurice Olender**, ***Aryens et Sémites dans les savoirs du xix^e^ siècle***, in: ***Encyclopédie des religions***, ***Encyclopédia Universalis***، باريس ١٩٩١، ص ٨٤.

١٠. هو عالم الأجناس والأعراق الشهير داروين Darwin (١٨٠٩ـ١٨٨٢) الذي وضع النظرية الحديثة حول تطور البشرية بالتدريج من الحالة الحيوانية إلى الحالة الإنسانية. وكما هو معلوم، فإن هذه النظرية تدحض التصور التوراتي لخلق الإنسان من قِبَل الله في يوم واحد، وهو تصور مشترك بين الأديان التوحيدية الثلاثة.

عشر هذا «الثنائي المُرسَل من السماء» الآرين والساميّين، ووجد فيه الغربيون المنتمون إلى المسيحية سرَّ هيمنتهم على العالم.»[11]

من الأهمية بمكان أن نشير، هنا، إلى أن شبنغلر، يجمع في كتابه، **أفول الغرب**، تحليلاته المتعلقة بهذه اللغات والشعوب في فصل كبير وحيد تحت عنوان: «مشاكل الثقافة العربية» (وليس مثلاً مشاكل ثقافات بلدان ما بين النهرين).[12] ويرى شبنغلر قطيعة بين الإغريق والآراميين منذ أقدم العصور، ويؤكد على المكانة المميزة للدين في حياة الحضارات، مصادقاً على أحكام ڤيبر ودوركهايم المسبَقة والمطعَّمة بالنظريات عن الآريين والساميّين. يقول شبنغلر: «إن الكائن الواعي والدِّين واللغة، عناصر هي من الترابط الداخلي بحيث أدّت بشكل حتمي إلى الفصل التام بين مجال لغوي يوناني يخضع لثبات شكلي، ومجال آرامي ينتمي إلى المجال العربي الصِّرف، منذ العام سبعين للميلاد، مما أدّى إلى نشوء منطقتين مميزتين في مجال تطور الدين السحري.» إلا أنَّ الأعمال المفحمة لجاك غودي Jack Goody التي سنذكرها في الفصل اللاحق، تُظهر أن بنى الغرب والشرق لم تتمايز إلا في مرحلة تاريخية متأخرة جداً مع الثورة الصناعية.

فما هي، والحالة هذه، تلك الديانات الساميَّة التي تهاجر بيُسر لتستقر عند شعوب آرية: الإسلام في بلاد فارس والهند، والمسيحية واليهودية في أوروبا؟ عندما تُستحضر أنواع الخطب البلاغية العنصرية الحامية الوطيس التي تفوّه بها رينان عن «بلادة» الذهن الساميّ المتجسد في الإسلام، كيف يعود

---

١١. جان لامبير، **الإله المتقاسَم: مختارات مقارنة للأديان التوحيدية** Jean Lambert, *Le Dieu distribué: Une anthologie comparée des monothéismes*، منشورات Cerf، باريس ١٩٩٥؛ وأيضاً: موريس أولندر، **لغات الجنة: الآريون والساميون الثنائي المرسل من السماء** Maurice Olender, *Les langues du paradis: Aryens et Sémites, un couple providentiel*، منشورات Seuil، باريس ١٩٨٩.

١٢. أوزوالد شبنغلر، **أفول الغرب**، الجزء الثاني، ص ١٧٣ـ٢٩٨.

بإمكاننا أن نفهم هذه الهجرات العملاقة للديانات الساميّة إلى عقر دار الشعوب الآرية؟ ثم كيف تنازلت إيران، وهي أرض آرية بامتياز، بهذه السهولة للإسلام، وهو ديانة ساميّة، لتصبح الحلبة التي شهدت أكبر ثورة دينية في القرن العشرين؟ لماذا لا تكون إيران المسلمة التي يصفها غوبينو Gobineau، وهو مفكر يبحث في هرمية الأعراق، موضوعاً للتعليقات التحقيرية المعادية للإسلام من قِبَله، لا بل المُهينة كتلك التي نجدها عند رينان؟[١٣]

---

١٣. يشكّل خطاب رينان هذا، بالفعل، نصاً مؤسّساً لظاهرة الخوف المعاصر من الإسلام. ونستطيع التحقق من ذلك لدى قراءتنا هذا المقطع الذي يقول فيه رينان:

> يتمثل، حالياً، الشرط الأساسي لانتشار الحضارة الأوروبية في تدمير الصنف السامي عن بكرة أبيه، وفي تدمير السلطة الثيوقراطية للإسلام، وبالتالي تدمير الدين الإسلامي. إن هذا الدين لا يمكن أن يُكتب له الوجود إلا كدين رسميّ، لأنه يتلاشى ما إن نجعل منه ديناً حراً وفردياً. ليس الإسلام ديناً ودولة فقط، كما كانت الكاثوليكية في فرنسا في عهد الملك لويس الرابع عشر، أو كما هي الآن في إسبانيا، بل هو الدين الذي يلغي الدولة والتنظيم الذي تُجسّد الدول الحبرية في أوروبا نموذجاً عنه. هنا، بالذات، يكمن سر الحرب الأبدية التي لا تتوقف ما لم يتم القضاء على آخر أبناء إسماعيل وتركهم لبراثن البؤس والشقاء وما لم يُقصِهم الرعبُ إلى عمق الصحراء. الإسلام هو النفي الكامل لأوروبا، إذ إن حتى التعصب الذي شهدته لفترة زمنية قصيرة في إسبانيا في عهد فيليب الثاني، وفي إيطاليا في عهد البابا بيوس الخامس، لا يمثل شيئاً يُذكَر بالمقارنة مع تعصبه. إنّ الإسلام احتقار للعلم وإلغاء للمجتمع المدني، وهو أيضاً التبسيط المرعب للعقلية السامية التي تقلّص من قدرة العقل البشري وتجعله مغلَقاً أمام كل فكرة رفيعة وكل شعور مرهف وكل بحث عقلاني، لتضعه في مواجهة تكرار أبدي لا يزيد شيئاً بالمعنى: «لا إله إلاّ الله.»

هذا المقطع مقتطف من خطابه الافتتاحي لدرس اللغات العبرانية والكلدانية والسريانية في Collège de France، عام ١٨٦٢. وقد نُشر هذا النص في كتاب إرنست رينان: **ما هي الأمة** Ernest Renan, *Qu'est-ce qu'une nation?*, Presses Pocket, Coll. Agora/Les Classiques، (منشورات برس بوكيت، مجموعة آغورا للكتب الكلاسيكية، باريس ١٩٩٢) والذي تمّ تحليله بإسهاب في كتابي: **انفجار المشرق العربي ١٩٥٦ـ٢٠٠٠** Georges =

وكما يشرحه موريس أولندر:

إن الوطن الآري، بعد أن تمّت إعادة اكتشافه، أصبح في إمكانه أن يلعب دور الجَد الجديد للبشرية الغربية الباحثة عن شرعيتها. واستطاعت الأبحاث الهندو ـ أوروبية، في واحدة من المهام العديدة الموكلة إليها في تاريخ العلوم الإنسانية، أن تقدّم أجوبة مستجدة عن مجموعة من التساؤلات التي باتت ملحة في القرن التاسع عشر، وهي مسائل تلامس قضيّة النّسَب ورسالة الغرب الذي يعيش أزمة هوية قومية وسياسية ودينية.[١٤]

وهكذا، فإن الخرافة القائلة بشأن أصل هندو ـ أوروبي للغرب، أو «هندو ـ جرماني» كما يصفه بعض المؤرخين، هي التي أعطت الغرب ديناميته وتفوقه على الشرق الساميّ في هرمية الحضارات. صحيح أن الشرق الساميّ ابتَدَع، بفضل اليهودية، الدين التوحيدي، لكنه بقي منذ ذلك الحين مراوحاً في مكانه. بينما منحَت أسطورةُ الانتماء إلى العرق الآري، أوروبا، الديناميةَ والإبداعَ اللذين أتاحا الانطلاقة المزدهرة للمسيحية الغربية التي شُيِّدت فوقها جميعُ الفلسفات الكبرى المعاصرة.

وصف أحد الأساتذة في «جامعة مونتريال»، بكثير من الإسهاب، الدورَ الذي يرى أن المسيحية قد لعبته في توطيد نفوذ الغرب. ومع أنه يعترف بالدور البارز الذي اضطلعت به تحديداً مدينة أنطاكية في الشرق في تطوير المسيحية، لم يتردّد في إضفاء السِّمة «الآرية» على هذا الدور الاستثنائي المعطى حصرياً للغرب في تبلور المسيحية وتأسيسها. يقول:

= Corm, *Le Proche-Orient éclaté*، منشورات Gallimard،، مجموعة Folio للتاريخ، باريس ٢٠٠٣، ص ١٠٧ـ١١٢.

١٤. موريس أولندر، **لغات الجنة**، ص ١٨٠.

يجب ألا ننسى مع ذلك الإشارة إلى الدور الذي لعبته مدينة أنطاكية القديمة بفضل طابعها الكوزموبوليتي المتسامح، هذه العاصمة التي ارتوت أرضها بالدم الهندو ـ أوروبي. أصبحت انطاكية التي وُصفت في مجمع نيقيا[١٥] عام ٣٢٥ بأنها «قلب العالم المسيحي وعينه،» مركز إشعاع المسيحية الغربية.[١٦]

ويعتبر هذا الكاتب أن قوة الهيلّينية لا تعود إلى انتشارها في الشرق، بل إلى «الغزوات الشمالية المتلاحقة التي قام بها، على حدّ علمنا، الأيونيون والآخيون والدوريون.» لكن هذه الغزوات سابقة بعدة قرون على «المعجزة» الإغريقية. كذلك الأمر بالنسبة إلى روما، إذ يعتبر أنه يجب أن تُنسَب عظمة روما وتفوقها إلى العنصر الآري. ويقول، محتقراً الوقائع التاريخية نفسها:

إن كل نفوذ روما العظيم ودورها الحضاري كمركز هندو ـ أوروبي خارجي، لم يمنعا أوروبا من السقوط في حضن آسيا لو لم تعمل جرمنة[١٧] البلدان الأوروبية الرئيسية وسلتيتها[١٨] على تحصين قوة الغرب الدفاعية وتنظيمها.[١٩]

---

١٥. نيقيا: مدينة قديمة في آسيا الصغرى هي اليوم إزنيق في تركيا، عُقد فيها مجمعان مسكونيان عامي ٣٢٥ و٧٨٧، وقد كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية ١٢٠٤ـ١٢٦١.

١٦. أ. ش. دوغتنبرغ، **الغرب قيد الإنشاء: بحث موجز ونقدي لأسس القرن العشرين** A. Ch. De Guttenberg, *L'Occident en Formation Essai de Synthèse et de Critique des Fondements du XXe Siècle*، منشورات Payot، باريس ١٩٦٣، ص ٤٣٢.

١٧. جرمنة: من جرماني، أي ألماني، وتعني هنا إخضاع البلدان الأوروبية لحكم القبائل الجرمانية على أوروبا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية.

١٨. سلتية Celtique من سلتيّ Celtes، أي إخضاع البلدان الأوروبية لحكم السلتيين، وهم شعب يُنظر إليه على أنه من أصل هندي ـ جرماني استوطن أوروبا الوسطى قديماً واندمج بالشعوب الرومانية.

١٩. أ. ش. دوغتنبرغ، **الغرب قيد الإنشاء**، مصدر سابق، ص ٢٨٩ـ٢٩٠.

وهكذا، يستطيع الفكر الغربي، من خلال هذه القطيعة المصطنَعة بين الآريين والساميّين التي تدعي الطابع العلمي، أن ينفصل بطريقة أسطورية عن العالم الساميّ المشرقيّ، معزِّزاً الشرخ الذي يُلهم حتى اليوم المشاعر المتصلبة والمتناقضة، لا بل العدائية، التي تهيمن على الأجواء السياسية على ضفتي المتوسط. نستطيع هنا، أن ندلِّل على خطورة هذا الادّعاء، بما نظّر له موريس أولندر:

> إن إحدى المسائل التي أثارت كتابات كثيرة، تتعلق بمعرفة الطريقة التي يجب أن نتعامل من خلالها مع هِبة الرب العظيمة، هذا الدين التوحيدي العبراني ـ المتأرجح دوماً، بالنسبة إلى القرن التاسع عشر، بين الرائع والشائن ـ حسبما نوجه أنظارنا شطر جانبه المسيحي أم لا. ويقوم الحل لهذه المسألة غالباً على إثبات أن هذا الكنز الإلهي، غير المتقاسَم في البداية، ارتقى إلى مرتبة عالمية بفضل العبقرية الآرية. وعلى هذا الأساس، أصبح من السهل، عبر تنظيم تملُّك ماض ديني قيل عنه إنه مرموق، النظر إلى المستقبل.[٢٠] ولم تكن أنماط الاستقصاء وطرق تحديد الوقائع اللغوية وتصنيف الشعوب وتقاليدها، غريبة عن الأدوات المفاهيمية[٢١] التي استُخدمت في هذا البناء.

والأكثر خطورة من ذلك كله، هو الأيديولوجيا الآرية التي تخلت في نهاية القرن التاسع عشر عن كل مرجعية تستند إلى قاعدة الدين التوحيدي لكي تتوسع في خرافات جرمانية خاصة استعادها الموسيقي الكبير ريتشارد فاغنر Richard Wagner، نتج عنها الشكل الأعنف لمعاداة الساميّة، وهو النازية. وهدفت إبادة الجماعات اليهودية في أوروبا إلى «تطهير» العرق

---

٢٠. راجع: موريس أولندر، **لغات الجنة**، ص ١٨٣.

٢١. بمعنى conceptuel، أي المتعلق بالمفاهيم.

الآري من كل عنصر يمكن أن يذكّره بالأصول المشرقية الساميّة التي ترقى إليها الحضارة الغربية. لقد سعت النازية إلى إثبات الشرخ الوهمي في الواقع الفعلي، وجعله كاملاً ومطلقاً، على أرضية نشوء الأساطير الغربية وتطويرها عن أصل اللغات الذي تعممت في القرن التاسع عشر. وسنرى في مكان لاحق في الفصل السادس، كيف أعادت الثقافة الغربية في السنوات الثلاثين الأخيرة، دمج التراث اليهودي في الثقافة الغربية على حساب إقصاء متعاظم للإسلام وتكريس دولة إسرائيل، ساعية إلى تحويل «الهولوكوست»[٢٢] إلى قربان يُقدَّم على مذبح إنشاء دولة إسرائيل.

إن أسطورة تقسيم العالم إلى آريين وساميّين، هي التي رسّخت أيضاً الكليشيه السخيف القائل بأن العرب واليهود لا يمكنهم إلا أن يتفاهموا في فلسطين لأنهم أخوة في العرق الساميّ، وبأن الصراع الإسرائيلي ـ العربي مصطنَع ترعاه أنظمة عربية ديكتاتورية فاسدة. وضمن هذه الصورة/ الكليشيه، يفد المهاجرون اليهود إلى فلسطين، من أصل بولوني وهنغاري وتشيكي وأوكراني وروسي، وهُم الذين عاش أجدادهم منذ عشرات القرون في أوروبا، لا لشيء إلا لموافاة «إخوانهم في العِرق،» أي العرب، في الشرق الأدنى. وتغدو هذه الصورة/ الكليشيه غير محتمَلة عندما يستعيدها بعض العرب، بنبرة القناعة، فيؤكدون أن الإسرائيليين والعرب لا يسعهم إلا أن يتفاهموا في النهاية لأنهم جميعاً ساميّون. هنا أيضاً يتعلق الأمر بمسار «فرنجة» كل الثقافات، الذي سنتحدث عنه في الفصل الثالث.

تبرز، هنا، مشكلة أخرى كبيرة لدى رسم خط هذا الشرخ: ماذا عن السلافيين الذين يمّموا هم أيضاً شواطئ المتوسط؟ إلى أي جهة ينتمون؟ هل

---

٢٢. الهولوكوست Holocauste: المجازر والمذابح التي تعرّض لها اليهود على أيدي النازيين في الحرب العالمية الثانية. تُستعمل في بعد الأحيان كلمة «المحرقة» في اللغة العربية للإشارة إلى هذا الحدث التاريخي.

يتمون إلى الشرق حيث تنتهي حدود أوروبا ويبدأ العالم الشرقي؟ أتكون أوروبا حدَّهم الأقصى؟[٢٣] هل ينتمي الروس إلى العالم الشرقي أم العالم الغربي؟ هل يرميهم اعتناقهم للمسيحية الأرثوذكسية، المنفصلة عن كنيسة روما، في «مثالب» «البربرية» الشرقية؟ كيف يمكن، من ثَمّ، تفسير التحاقهم الحماسي بالشيوعية ونظام ديكتاتورية البروليتاريا، وهي معتقَد قديم وُلد في قلب الغرب، وسيحاربه الغرب نفسه من دون هوادة؟ أوَتكون الشيوعية الروسية نسخة سيئة لسلطة الكنيسة الأرثوذكسية المطلقة؟[٢٤] بَيْد أن الروس أنفسهم لم يتوصلوا إلى تحديد هويتهم، ولطالما دارت بينهم رحى الحرب الأيديولوجية، بين أنصار التمسك بالهوية السلافية، المقتنعين بعبقرية ذهنية شعبهم الخاصة، المتصفة في جزء كبير من أدبهم بالروحانية والتصوف والإيمان الحار، وبين أنصار التفرنج أو التماثل بالغرب وتقليده، المقتنعين بنبذ جذورهم البربرية البدائية، وبضرورة الاحتذاء بالنموذج الأوروبي للخروج منها. ودارت هذه الحرب أيضاً لدى شعوب أخرى مثل العرب والهندوس.

وهنا، ثمة سؤال يفتح مصراعيه على نقاش وتساؤلات ملحّة: كيف استطاع السلافيون، برغم إيمانهم العميق بالمسيحية، أن يختلطوا، بخلاف الإسبان، بشعوب إسلامية مختلفة، قوقازية أو آسيوية، أخضعوها لسيطرتهم إثر انحطاط الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية، وإضاعة مناطق واسعة سيطرت عليها روسيا. إن الخط الذي ينظّم مقوّمات هذا الشرخ عصيّ على الفهم حقاً، والحدود التي يُفترَض به أن يرسمها متحركة باستمرار. فالخط هذا، فعلاً، مثل الدوامة، ويجتاز كل فضاء مغيِّراً لونه وخطابه. فهل هذا الشرخُ خدعة، إذاً، أو سراباً نسجته خيالاتنا الملتهبة بحمى قوى النفوذ السياسي المفروضة علينا؟

٢٣. راجع، في هذا الشأن، الصفحات البديعة لإيمانويل بيرل في كتابه: **أوروبا وآسيا** Emmanuel Berl, *Europe et Asie*، منشورات Gallimard، باريس ١٩٤٦.

٢٤. راجع الكتاب المشوّق لنيكولا بردياييف: **منابع الشيوعية الروسية ومعناها** Nicolas Berdiaev, *Les Sources et le sens du Communisme russe*، منشورات Gallimard، باريس ١٩٥١.

الأخلاق في خدمة الهيمنة والعنف

يجب أن يبرر القويّ دائماً الحروب التي يخوضها، ويجب أن يشرعن الغزاةُ، القدامى أو المعاصرون، توسع نفوذهم. لذا، وُجدت الذرائع والحجج دائماً في خدمة حروب الحواضر - الدول على الطريقة الإغريقية والامبراطوريات والممالك والدول القومية. وأياً يكن شكل القوة المؤسَّساتي، تتحلقْ حولها جماعة من الشعراء والأدباء والسياسيين والأكاديميين والعلماء ورجال الدين، متأهبة دائماً لتشييد حصون العداء والخوف. بيد أنه عندما يتطور الدين والأخلاق والشريعة والمؤسسات، لا يمكن لغريزة الهيمنة الفذّة أن تستمر على الشكل الذي كان سائداً في الغزوات الكبرى التي قامت بها قبائل الجرمان والإفرنج والفيزيغوث والفايكنغ والمغول والخزر وغيرها من الشعوب المحاربة. كما لا يمكن الدخول في الغزوات والحروب والدمار والخراب من دون تبرير. وهكذا، تغيرت أسباب الحروب التي أصبحت تُبرَّر باسم الأخلاق أو الدين، أو باسم تفوُّق نمط حضاري معيّن على نمط آخر. إنه العنف «الغيريّ»، أي «المحب» للآخر، والحرب المخاضة بهدف إقامة السلام صانع سعادتنا وسعادة جيراننا القريبين والبعيدين الذين يتمّ غزوهم لكي يستطيعوا التمتع بمحاسن ديانتنا وحضارتنا! يكفي هنا أن نسأل هنود الأميركيتين عن رأيهم في هذه الحرب الدينية والأخلاقية، التي صيَّرتهم، باسم المسيحية، كتلةً من التعاسة والشقاء، ومزّقت باسم المسيح مؤسساتهم وديانتهم إرباً، وأصبحوا مهدَّدين بالانقراض. فهل كان هناك في أميركا شرق وغرب؟[٢٥]

---

٢٥. كتب جورج باتاي في صفحات باهرة بوضوحها وعمقها وجمالها حول معارفنا عن طبيعة الدين:

الحرب تحدد تطور الفرد في ما يتعدى الفرد/ الشيء ضمن فردانية المحارب الفخورة. يُدخل الفرد الفخور، من خلال نفي أولي للفردية، النظامَ الإلهي في قبيل الفرد (الذي يُعبّر =

هذا الشرخ، إذاً، مجرد هراء. لكننا نُصاب بالذهول أمام التنوع والاختلاف اللذين يميزان العالم بينما سعى مفكرون عظماء إلى تجميد هذا التنوع في إطار النمط الأحادي والمنطق الثنائي الذي يفصل بين «هم» و«نحن». يصبح اصطناع الأحكام المسبقة في البلدان ذات الحضارة الراقية، انحرافاً مذهلاً للمنطق، لم يستطع تطور الفكر البشري أن يقضي عليه. ثمة أعمال معاصرة تُظهر لنا كيف ساهم فلاسفة كبار من بين فلاسفة عصر الأنوار، الذين نَدين لهم بالكثير، في صياغة أحكام مسبقة حول الصفات السلبية للقوميات والأعراق،[26] وكيف دعا فلاسفة آخرون إلى إلغاء الاستعباد باسم حقوق الإنسان، ولم يقرنوا القول ولا الكتابة بالفعل، بإقدامهم على تحرير عبيدهم في مزارع المستعمرات.[27] ولا تزال هذه التناقضات البائسة تميز السلوك الدولي للدول الديموقراطية التي تمتنع عن تطبيق المبادئ القانونية نفسها على جميع حالات النزاع، بالرغم من المبدأ المعاصر المثالي

= بشكل أساسي عن نظام الأشياء). وهو يملك الإرادة المتناقضة التي تجعل نفي الزمن يدوم. وهكذا، فإن قوته جزء منها قوة الكذب. تمثل الحرب تقدماً جَسوراً لكنه الأشد فظاظة. ولا يحتاج هذا الفرد إلى القدر نفسه من السذاجة ـ أو الغباء ـ والقوة لكي يكون لامبالياً بما بالغ في تقديره، أو لكي يتباهى بأن لا قيمة له مطلقاً.

راجع: جورج باتاي، **نظرية الدين** **Georges Bataille,** ***Théorie de la Religion***، منشورات **Gallimard**، باريس ١٩٧٣، ص ٧٩ـ٨٠؛ (الطبعة الأولى ١٩٤٨).

٢٦. مارك كريبون، **جغرافيات الفكر: دراسة عن تصنيف الشعوب من ليبنتز حتى هيغل** **Marc Crépon,** ***Les Géographies de l'esprit: Enquête sur la caractérisation des peuples de Leibniz à Hegel***، منشورات Payot، باريس ١٩٩٦؛ وفي إطار آخر، بالإمكان قراءة جان نويل جانيني، **فكرة خاطئة واقعة صحيحة: الأنماط القومية العنصرية في أوروبا** **Jean Noël Janneney,** ***Une idée fausse est un fait vrai: Les Stéréotypes Nationaux en Europe***، منشورات **Odile Jacob**، باريس ٢٠٠٠.

٢٧. لوي سالا مولينز: **تهافت فلسفة الأنوار: خلف العقل، الإهانة** **Louis Sala-Molins,** ***Les Misères des Lumières: Sous la Raison, l'outrage***، منشورات **Robert Laffont**، باريس ١٩٩٢.

العظيم الذي يقول بتطبيق القانون على الجميع بالتساوي، في حالتي تأمين الحماية للمظلوم أو فرض العقاب على المعتدي. وسنرى لاحقاً كيف يقوِّض هذا الانفصامُ بين الكلمة والفعل، أُسسَ الديموقراطية في العالم.

لكن، إذا لم يكن هناك شرخ بين الغرب والشرق ينظم تكوين العالم، فكيف بالإمكان، إذاً، تفسير التفوق الغربي الذي يَسِم، منذ القرن السادس عشر، تقدُّمَ البشرية؟ ألا يعمل هذا التفوق التقني، وفق عبارة صوفي بسيس Sophie Bessis الصائبة، على توطيد «ثقافة التفوق» والتأكيد على شرعيتها، هذه الثقافة التي يعمل الغرب على توسيع نفوذها منذ عصر النهضة؟[٢٨]

---

٢٨. صوفي بسيس، **الغرب والآخرون**، مصدر سابق.

الفصل الثاني

انحطاط/نهضة: كيمياء غامضة

النهضة الأوروبية: استحالة تحديد سببية أحادية الجانب

إذا كان مفهوم الغرب يفرض نفسه بهذه القوة الطاغية، فهذا بسبب التفوق الذي حقّقه في جميع الميادين على امتداد قرون عدة. بدأت الرواية حول تفوُّق أوروبا مع الفتوحات العسكرية وإنشاء المستعمرات. غزت أوروبا العالم متجاوزة حدود المتوسط، مجتاحة المحيط الأطلسي والعالم الأميركي، ملتفّة حول السلطنة العثمانية الشاسعة لتنفذ أخيراً إلى المحيط الهادئ وبحر الصين.

يبدو مدهشاً، في هذا الإطار، اكتشاف الدور الذي لعبه بلد صغير، هو البرتغال، أثناء الوثبة التي حققتها أوروبا خارج قمقمها، وذلك قبل أن تبني كل من فرنسا وألمانيا عظمتها القومية. بدأت التطورات الحاسمة مع البحّارة وصانعي المراكب البرتغاليين، وخلفهم الإسبان الذين استولوا على الثروات المعدنية لشعوب جنوب القارة الأميركية، وكذلك الهولنديون المستسلمون لقدَرهم البحري وتبعهم في ذلك الإنكليز. أما فرنسا فاستدركت تأخرها ما إن قضت الثورة الفرنسية على نظامها الإقطاعي القديم، بينما تأخر التصنيع الألماني ولم ينطلق إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع توحيد مختلف الإمارات الألمانية.

وسجّل القرنان السادس عشر والسابع عشر بداية انكفاء الازدهار من جنوب أوروبا وبداية انتقاله إلى شمالها. وقد وصف المؤرخ فرناند بروديل Fernand Braudel هذا الانكفاء بإسهاب من دون أن يتمكن من شرح أسبابه بشكل كامل.[1] وكانت إيطاليا إحدى ضحايا هذا التغيير الاقتصادي الأوروبي، حيث انتهى دور مدينتي جنوى والبندقية كمركزين ومحورين رئيسيين للتجارة في أوروبا، وشهد حوض المتوسط بداية أفول نجمه. على أننا لن نغفل الفرضية التي انطلق منها، في نهاية القرن التاسع عشر، عالِم الاجتماع الألماني الكبير ماكس ڤيبر، وتتحدث عن الدور المحوري الذي لعبته البروتستانتية في هذا التغيير وترافقه مع ظهور الرأسمالية الصناعية في إنكلترا.[2] لا تزال هذه الفرضية حتى اليوم بمثابة نموذج أوّلي للتحليلات في ما يتعلق بدور الدين في الاقتصاد، لكنها غير مقنعة البتة. لا بدّ من أن ڤيبر تأثّر بهيغل الذي كتب في مؤلَّفه الشهير: **فلسفة التاريخ** *La Philosophie de l'histoire*

> يجب، بدايةً، أن ننظر ملياً إلى «الإصلاح الديني»،[3] إنّه الشمس التي غيّرت كل شيء وسطعت في فجر نهاية القرون الوسطى، ثم يجب تأمل الوضع بعد هذا الإصلاح وصولاً إلى الحقبة الجديدة التي بدأت مع نهاية القرن الماضي.[4]

---

١. فرناند بروديل، **الحضارة المادية: الاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر** Fernand Braudel, *Civilisation Matérielle: Économie et Capitalisme, XVe-XVIII siècle*، منشورات Armand Colin، باريس ١٩٧٩، الجزء الثاني «لعبة المبادلات» 'Les Jeux de l'Echange'، ص ٥٠٧.

٢. ماكس ڤيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** Max Weber, *L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme*، ١٩٠٥.

٣. الإصلاح الديني: الحركة الدينية التي باشرها لوثر في ألمانيا ١٥١٧ فانفصل عن الكنيسة الكاثوليكية، وتبعه كلڤين Calvin في سويسرا فنشأت بذلك البروتستانتية.

٤. هذا المقطع استشهد به كارل بوبر في كتابه: **المجتمع المنفتح وأعداؤه** Karl Popper, *La Société ouverte et ses ennemis*، الجزء الثاني، ص ٣٣.

الواقع، أنه يمكن تتبُّع آثار الثورة الصناعية والعقلانية التي كانت قيد التكوُّن بشكل مستتر، في كل بلد في أوروبا منذ القرن الرابع عشر. اتخذت ظاهرة النهضة الأوروبية أشكالاً عديدة، وانتشرت في البلدان الكاثوليكية كما في الأوساط البروتستانتية. وقد استغرق لوثر Luther[٥] وكلفين Calvin،[٦] بكلِّيتيهما، في ميتافيزيقا دينية مسعورة. كانا أصوليين، إذا أردنا وصفهما بلغة معاصرة، يبغيان استعادة نقاء الجذور في مواجهة أبهة الكنيسة الكاثوليكية وبذخها وتجاوزاتها. لقد نسبا الكمال إلى «العهد القديم»، وأعادا إحياء هذا التاريخ القديم المقدَّس الذي كان أحاله «العهد الجديد»[٧] إلى ميدان التراث القديم. كذلك، فإن ثورة كرومويل Cromwell[٨] في إنكلترا، التي تتميز بكثرة الاستشهادات الدينية وتردادها، كانت ثورة دينية أصولية حقيقية. لم يجعل هذا الأمر منها ثورة «عصرية»، حتى لو كانت تهدف إلى الحد من الحكم المَلَكي المطلق، لكنها أضحت مرحلة جديدة من بروز الديموقراطية التي كانت ظهرت براعمها في إنكلترا إبان القرن الثالث عشر في «الوثيقة

---

٥. لوثر: مارتن لوثر (١٤٨٣ـ١٥٤٦) راهب أغوسطيني لاهوتيّ ومفكر وكاتب. بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني (البروتستانتية) وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات وسلطة البابا والتبتل وإكرام القديسين والمطهر والقداس ١٥١٧. نقل «التوراة» إلى الألمانية فكانت الترجمة حدثاً دينياً وأدبياً ضخماً.

٦. يوحنا كلفين Yohanna Calvin (١٥٠٩ـ١٥٦٤)، مصلح فرنسي، نشر في فرنسا وسويسرا مذهباً حمل اسمه. أنشأ في جنيف حكومة ثيوقراطية. اشتهر بكتابة: **أسس المسيحية**.

٧. نذكر هنا أن العهد القديم هو مجموعة من النصوص التوراتية التي تروي قصص الأنبياء، بينما العهد الجديد هو نص الإنجيل الذي يروي حياة المسيح وأقواله، ومن بينها أنه، أي المسيح، أتى لتخطي العهد القديم وتحرير الإنسان من التقاليد اليهودية الجامدة.

٨. كرومويل Cromwell (١٥٩٩ـ١٦٥٨) برلماني إنكليزي، تزعم حركة المعارضة لسلطة الملك. انتصر على تشارلز الأول وأعدمه ١٦٤٩. أخضع إيرلندا وحلّ البرلمان وأنشأ نظاماً ديكتاتورياً ترأسه عام ١٦٥٣.

العظمى»[9] عام ١٢١٥، وفي مجمل أنحاء أوروبا إبان القرن الرابع عشر مع تطور الحريات ذات الطابع البلدي، أي الحريات الممنوحة إلى المدن. لكن هذا المسار الديموقراطي مرّ عبر الأيديولوجيا الدينية المنادية بالعودة إلى الجذور.

يؤدي السعي إلى التفتيش عن سبب تفوق أوروبا في إطار سببية وحيدة، إلى طريق مسدود. من المؤسف حقاً، أن فرضية ڤيبر عن دور البروتستانتية، التي قدّمها بحذر، هيمنت على الفكر، كما هيمنت لاحقاً أحكام رينان المسبَقة عن «بلادة» الذهن الساميّ. من الواضح أن فرضية ڤيبر كانت تشكل مسعىً حاذقاً ومراوغاً في مواجهة الرؤية الماركسية للتاريخ والتطور، وإلا لَما كانت استحقت النجاح الذي شهدته. لكن، هل نستطيع فهم النهضة الأوروبية من دون غوتنبرغ Gütenberg ومايكل أنجلو Michel-Angelo ومكيافيللي Machiavel وسبينوزا Spinoza وديكارت Descartes وغاليليه Galilée وغيرهم... إلخ، مع العلم بأنهم، جميعهم، أبعد ما يكونون عن البروتستانتية وفوراتها الأصولية المسعورة في المراحل الأولى من تاريخها؟

لقد ساهمت مجموعة من العوامل العديدة، الفنية والعلمية والتقنية، في رِفعة مقام أوروبا وجعلت منها قارة «فاتحين». وقد ساهم غزو المناطق الأطلسية في انكفاء الازدهار عن أقطاب الجنوب وانتقالها إلى شمالي أوروبا. كما كانت الثورة الصناعية، أيضاً، نتيجة حُمى غير عادية أججها

---

٩. «الوثيقة العظمى» Magna Carta: وثيقة الحقوق التي اضطر ملك إنكلترا John إلى إقرارها في ١٥ حزيران/يونيو ١١٦٥ بعد أن ثار النبلاء عليه وخشي نشوب حرب أهلية، مؤلفة من ٦٣ مادة تدور حول عدة محاور هي «حرية الكنيسة والعلاقات بين الملك وتابعيه من رجال الإقطاع وتسوية النزاع بين الملك والنبلاء». المادة ١٣٩ أهم المواد فيها، حيث نصّت على عدم جواز اعتقال أي مواطن أو سَجنه أو نفيه من غير محاكمة. وقد نصّت على أن الملك John مُقيّد بالقانون، وكرّست بذلك صيانة الحريات الفردية (أهم وثيقة في التاريخ البريطاني كله).

اجتياح العالم والفضول التقني الذي لا تمتد جذوره إلى عصر النهضة الإيطالية أو الثورة الزراعية الإنكليزية في القرن السابع عشر فحسب، بل قبل ذلك، بدءاً من القرن الثالث عشر كما يورد المؤرخ بيار شونو **Pierre Chaunu** الذي درس مختلف مراحل تطور التغذية في أوروبا.[١٠]

وليس تطوّر علم اللاهوت غائباً عن العوامل المؤثرة في النهضة الأوروبية. فالقانون الدستوري الحديث، كما أثبت مؤلِّفون كثر، يستوحي بنيته بشكل واسع من العمارة السياسية ـ اللاهوتية العملاقة التي تمّ تشييدها في القرون الوسطى. إنّ استبدال الحاكم المطلق ذي الحق الإلهي بالكائن الجماعي، أي «الأمة» ـ وهذا مفهوم من اختراع الثورة الفرنسية ـ هو العامل الحاسم الذي أسس مقومات الحداثة في أوروبا. لكن، شهد الإسلام، في اتجاه معاكس، بعد تطور الفقه والفلسفة في ظل الحكم العباسي، انغلاقاً دينياً وتجميداً نهائياً للمدارس الفقهية الأربع ابتداءً من القرن الحادي عشر، مما تسبب في انحطاطه العلمي والأدبي المحتوم.

أما الماركسية، فقد وجّهتنا، هي أيضاً، لوقت طويل، بشكل سيّئ. لقد ساهمت رؤيتها إلى أنماط الإنتاج وتطورها وخصوصية الدينامية الأوروبية المتعارضة مع ما سمّاه «نمط الإنتاج الآسيوي» الجامد والمستبدّ، في انتشار

---

١٠. بيار شونو، **الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار** **Pierre Chaunu,** ***La Civilisation de l'Europe des Lumières***، منشورات Flammarion، باريس، ١٩٨٢ (الطبعة الأولى ١٩٧١). كتب بيار شونو:

> منذ القرن الثالث عشر، والمسافة التكنولوجية، برغم كل المظاهر، بين المتوسط المنكفئ إلى حدود أوروبا وبين العالم الباقي، لا تكف عن التنامي. إن تفوق أوروبا يمد بعضاً من جذوره في خيار مزدوج: التغذية اللحمية المعتمدة على البروتينات الحيوانية والمحرّك العضلي الحيواني. . . الأوروبيون الذين تمكنوا من تأمين تغذية وفيرة، اختلفوا بسبب ذلك بشكل كلي، إلا في بعض الفروقات المناطقية، عن البشر الآخرين.

راجع: بيار شونو، **الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار**، ص ٦٣.

الخرافة القائلة بالتفوق الأوروبي الوراثي. ثم إن ماركسية القرن العشرين، بتلويناتها القادمة من روسيا والعالم الثالث، أرادت، بخلاف ذلك، إقناعنا بأن النهب الاستعماري يُفسر وحده ازدهار أوروبا. لا ننسى مع ذلك أن هذا النهب سبّب الانحطاط الذي شهدته إسبانيا وجعل منها أحد أفقر بلدان أوروبا. كما لا يجدر بنا أن ننسى كيف أراقت فرنسا دماء بعض الشعوب وسبّبت لها عذابات مبرحة، من دون أن تجني فائدة اقتصادية حقيقية من ذلك، وكيف أن ألمانيا التي لم تستولِ على أية مستعمرات، وتخلّفت عن مواكبة الثورة الصناعية، آل بها الأمر أخيراً إلى أن تصبح القوة العظمى في أوروبا.

هل هناك قوانين تتحكّم بمجريات التاريخ؟

يُظهر كلُّ ذلك شبه استحالة صياغة قوانين للتاريخ أو حتميات أكيدة لتفسيره. أرادت فلسفة الأنوار استخلاص مثل هذه القوانين وقد عمّمها هيغل في كتابه: **فلسفة التاريخ**، مُظهراً تهوراً كبيراً في إيمانه بجواز التعميم. يمكننا بالطبع، مع المسافة الزمنية وغياب النظرة والتبرير العاطفيين اللاعقلانيين للأمور والأحداث، أن نجد تفسيرات لفهم عظمة الحضارات الزائلة ومسار انحطاطها، كما فعل مونتسكيو Montesquieu في قراءته حضارة الرومان، أو كما سعى المؤرخ الإنكليزي الكبير توينبي، من خلال عمل ضخم، إلى استنباط القوانين التي توجِّه التاريخ، وتعطينا سرَّ مصيرنا وأصولنا الدقيقة، وهي محاولة قد تكون مستحيلة، كما عمل على اجتراح مفاتيح لفهم الأقدار التي تسيّرنا. نذكّر هنا أيضاً بفرضية شبنغلر الرئيسية التي تميز الثقافة الحية المتجذرة في الفكر، أو ما يسميه «عبقرية» شعب من الشعوب، عن الحضارة التي تحوّل الثقافة إلى مجموعة من القواعد الجامدة فتمهّد حتماً لانحطاطها. كما أن الامبريالية، أو «النزعة التوسُّعية» كما يصفها شبنغلر، أيضاً قَدَر كل حضارة ونذير نهايتها وأفولها.[11]

١١. راجع: **أفول الغرب**، المصدر المذكور سابقاً، الجزء الأول، المقدمة، ص ٤٣، ٤٨ـ٤٩: =

كارل بوبر خير من كشف المخاطر الكامنة في هذه المقاربة للتاريخ[١٢] واستعمالها في ما يسميه «التاريخانية».[١٣] ولا يمكننا في هذا الصدد إلا أن نستعيد النص الذي يمثل بوضوح نقد بوبر لخطاب الغرب التاريخي عن نفسه منذ هيغل:

> بما أنني أعترف لكل واحد منا بالحق في تفسير التاريخ كما يشاء، فما الذي يمنعني، إذاً، من إعطائه للتاريخانيين؟ ذلك أن تفسيراتهم ذات طبيعة خاصة جداً. فهم لا يسعون إلى تسليط ضوء باتجاه الماضي، على أمل أن ينكشف لهم عالم اليوم، بل يصوّبونه باتجاه أنفسهم فتنبهر أبصارهم ولا يتمكّنون من رؤية ما يحيط بهم رؤيةً سليمة أو لا يرونه إطلاقاً. وبطريقة أوضح أقول: إنهم يعتقدون،

= «الحضارة قدر الثقافة المحتوم». ويطرح توينبي أيضاً السؤال لمعرفة ما إذا كان الغرب يستطيع النجاح في إنشاء مجتمع عالمي، أم أن ذلك فقط مجرد شكل من أشكال التفكك. (راجع الفصل: «القضاء على التنوّع عن طريق التفكك» في كتاب **محاولة لتفسير التاريخ**، المصدر المذكور آنفاً، ص ٦٠٧ـ٦١٧. وهنا يلتقي توينبي وشبنغلر الذي يرى أن «الحاضرة العالمية ليست شعباً بل جماهير مسيَّرة،» ص ٤٥. المسألة البديهية هي أن موت الحضارة يجري على فترات زمنية طويلة للغاية. ربّما أمكننا إعادة تركيب الحقبة التي وصلت عبرها حضارة قديمة إلى أوجها، لكن من الصعب جداً معرفة ما إذا كانت الحضارة الغربية اليوم ما تزال على اتجاه صعودي أم إذا دخلت طور الانحطاط. ثم، هل ستشكل أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بالنسبة إلى المؤرخين المقبلين، درجة كاشفة في سلم صعود الغرب أو انحداره؟

١٢. راجع: كارل بوبر، **بؤس التاريخانية** Karl Popper, *Misère de l'Historicisme*، منشورات Presses Pocket، مجموعة Agora، باريس ١٩٨٨.

١٣. التاريخانية بمعنى historicisme: وهو المذهب الفلسفي المؤسَّس من قِبَل هيغل، والقائم على جعل التاريخ أساساً كبيراً للتفسير، ويسعى إلى الإحاطة بالأحداث البشرية من خلال ظروفها التاريخية. إنها أكثر من منهجية، فهي تفترض عقيدة كامنة أو صريحة تقول بتناسب الحقيقة والظروف. ويدّعي هيغل أن التاريخانية تعبّر عن تجليات حياة شعب في مؤسسات سياسية ودينية وفنية وثقافية، وهو يفترض أنها تعبّر عن روح الشعب، وعن معنى وجوده في عصر من عصور صيروراته وتحوّلاته.

بدلاً من التسليم بأننا نحن من نختار الوقائع التاريخية وننسّقها، أن التاريخ، وفقاً لقوانين ملازمة له، هو الذي يحدد سلوكنا ومشاكلنا ومستقبلنا ووجهة نظرنا أيضاً. كما أن حاجتنا إلى تفسير التاريخ لا تنبع، حسب رأيهم، من مشاكلنا العملية، بل من حدسنا العميق بأن دراسة التاريخ ستُظهر لنا سرّ قدَرنا، فنكتشف الدرب التي يفترض بالبشرية أن تسلكها حتماً، أي أن نعثر على مفتاح التاريخ.[١٤]

والحقيقة، أنّ المسألة تختلف إذا أردنا الحكم على حضارة لا تزال حية، خاصة إذا أردنا أن نحدد نقطة الحلقة الدائرية التي نحن فيها، أو أن نعرف ما هو التحدي الحقيقي الذي علينا الاستجابة له كي لا ندخل مرحلة الانحطاط. غالباً ما رأى الغرب نفسه في مرحلة انحطاط بينما كانت قوته تتأهب للانطلاق من جديد. وغالباً ما شعر الروس والعرب، منذ مطلع القرن التاسع عشر، بأنهم على أهبة النهوض، وفي كل مرة كانت تتحطّم أحلامهم وأمانيهم عن النهضة المرتجاة على صخرة الواقع. كذلك، اعتقدت الصين أنها قامت بقفزة نوعية إلى الأمام مع الثورة الثقافية التي أعلنها ماو تسي تونغ في الستينيات، ومع ذلك لم تبدأ انطلاقتها الاقتصادية الحقيقية إلا بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ. أما الخمير الحمر في كمبوديا[١٥] الذين أرادوا إعادة إحياء ثقافتهم وحضارتهم القديمة، فلم يبتدعوا إلا مجزرة رهيبة تركت كمبوديا حتى الآن أكثر فقراً وهزالاً مما كانت عليه قبل إعلان ثورتهم.

١٤. كارل بوبر، **المجتمع المنفتح وأعداؤه**، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٧٩.

١٥. الخمير الحمر هم مجموعة من الثوار اليساريين الذين استولوا على الحكم في كمبوديا على إثر زعزعة الاستقرار في هذا البلد من قبل الولايات المتحدة في حربها ضد فيتنام الشمالية المحاذية للحدود الكمبودية، والتي كان المناضلون الفيتناميون يستعملون أراضيها في حربهم ضد أميركا. وقد أدّى هذا الحكم إلى إبادة ثلاثة ملايين من المواطنين الكمبوديين.

لكن، بالرغم من كل الكلام الحصيف الذي قيل في انبثاق حياة الحضارات القديمة وموتها، يصعب علينا أن نحدد السبب الفعلي لزوال الحضارات الكبيرة القديمة التي كان الشرق ركيزتها، أو السبب الذي حدا بأوروبا لأن تستمر، منذ خمسة قرون، في حمل مشعل التفوق الحضاري. إن انتشار سكان أوروبا ونشر معارفها التقنية في أميركا الشمالية والقارة الأسترالية، صنعا ما ندعوه اليوم الغرب، وهو يرى نفسه قلب العالم المتحضّر. فما الذي عزّز قوة هذا الغرب بطريقة لا تُرَد، بالرغم من الحروب الفظيعة التي شهدتها أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين؟ لقد انطلقت أوروبا على الرغم من الحروب الدينية المتواصلة التي مزقتها، ململمةً جراحَها باستمرار لتغزو العالم. ثمّ، ما الذي جعل الحضارات الأخرى تنكفئ وتتراجع كأنها مشلولة الحركة، لا بل مجرد هياكل عظمية، في مواجهة الدينامية الأوروبية؟ ماذا نقول عن الصين، بلد البيروقراطية الحكومية المثقفة والراقية Mandarins، ويابان الإقطاع العسكري الشهير، والسلطنة العثمانية التي تفككت كأنما بفعل المواد الكيميائية. وماذا عن الهند ـ هذه القارة العملاقة للفنون والأبهة، التي استطاعت أن تجمع أو توفّق على الأقل بين أفضل ما تملكه الحضارة الإسلامية وبين حضارة الفيدا[16] ـ كيف استطاعت شركة تجارية إنكليزية غزوها؟ تجار ينتمون إلى جزيرة صغيرة واقعة على بعد خمسة عشر ألف كيلومتر من المحيط الهندي. وفي المقابل، ماذا يمكننا أن نقول أيضاً عن هولندا، المملكة الصغيرة، التي استطاعت إخضاع شبه الجزيرة الأندونيسية الهائلة الاتساع، أو عن البرتغال، البلد الصغير أيضاً، الذي نجح في بناء امبراطورية في قارة أميركا الجنوبية وقضم أطراف أفريقيا وآسيا؟

---

١٦. الفيدا Veda هي الكتب الهندية السنسكريتية المقدّسة، فيها الصلوات والأناشيد والفرائض الدينية، يُنسَب قسم منها إلى براهما.

أسطورة المعجزة الإغريقية

ما الذي جرى، إذاً؟ فمنذ المغامرة «الخارقة» التي خاضها مؤسّسو الخلافة الأموية ومن ثمّ العباسية، لم تشهد جارتنا أوروبا وآسيا الصغرى مثل هذه الانقلابات العميقة في نظام الحضارات وسلم تفوّقها؟

وكما تنشط دائماً، لسوء الحظ، التفسيرات المبسَّطة، التي تتحدث عن سببية أحادية لفهم التحوّلات المعقَّدة التي يكتنفها الغموض مهما بُذل من جهود تفسيرية، تقدم الثقافة الأوروبية نموذجين تبسيطيين من التفسير، ولكن متناقضين، وهما لا يتسرّبان إلينا مباشرة من فلسفة الأنوار بل من متفرعاتها اللاحقة.

التفسير الأول قوامه مسلَّمة أساسية تدّعي صفة العلم، جرى تناولها في الفصل السابق، مفادها أن: العقلانية آرية، مما يفسّر في آن معاً «المعجزة الإغريقية» و«عبقرية المسيحية» الغربية، أمّا التخلّف فساميّ المنشأ ومردّه إلى أديانه، والإسلام في صدارتها. كان إرنست رينان المنظّر الأكبر لهذه الثنائية، وقد كرّس الفكرة القوية القائلة بوجود شرخ عميق بين الشرق والغرب مبرِّراً إياها. لم يفنّد أحد العنف الكائن في الكلام العنصري عن الذهنية السامية الذي روّج له رينان، وهو سرد إنشائي خيالي محض ورواية أسطورية الطابع، تماماً كما بقي هيغل في عقيدة المفكرين الغربيين «صنماً لا يُمَس،» باستثناء كارل بوبر، الذي لم يتردد بوصف هيغل بأنه مجرد «مروِّج كاذب،» أنتج «أحد أسوأ الاحتيالات الفكرية في عصرنا،» متهماً إياه «بسوء استعمال الفكر والعقل،» ومستشهداً بالحكم القاسي الذي أصدره شوبنهاور الذي قال عن هيغل:

> هل تريدون أن تجعلوا من شاب رجلاً مخبولاً وغير قادر على التفكير، دعوه، إذاً، يقرأ هيغل. بعد أن يحاول عبثاً أن يفهم هذا التراكم الهائل من الكلمات المشوَّهة التي تتناقض ويلغي بعضُها

بعضاً، سيصاب عقله بالإنهاك ويتداعى، فيخال تعيسُ الحظ أن هذه الثرثرة العقيمة هي تجسيد للفكر الحقيقي.[17]

ويقول بوبر:

> سعيتُ إلى أن أُثبت إلى أي درجة تتماهى التاريخانية الهيغلية مع فلسفة التوتاليتارية المعاصرة. هذا الأمر بديهي لكنه مجهول تماماً، ذلك أن الهيغلية تشكّل مَعيناً تنهل منه جماعة واسعة من المثقفين وأيضاً من المعادين للفاشية واليساريين، لا بل باتت تشكّل جزءاً من تفكيرهم لدرجة أنهم باتوا غافلين عن عدم استقامتها الفعلية، وصارت مثل الهواء الذي يتنفسونه.[18]

أما التفسير الثاني الذي تقدمه الثقافة الأوروبية، فينسب العقلانية الغربية حصراً إلى «المعجزة الإغريقية» التي ورثتها أوروبا. لقد أنتجت اليونان القديمة الفلسفة والرشدانية والديموقراطية، واهتدت أوروبا في عصر النهضة إليها من جديد بعد قرون من الظلام. هذه الأسطورة جذابة، لكنها تعزل بشكل مصطنع المعجزة الإغريقية عن الهيلينية، وهي الثقافة العظيمة الجامعة المستقاة أساساً من الشرق كما من الغرب المقدوني الصغير جداً. ووريثتها الحقيقية هي بيزنطيا التي اختفت عام ١٤٥٢ عندما استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية. هل بيزنطيا امبراطورية آسيوية ومشرقية نموذجية، أم أنها وريثة حضارات عدة متباينة، من ضمنها طبعاً الحضارتان اليونانية والرومانية؟ وماذا كانت حال اليونان القديمة لولا العلاقات المتينة التي أقامتها مع الحضارة الفرعونية والحضارات الكبرى في آسيا الصغرى، وحضارات الفرس والميديين وممالك ما بين النهرين؟ إن الإسهام الذي قدمته كل هذه الشعوب والحضارات هو الذي قاد الثقافة الهيلينية الكبيرة وأمّن هيمنتها على الشرق

---

١٧. كارل بوبر، **المجتمع المنفتح وأعداؤه**، مصدر سابق، ص ٥٥.

١٨. كارل بوبر، المرجع نفسه، ص ٥٥.

(حتى الفتوحات العربية) إلى جانب الثقافة السريانية، التي هي نفسها وريثة الحضارات البابلية والكلدانية والآرامية والآشورية. لكننا نتناسى، للأسف، دائماً أن الحضارة الإسلامية هي التي حافظت على هذا التراث ونقلته إلى أوروبا، مفسحة لها المجال بأن تبني، انطلاقاً منه، نهضتها الفكرية.

مرة أخرى، لا تساعد الأفكار التبسيطية على تقديم الأسس الواضحة لفهم القضايا التاريخية المعقدة فهماً سليماً. تمدُّ هذه النظرة التى ترى أوروبا وريثة للمعجزة الإغريقية، جذورها في الإنجاز الثقافي الذي حقّقه عصر النهضة وفلاسفة عصر الأنوار: إعادة الاعتبار والعزّة إلى روما وأثينا الوثنيتين بكامل رونقهما، والهدف من ذلك توجيه صفعة لاذعة تهزأ بجبروت الكنيسة الكاثوليكية المحتبسة داخل التاريخ المقدَّس، والرافضة لفكرة التطور في مواجهة أوروبا التائقة إلى تحطيم كل القيود. فقد تمَّ، في شمال أوروبا، استدعاء «العهد القديم» أكثر فأكثر، بينما نشأ في الجنوب، في إيطاليا وفرنسا خصوصاً، تيار الارتداد إلى تاريخ الوثنية القديم.

إن الذين وُصفوا بالأكثر جسارة أو الأقل محافظة إبّان هذه النهضة الأوروبية، ليسوا بالضرورة الذين يبدون الآن لنا كذلك. فالفصل الذي أصبح تقليدياً بين الأجزاء من أوروبا البروتستانتية الليبرالية الإنسانوية والأجزاء الكاثوليكية ذات النمط الجامد والمتميز بالرجعية، لا يبدو ذا مغزى يساعد على فهم التاريخ الأوروبي. وبالإمكان تفسير هذا الفصل المزعوم بأن الفكر البشري يميل إلى السير وفق آلية الخط الثنائي، ويفتش عن سببيات أحادية لظواهر معقدة. كما أننا نَدين لهيغل ومن بعده ڤيبر، بهذه الخرافة وهذا الحكم المسبَق الذي يقول بـ«تقدمية» البروتستانتية وليبراليتها، وامتثالية الكاثوليكية ورجعيتها. وقد ساهم الندم الفرنسي على اضطهاد البروتستانت وعدم الالتزام والتراخي في تطبيق بنود «قرار نانت»، [١٩] في ترسيخ هذه الخرافة.

---

١٩ . «قرار نانت»: قرار أصدره هنري الرابع ملك فرنسا في ١٣ نيسان/أبريل ١٥٩٨ بمنح الحرية =

لكن الأمور ليست بالسهولة التي نتصورها. والأدب الغزير والمتفاصح الذي يتناول عصر النهضة والثورة الصناعية، لا يقدم لنا مفتاح تفسير أحادي للكيمياء التي نتجت عنها عظمة أوروبا. يقول إيمانويل بيرل Emanuel Bearl، مندهشاً:

> أن يكتب أديب شغوف بالدقة، مثل فاليري Valéry، المعادلة التالية: أوروبا = اليونان + روما + المسيحية، أمر يثير فيّ دهشة لا تني تتجدد. لكن فاليري في النهاية شاعر وليس محلّلاً تاريخياً. بَيْدَ أن تريستان وإيزولد وروميو وجولييت ودون كيشوت وفاوست، ليسوا يونانيين احتضنتهم روما أتوا إلى الإيمان عن طريق مار بولس.[٢٠]

ويهاجم بيرل بلباقة متناهية الطرائق المصطنَعة الهادفة إلى خلق استمرارية مخادعة في تاريخ أوروبا:

> إن الاستمرارية المخادعة لتسلسل الأحداث والاستمرارية المخادعة لمنظومة من التسميات والادّعاء بنُبل الأنساب الذي يميّز عادة حديثي النعمة، تُضعفان إحساس الأوروبيين بوجود الثغرات والسَّقَطَات الكثيرة لتاريخهم، وتُفضيان بهم إلى حد إيجاد أصولهم في الصبيّة اللقيطة التي اختطفها جوبيتر على أحد شواطئ آسيا الصغرى،[٢١]

= الدينية والسياسية للكنيسة الكلفينية، فوضع حداً للحروب الدينية. وقد ألغاه الملك لويس الرابع عشر في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٦٨٥ واضطهد الكلفينيين فهاجر بعضهم إلى سويسرا وألمانيا وهولندا.

٢٠. إيمانويل بيرل، **أوروبا وآسيا**، مصدر سابق، ص ٩. والأشخاص الأسطوريون الطابع المذكورون في هذا النّص والمشهورون في الأدب الأوروبي الكلاسيكي، تمّ ذكرهم للتأكيد على أن الثقافة الأوروبية لم تُبنَ فقط على التراث اليوناني وتراث المسيحية.

٢١. أي أوروبا، وهي ابنة أجينور ملك فينيقيا، أُغرم بها جوبيتر سيد الآلهة فاستحال ثوراً أبيض واختطفها إلى كريت، تعقبه أخوها قدموس ليستردها فأسس طيبة والمدن اليونانية ونشر فيها الأبجدية الفينيقية.

وينسون أن «أوروبا» كانت تعني للإغريق عالماً غريباً عن اليونان.[٢٢]

أخيراً، يجعلنا العمل اللافت والمعاصر للمؤرخ وعالم الأنثروبولوجيا البريطاني جاك غودي Jack Goody، نتحقق فعلاً من بُطلان معظم الفرضيات المتعلقة بـ«الظاهرة الفريدة ذات الطابع الإعجازي لخصوصية الغرب،» والتي تبلورت حولها العلوم الإنسانية الحديثة.[٢٣] ينتفض هذا الكاتب ضد الفرضيات القائلة بوجود «قطيعة جذرية أنجزها التطور الغربي في تاريخ العالم،» ويُعيد الاستمرارية التي ميّزت، منذ العصور القديمة، البنى الأنثروبولوجية للشرق والغرب، مُظهراً الطابع «البندولي» للحضارات الكبيرة على مدى التاريخ الطويل وانتقالها من قارة إلى أخرى. إلاّ أن مسألة أخرى تطرح نفسها تتعلق بمعرفة ما إذا كان للتاريخ معنىً فعلي، ما إن نخرج من إطار الرؤية المتعلقة بصراع الحضارات من أجل البقاء، وتُرافقها دوماً، وإن خفية، المعزوفةُ الهاجسية عن تفوق وتراتبية الشعوب أو الثقافات التي صاغت هذه الحضارات.

الدين والرأسمالية في التفوُّق الغربي

ثمة منظور آخر حول مسألة التناقض بين الشرق والغرب، وهو أكثر خطورة وانحرافاً، تمتزج فيه الداروينية، أي النظرية المتعلقة ببقاء أنواع الحيوانات أو الأعراق البشرية الأقوى، بالرؤية الهيغلية للتاريخ، حيث تصبح المسيحية المقترنة بأوروبا والدولة الحديثة هي، في هذا المنظور، المرحلة الأسمى للتاريخ والعقل. وانطلاقاً من هذه الرؤية المتزاوجة مع العنصرية الأكثر بدائية، يملك الغرب جينات من نوع أكثر دينامية وصلابة من الأنواع الأخرى، تؤهّله بالتالي للهيمنة على الآخرين: «نحن الأقوى لأننا بِيض

---

٢٢. إيمانويل بيرل، **أوروبا وآسيا**، مصدر سابق، ص ١٠.

٢٣. جاك غودي، **الشرق في الغرب** *L'Orient in Occident* ,Jack Goody، منشورات Seuil، باريس ١٩٩٩، ص ٩، ١٤.

وشقر وأذكياء وعقلانيون، ولأن ديننا، برغم أننا وضعناه في المتحف، هو الأرقى والأكثر تطوراً.» هذا، باختصار، فحوى ما يتضمنه هذا الطرح الذي يقدم عنه ماركس نسخة أقل عنصرية وأكثر لياقة تليق بالهيغلية اليسارية التي ينتمي إليها. إن أوروبا بالنسبة إلى ماركس، متفوقة لأن الرأسمالية حطّمت على أرضها قيود الإقطاعية وشرّعت الأبواب أمام استغلال القوى المنتِجة. لذا، ولكي يتم التوصل إلى مرحلة متطورة من التاريخ، أي المجتمع الشيوعي المزدهر، من المشروع أن تغزو أوروبا العالم وتقوّض أسس المجتمعات الاستبدادية الطابع، الشبيهة بالهياكل العظمية مثل المجتمعات «الهيدروليكية»[٢٤] الآسيوية: أوروبا، وعلى وجه أخص إنكلترا الصناعية، هي قلب العالم الذي يضخ الدم في شرايين سائر القارات للعبور إلى شاطئ الرفاهية والازدهار. من هنا، فإن ماركس كان يوافق على الاستعمار.

لكنْ، لا بدّ لمن ينتمي إلى إحدى الحضارات المحنَّطة، من إيجاد تفسير ما للتأخر والتخلف. وفي هذا المجال، كانت الماركسية (التي أضاف إليها لينين لمسته من خلال كتيبه: **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية**) والتفرُّعات الفاشلة اللاحقة الناتجة عنها، إحدى الأساطير المحورية للقرن العشرين: النهب الاستعماري هو الذي يسبب التخلف ويزيد من حدة التناقضات بين القوى الرأسمالية. لذلك، فلنعلن جميعاً الثورة ضمن الإطار الكبير للأخوّة الشيوعية، وعندها يأتي الخلاص. للأسف، نقول مرة أخرى إن الأشياء ليست بالسهولة التي نتصورها، وإن حِيَل التاريخ لا يمكن سبر أغوارها. وقد خلف لينين وتروتسكي وستالين وتيتو ونهرو وعبد الناصر، الوجوه الدينية الثائرة في العالم الإسلامي مثل الإمام الخميني وأسامة بن

---

٢٤. بمعنى Hydraulique، أي الحكم المبني على إدارة توزيع المياه نظراً إلى وجود أنهر كبيرة يعتمد عليه المجتمع لتأمين حياته، مثلاً في بلاد ما بين النهرين أو في الهند والصين. وهذه العبارة مرادفة، عند ماركس، للمجتمع الاستبدادي.

لادن. فهل باستطاعة الدِّين الكشف عن الأسباب الحقيقية للتخلف والجهل؟

اعتقد الكثيرون أن هذا التفسير ممكن، خاصة في المجتمعات حيث يهيمن الدين الإسلامي: هل يجب عصرنة الإسلام من خلال المحاكاة التامة لأوروبا في تطورها، أم يجب «العودة إلى الينابيع» من خلال ثورة أصولية تستعيد نقاء الجذور المفقود؟ كيفما قلّبنا السؤال نَعُد إلى مسألة محاكاة أوروبا وتقليدها، سواءً بشكل واعٍ، أو غير واعٍ كما سنرى لاحقاً: محاكاة أوروبا حيث كان ظهور البروتستانتية وإعلان الثورة الإنكليزية في القرن السابع عشر بمثابة ثورتين أصوليتين فعلاً ذواتي طابع ديني، لكن هذا لم يمنعهما من التمسك بمطالب عادلة ومُنصفة في مواجهة النظام الامبراطوري المسيحي، أو آلية الحكم المَلَكي ذي الحق الإلهي.

انقسم فكر الإصلاحيين المسلمين بشكل حادّ إلى تيارين متناقضين: دعا التيار الأول المسلمين إلى التعامل مع أوروبا وعدم قطع العلاقة بها لأن المسلمين بحاجة إليها لكي ينجحوا، وسعى أيضاً إلى الحوار والتفاهم والتعاون مع أوروبا مطالباً إياها بإنهاء الاستعمار والعلاقات غير المتكافئة التي ترسَّخت منذ قرون بين القوى الأوروبية والشعوب المجاورة للمتوسط وآسيا الصغرى. بينما لم يتوقف التيار الثاني، بخلاف الأول، عن التشهير بأوروبا والتنديد بتوجهاتها وذهنيتها الصليبية، ورغبتها الجارفة في الهيمنة واستغلال العالم، داعياً إلى النضال والتعبئة وتأليب الأحقاد ضد «الكفّار» الذين يُفسدون نقاء الإسلام. وليست الحداثة، بالنسبة إلى هذا التيار، إلا مؤامرة أوروبية ترمي إلى إضعاف الروح الدينية، التي يعتبرها الرابط الوحيد الذي يؤمّن تماسك المجتمع الإسلامي.

لكن المفارقة الكبرى، أن الدول الأوروبية الكبرى لم تتقن اختيار حلفائها في هذه الدول التي كانت تسيطر عليها. فهي لم تطمئنّ إلى أسلوب الليبراليين والإصلاحيين العرب والمسلمين المنادين بالعصرنة لأنهم يتحدثون بلغة أوروبا نفسها، أي لغة المبادئ الديموقراطية وحق الشعوب في تقرير

مصيرها وتحقيق وحدتها واستقلالها، بل اختار دائماً الجنرالات والغزاة والموظفون والإداريون الاستعماريون التعاملَ مع الزعماء التقليديين: رجالات الدين أو زعماء العشائر. أي، باختصار، سعوا إلى تعزيز البنى التقليدية من خلال مأسستها بشكل حديث. لذا، فالمشاعر العرقية والعشائرية والطائفية هي التي يجري توطيدها وإعلاؤها ومأسستها على الصعيد السياسي.[٢٥] وتصبح التعددية الطبيعية لهذه المجتمعات التي لم تقض عليها حركة التصنيع والحداثة الاقتصادية، أرضاً خصبة لإثارة النعرات الخطرة، العرقية أو المذهبية والطائفية.

اسألوا المؤرخين الهنود كيف هيَّأ الإداريون الإنكليز الهنودَ المنتمين إلى الطائفة المسلمة المطالِبة بالانفصال عن الهنود المنتمين إلى أديان أخرى، بالرغم من أنهم كانوا يعيشون معهم لقرون خلت في اتحاد وثيق! تقول المؤرخة الهندية روميلا ثابار Romila Thapar[٢٦]

> بينما كانت أوروبا تتحدث عن وحدة الأمم، كان يجري الحديث هنا في الهند عن الأمة الهندوسية والأمة المسلمة. أحدث هذا المفهوم الاستعماري الذي أسس دولة الهند على قاعدة هويات دينية منفصلة، قطيعةً بين الشعب وماضيه. وكانت النتائج مفجعة، إذ يتناقض هذا المفهوم مع منهجية التأريخ السنسكريتي والفارسي الذي لم يتنبَّه أساساً إلى وجود أمتين. وهكذا، تم تطوير نظام تمثيلي منفصل مرتكز على قاعدة دينية ومفهومَي الأكثرية والأقلية والطوائف الهندوسية والمسلمة.

اسألوا أيضاً كيف شرَّعت فرنسا وجود طوائف «تاريخية» في لبنان، وجعلت منها أساس النظام العام. فجرثومة الحروب الأهلية التي انتشرت في

---

٢٥. وهذا ما نراه مجدداً في العراق بعد الغزو الأميركي.

٢٦. في حديث لها مع جريدة الموند، ١١ أيار/مايو ١٩٩٣.

العالم الثالث بعد فترات الاستقلال، يجب البحث عن جذورها في السياسات الاستعمارية. كما أن العداء بين البلدان الاشتراكية ودول الحلف الأطلسي، والحرب الباردة الناتجة عنه التي دارت في قسم كبير من فصولها في العالم الثالث، استُثمرا أيضاً لتهيئة هذه الأرضية الخصبة للحروب الأهلية واستغلالها. إن نتائج هذه السياسة بادية للعيان: بينما تحقق أوروبا وحدتها، الاقتصادية على الأقل، نشهد اليوم تضاعُف هذه الحروب الأهلية والمجازر والإبادات الجماعية في كل مكان تقريباً من العالم، حتى في البلقان، عند مشارف أوروبا.

المعجزة الآسيوية: هل هناك قيم آسيوية خاصة؟

خرجت اليابان في بداية القرن العشرين، وبعدها كوريا وسنغافورة وماليزيا في نهايته، وحتى تايلند ـ هذه الدول الملقَّبة بـ«نمور» جنوب شرقي آسيا ـ من نادي الدول المتخلِّفة. فبعد أن كانت اليابان محتقَرة، باستمرار، بسبب النوعية الرديئة لمنتوجاتها الصناعية، باتت الآن تُدهش الجميع وتُخيفهم بجودة صناعتها، ولا سيما أن صناعتها المتطورة باتت نموذجاً يُحتذى ويُخشى أن تنتقل عدواه إلى المنطقة بأسرها. يقولون: تلك «معجزة»، وكأن الغرب وحده المقتدر على امتلاك سر الازدهار. لكن، كيف يمكن حقاً تفسير هذه الظاهرة؟ ها هنا تكمن مجدداً الإشكالية التي وضعها ڤيبر: إنّ «القيم الآسيوية» التي أرست قواعدها البوذية[٢٧] والكونفوشيوسية[٢٨] الداعيتان إلى التجرد ونكران الذات واحترام النظام، قد تكون هي التي سمحت بإجراء هذا التأقلم الناجح مع الحداثة. وها هم

---

٢٧. البوذية هي الدين الأكثر انتشاراً في آسيا، ومؤسسها وبطلها هو بوذا الذي دعا إلى الحياة الناسكة.

٢٨. الكونفوشيوسية هي الدين الأكثر انتشاراً في الصين، ومؤسسها كونفوشيوس الذي اشتهر بالمبادئ الأخلاقية والحكمة التي دعا إليها.

المراقبون الغربيون يلوّحون، مجدداً، براية الدِّين مفتاحاً وحيداً لتفسير الظواهر.

يفاجئنا الفكر الغربي، مرةً أخرى، فهو أول من ينجح في الخروج من الرؤية الدينية للعالم والفكر الميتافيزيقي، لكنه يستنجد بالدين والقيم الدينية لشرح كل كبيرة وصغيرة في حياة الشعوب. فهل يمكن فعلاً الاعتقاد أن الدين والقيم الأخلاقية لها هذه العلاقة الوثيقة مع السيطرة على العلوم والتقنيات ودخول عالم الإنتاج الكمي الضخم الذي يقضي على الصناعة الحِرَفية. فما بالنا، إذاً، بخلط الدين أو العِرق بكل كبيرة وصغيرة؟

لكن، ستبتهج الصحف الغربية الكبرى لدى تناولها الأزمة الاقتصادية الطويلة التي ألمّت باليابان عام ١٩٩٠، ثم انتقلت إلى «النمور الآسيوية» عام ١٩٩٧ (كوريا وتايلند وماليزيا وأندونيسيا)، وأيضاً لدى سخريتها من هذه «النمور» التي جرى التسرع في الحكم على إمكانياتها، واعتُقد أنها ستنضم إلى لائحة الدول المرشحة للازدهار. إن أسباب الأزمة هناك، حسب تحليلات الصحافة الغربية، أصبحت تعود إلى المحسوبية والتبذير والفساد وعدم التبصُّر، بينما يرجع سبب المحنة اليابانية إلى النزعة المحافظة التي لا تزال تتحكم باليابان. باختصار، ينظر الغرب إلى التقدُّم الذي شهدته دول نمور آسيا، بكثير من السخرية: ليست الرأسمالية الآسيوية الرأسماليةَ الحقيقية، أي الرأسمالية الأنغلوساكسونية الصالحة. لقد خدعت اليابان ودول النمور شعوبها، ولن تكون إلا نموراً «من ورق»، وتقليداً هزيلاً لـ«الاستثنائية» الغربية. فهي لم تراعِ فعلاً اقتصاد السوق، ولا زالت الدولة تنظّم فيها كل شيء، وتتلطّى خلفَ الدولة المحسوبية والفساد. لكن النمور الآسيوية سرعان ما خرجت من أزماتها مما أسكت في الحال الانتقادات الساخرة.

لكن، ما هي الكيمياء الغامضة التي تتحكم بالنهضة والانحطاط؟ ليس هناك بالطبع وصفة سحرية، بل عالم لا يمكن اختزال تعقيداته في معادلة

بسيطة أحادية الجانب. هل هي عوامل خارجية مؤاتية أم تركيب عوامل مختلفة حصل بالصدفة؟ أم هي عوامل داخلية، أي نظام قيّم داخلي يؤمّن تفوق بعض الشعوب على شعوب أخرى؟ ومن أنظمة القيم، فهو يقصد الدين والأخلاق والآداب العامة. هل هي، إذاً، المناخ أم الثقافة أم الدِّين أم الفلسفة أم الرجال العظام؟ إن النظريات الجوهرانية، أياً تكن، التي تحفّز التفسير في إطار السببية الأحادية الثابتة والأبدية، تُفضي حتماً إلى خلق أشكال عنصرية واضحة ومثيرة أو مبطنة ومخادعة.

فهل يمكننا الإفلات من قبضة الجوهرانية؟ هل يمكن الخروج أو التخلّص من السجال الدائر بين شرق «تقليدي» وغرب «عصري»؟ يجب، والحالة هذه، الإصغاء إلى خطاب الغرب المبهَم عن نفسه، والسعي إلى فك رموزه بصبر وأناة. يجب الانكباب على إعادة النظر في فلسفة الأنوار التي تمر بأزمة عصبية، والتي سحرت الغرب، ثم عادت لتنزع عنه السحر وترميه في دائرة الشك والقلق والأوهام، وترمي أيضاً العالم الذي استولت عليه الدينامية الغربية. يجب السعي إلى إعادة قليل من الصواب إلى الفكر المنهجي والتصنيفي الذي تتميز به الثقافة الغربية إلى أبعد حدّ.

الفصل الثالث

الغرب: مهمة مقدَّسة
وعالَم أُزيلت عنه الأوهام؟

هل أزالت فلسفة الأنوار جميع الأوهام؟

كيف يعبّر الغرب عن نفسه اليوم، أي كيف تعبّر الثقافة الغربية، ببُعديها الأوروبي والأميركي، عن نفسها عند عتبة الألفية الثالثة؟ سبق أن ألقينا نظرة خاطفة على بعض أفكار هيغل وماركس وڤيبر وعلماء أنثروبولوجيين ومؤرخين وفلاسفة في التاريخ، وهم الورثة المباشرون لعصر الأنوار وخلفاء لوك Locke[١] وروسو وڤولتير. لقد تابع هؤلاء المفكرون نشر العقلانية الفكرية التي أخرجت الثقافة الأوروبية من ظلام العقائد الكنسية الجامدة، كما استبدلوا التاريخ المقدَّس الذي تسيِّره العقائد الإلهية من خلال إرادة الله التي لا تُدرَك، وأحلّوا مكانها تاريخ العقل الإنساني. وتجدر الإشارة إلى أن بوسوييه ترك لنا في موضوعة التاريخ الذي تسيّره إرادة الله، تحفةً أدبية قلَّ نظيرها.[٢]

---

١. فيلسوف إنكليزي (١٦٣٢ـ١٧٠٤)، اشتهر من خلال كتاباته بإبراز حقوق الإنسان الفردية ومزايا الحرية والنظام السياسي المبني على اعتماد الحرية كمبدأ أساسي.

٢. بوسييه، رسالة في التاريخ العالمي، Bossuet, *Discours sur l'histoire universelle* ١٦٨١؛ وبالإمكان قراءة الصفحات الرائعة التي يفردها بول هازار Paul Hazard للانكسار الفكري الذي تخبط فيه بوسوييه وذلك في كتاب: **أزمة الوعي الأوروبي ١٦٨٠ـ١٧١٥** *La Crise de la conscience européenne: 1680-1715*، منشورات Le Livre de poche، باريس ١٩٦١، ص ١٨٨ـ٢٠٥.

يتمكن الإنسان، من جراء هذا التحول في النظرة إلى التاريخ، من أن يبلغ سعادته بنفسه ويفوز بالخلاص ويسيطر على الطبيعة ويزيد من حجم ثرواته وقوته من دون أن يحتاج إلى معونة الله أو إلى هؤلاء الذين يدّعون أنهم ممثّلوه في الأرض. هكذا، تمّ إفراغ صفة القدسية عن التاريخ و«انكشفت أوهام» العالم، حسب التعبير المستعاد في سوسيولوجيا ڤيبر المهيمنة.[٣] لكن، من دون إرادة وطبيعة إلهيتين في حياة البشرية، ومن دون أسرار عصيّة على الفهم للوجود الإنساني، يفقد العالم طابعه «السحري» و«المدهش» في نظر سوسيولوجيا ڤيبر.[٤] لذلك، فإن قسماً من الفلسفة الغربية سجّلَ «موت الله» هذا، واستخلص منه عِبَراً شتى متناقضة جسّدها فكر نيتشه أفضل تجسيد.

تعَمَّقَ منظّرو إزالة الطابع السحري من العالم، أو كما يمكن أن يقال أيضاً «انكشاف الأوهام» حول الماورئيات في الإشكالية الغربية التي طرحها ڤيبر، وحاولوا أن يثبتوا أنَّ التوحيد هو دين «الخروج من الدين». وتتصف هذه العملية الفلسفية، في نظرنا، بطابع أسطوري أكثر منه عقلانياً، ويصفها بدقّة مارسيل غوشيه فيقول:

إن ما درجنا على تسميته «الديانات الكبرى» أو «الديانات العالمية»،

---

٣. مارسيل غوشيه، العالم دون أوهامه: التاريخ السياسي للدين **Marcel Gauchet, *Le Désenchantement du Monde: Une histoire politique de la religion***، منشورات Gallimard، باريس ١٩٨٥. ويغيب الإسلام تماماً عن تحليلات مارسيل غوشيه، كما سنرى لاحقاً.

٤. أي ما سُمّي désenchantement، والترجمة الحرفية للعبارة هي «إزالة السحر»، أي عالم فقد فيه الإنسان القدرة على الإيمان المطلق بالماورائيات وبوجود خالق إلهي أو قدرات خارقة تسيّر الحياة، وبعيدة المنال عن إدراكه، أي عالم خال من الانشداه نحو الدين. وتعني أيضاً كلمة désenchantement الشعور بالفراغ الذي ينتاب الإنسان عندما يدرك أنه هو وحده، بفضل عقله، يسيّر حياته، وأنه ليس هناك، أعلى منه في الأرض، من قوة إلهية الطابع لا يمكن فهم نواياها وخططها بالعقل.

لا يُجسّد، كما نظن، الكمال الجوهري لظاهرة الدين، بل يمثل في الحقيقة مراحل انحطاطها وانحلالها. والديانة الكبرى، والأكثر عالمية، أي ديانتنا، الديانة العقلانية للّه الواحد، هي التي مهّدت لعملية الخروج من الدين، فانقلبت المعادلة في الموضوع الديني، لأنّ ما يبدو في الظاهر تطوراً هو في الواقع بداية الانحطاط والتقهقر.[٥]

وفي الأرجح أن مثل هذه الادعاءات الباهرة وذات طابع المفارقة، تنبع من الصورة الأسطورية التي حاكها الغرب لنفسه ليؤكد تميُّزه عن غيره من المجتمعات. ونَدين بهذا التأكيد الجازم وهذه الفكرة المحيِّرة القابلة للجدل، لڤيبر في كتابه: **اليهودية القديمة** (١٩٠٥)، الذي يرى فيه أن التوحيد يمثل مرحلة متطورة في تاريخ الفكر البشري قياساً إلى شطط الميثولوجيات الوثنية، سواءً الإغريقية أو الوافدة من بلاد ما بين النهرين. كما يؤكد فرويد Freud[٦] أيضاً على هذه النظرية في كتابين شهيرين: **الطوطم والمحرّم** و**موسى والدين التوحيدي**. وهكذا، كرّس ڤيبر الخرافة القائلة بإن اليهودية القديمة هي في أساس إزالة ظاهرة الانشداه بالدين بالتالي وانكشاف الأوهام من العالم، وأن هذا الانكشاف سوف تتممه الرشدانية الرأسمالية للكلڤينية.

إن فلاسفة عصر الأنوار ومن أعقبهم مباشرة، لم يخطر على بالهم يوماً أنه ستُنسب إليهم تهمة «إزالة السحر» عن العالم وإدخال الشعور بالفراغ لدى الإنسان من وراء «موت الله»، بل كانوا يعتقدون أنهم عملوا على تحريره من الظلامية[٧] وشرّعوا له أبواب العقل وانتصار التطور الدائم. أفلا يكمن هنا

---

٥. مارسيل غوشيه، **العالم دون أوهامه: التاريخ السياسي للدين**، مصدر سابق، ص ١١.

٦. هو العالم النفساني النمساوي المشهور (١٨٥٦-١٩٣٩).

٧. الظلامية: مذهب الذين لا يستحسنون تثقيف عامة الشعب، أو الذين ينزعون إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة.

السحر الحقيقي للحداثة؟ هذا السحر الذي سيفتتح عهد الثورات ونهاية الطغاة وإلغاء البؤس والجوع وتحقيق المساواة بين البشر والسعادة العلمانية الطابع في إطار حاضرة حيث يتمتع الجميع بكمال ناصية العقل بدلاً من حاضرة الله ووسطائه في الأرض. كم من الملايين من البشر استشهدوا في ساحات القتال من أجل تحقيق وعود السعادة الإنسانية على أسس علمانية، وما زلنا نعلّق عليها الآمال العريضة منذ اندلاع الثورة الفرنسية والحروب المتسلسلة التي سببتها وصولاً إلى الحروب الاستعمارية والحرب الباردة؟[٨]

هل أزالت فلسفة الأنوار صورة العالم السحرية؟ هنا أيضاً، لا يبدو الجواب سهلاً، ولا سيّما أنّ الحافز الكامن خلف السؤال معقّد إلى حدّ كبير. والواقع، أن الغرب لا يزال منذ النهضة الأوروبية، يعقد مقارنة بينه وبين الحضارات الأخرى؛ ينظر إلى نفسه ويتمرأى مزهوّاً في مرآة الآخر، أي مرآة الحضارات العاجزة عن مواكبته، والتي حبست نفسها في هياكل نصبتها لله، تُطلق النداء وترفع الصلوات على وقع أصوات المؤذّنين، أو في طبقية هرمية معقدة في الهند كرّستها الشرائع الدينية، أو في صورة امبراطور اليابان المعتبَر إلهاً على الأرض.

هل الفردانية موجودة حقاً في جينات الغرب؟

بقدر ما تتسع الهوّة بين غنى الغرب المادي وتطوره التقني المذهل من جهة، وجمود مختلف الحضارات من جهة أخرى، ينكبّ الفكر

٨. راجع بهذا الخصوص، مؤلّفنا: **أوروبا والمشرق، من البلقنة إلى اللبننة: تاريخ حداثة غير منجزة** (دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٠) Georges Corm, *L'Europe et l'Orient, De la Balkanisation à la Libanisation: Histoire d'une modernité inaccomplie*، منشورات La Découverte، باريس ١٩٨٩. يتطرق هذا العمل إلى الحجّة القائلة إن الثورة الفرنسية افتتحت عهداً من الحروب الأهلية الأوروبية التي امتدّت من ثَمّ إلى العالم الثالث عبر الحرب الباردة، وهي امتداد للحربين العالميتين (١٩١٤ـ١٩١٨ و١٩٣٩ـ١٩٤٥)، ويمكن البحث عن جذور هذه الحروب الأهلية الأوروبية المتواصلة في الحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك.

الأنثروبولوجي الغربي على النظريات الجوهرانية التي تجعل من تميُّزه عن الآخر هاوية لا يمكن تخطيها. لكأنَّ الغرب وهو يقدم نفسه إلى الآخرين، يُضفي على تميُّزه صفة القداسة، أو يبدو وكأنه خُلق مساواتياً وفردانياً لأن جيناته الثقافية تحوي خميرة الفكر العقلاني.

وبقدر ما انكبَّ فلاسفة الأنوار على إعادة اكتشاف التراث الوثني بشقية الإغريقي والروماني، فوضعوا ذلك في صلب اهتماماتهم هادفين إلى تحطيم الأغلال التي ابتدعتها الكنيسة، حاول الفلاسفة من بعدهم، مقتفين خطى هيغل وشاتوبريان[9] Chateaubriand، إعادة اكتشاف «عبقرية المسيحية». ويفترض مؤيدو نظرية ڤيبر حول التوحيد كمرحلة أولى للخروج من الدين، أنَّ المسيح أنقذ الغرب بجملته الصغيرة الشهيرة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه،» ممهّداً الطريق أمام الفصل بين ما هو زمني وما هو ديني، وأيضاً أمام استقلالية الفرد. قبل ذلك، وفي النظرة نفسها، يُفترض أن التوحيد اليهودي قد مهّد، من خلال مفهوم الله الواحد والوصايا العشر التي تجلَّت لموسى، الطريق أمام الدولة المتشرّعة الحديثة. وكذلك يرى هؤلاء المنظّرون أن الاستثنائية الجذرية التي يدعون أن الغرب تميز بها قياساً إلى الحضارات الأخرى، مردّها إلى «فردانية» مفترضة للمسيحيين الأوائل. فقد جعلت تعاليم المسيح من الإنسان الفردي القيمةَ الاجتماعية المثلى، وصاغت الفردانية التي تتعارض مع «كلية» المجتمعات الأخرى التي تهيكلها الطائفة أو الجماعة أو القبيلة في هرمية جامدة مُشكِّلة قيمتها المثلى.

سعى الباحث الأنثروبولوجي الفرنسي المعروف لوي دومون Louis Dumont إلى تحديد أكثر دقة لمفهوم الفردانية، وارتكز في بحثه على علم الاجتماع الألماني، وبالأخص أعمال إرنست ترولتش Ernest Troltsch عن

٩. شاتوبريان (١٧٦٨ـ١٨٤٨) أديب فرنسي كبير، وسياسي اشتهر بمؤلفه: عبقرية المسيحية *Le génie du christianisme* الذي صدر عام ١٨٠٢.

المسيحية. يقول دومون:

> شيء ما في الفردانية المعاصرة كان موجوداً لدى المسيحيين الأوائل والعالم المحيط بهم، ولكنها ليست الفردانية التي أَلِفناها، الواقع أن الشكل القديم للفردانية منفصل عن شكلها الجديد بفعل تحوّل جذري ومعقّد استغرق أكثر من سبعة عشر قرناً من التاريخ المسيحي لبلورته ولا يزال عرضة للمتغيرات. لقد شكّل الدين الخميرة الأصلية في تعميم صيغة الفردانية أولاً، ومن ثمّ في تطويرها.[١٠]

نعود هنا إلى المتخيَّل الديني الكلي الوجود الذي صاغت من خلاله الثقافة الغربية مفاهيمها وتقاليدها الأنثروبولوجية. هذا هو تصور الغرب لجينات عبقريته الذي أُزيل أثر «السحر» عنه، ولم يكن زوال هذا «السحر» ممكناً إلاّ لأنَّ الجنيّة التي أشرفت على ولادته وضعت في مهده موسى ويسوع وعصر بركليس[١١] اليوناني.

ألا يوشك الغرب على الجنون عندما ينكب على ذاته ويدرسها؟ ألا يصطنع لنفسه وللعالم الذي يهيمن عليه بجبروته الثقافي، سلسلة من الأساطير المعاصرة؟ وألا تعمل هذه الأوهام التي تزخر بها اللغة التصورية للأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، على نشر وتعميم ما يسميه مارسيل ديتيان Marcel Détienne: «خطاب الأساطير العجيب الباعث للحيرة»، ويسعى إلى تفسيره[١٢].

---

١٠. لوي دومون، **أبحاث في الفردانية: الأيديولوجيا المعاصرة من وجهة نظر أنثروبولوجية** **Louis Dumont, *Essais sur l'Individualisme: Une perspective authropologique sur l'idéologie moderne***، منشورات Seuil، باريس ١٩٨٣، ص ٣٤.

١١. بركليس Pericles(٤٩٥ـ٤٢٩ق.م): سياسيّ أثينيّ، وطّد الحكم الديموقراطي وبسط سيادة أثينا على مدن اليونان. عُني بالعمران وشجّع الآداب والفنون فبلغت أثينا في عهده أوج عصرها الذهبي المشهور بعصر بركليس (٤٦١ـ٤٢٩ق.م.).

١٢. راجع: مارسيل ديتيان، **اختراع الميثولوجيا** **Marcel Détienne, *L'Invention de la Mythologie***، منشورات Gallimard، باريس ١٩٨١. في هذا الكتاب، يفكّك المؤرخ، =

يكفي، لكي نفهم كيف تستطيع الرشدانية الغربية المزعومة التعايش مع الفكر الأسطوري الحديث هذا، أن نشير إلى الصفحات الرائعة التي كرّسها جورج غوسدورف Georges Gusdorf لدراسة الصلة بين الميتافيزيقا والأسطورة في الفكر الغربي المعاصر. يقول غوسدورف:

> لم يتم استبعاد الأسطورة بشكل نهائي، ذلك أن العنصر الممنوع يخضع لدينامية متكررة في الحياة الذهنية سبق لعلم النفس التحليلي أن شرحها وأعطى عليها أمثلة كثيرة، وهو يتجلّى على شكل إحساس الضمير بالخطأ، ويزداد عمقاً كلّما وظّفنا طاقتنا للقضاء عليه. ولا يسع الانتصارات التي حققها العالم أن تتجاهل عجزه عن إرضاء الشغف الروحي لدى الإنسان. بكلام آخر، تبدو الترسيمة التي ينتقل من خلالها الفكر باستمرار من حالة إلى أخرى، حسب تعبير كومت Comte، أو يتدرج في مراحل الذكاء والفهم، حسبما يقول برونشفيغ Brunschvicg، وكذلك علموية القرن التاسع عشر، وكأنها تصطدم جميعاً بمقاومة لا تنثني، أو بالأحرى باستحالة تامة.[١٣]

فكيف يمكن تعطيل ذاكرة الغربيين أو حملهم على نسيان خمسة عشر قرناً من جبروت الكنيسة، حيث كان الفصل بين الديني والزمني لا وظيفة له إلاّ تأكيد أسبقية الديني على الزمني وهيمنته عليه؟ ألم يُقطع رأس ملك إنكلترا باسم التوراة؟ ألم يجعل نابليون الدينَ حارساً لانتصارات الثورة الفرنسية، وحمل البابا على تكريسه امبراطوراً، وأعاد إلى الحكم هرمية

= على نحو لافت، الطريقة التي درجت من خلالها الثقافة الحديثة، وخاصة علماء الأنثروبولوجيا، على تحليل الأساطير الإغريقية.

١٣. جورج غوسدورف، **الأسطورة والميتافيزيقا** Georges Gusdorf, *Mythe et Métaphysique*، منشورات Flammarion، باريس ١٩٨٤، ص ٢٤٥.

السلطة؟ ثمّ، ألم تحصد محاولة تأسيس دين علماني في ظل الثورة الفرنسية فشلاً ذريعاً؟[١٤] ألم يقضِ عشرات الآلاف من الفرنسيين في سبيل الحفاظ على مكانة الدين في المجتمع ومكانة مَلكهم الذي يستمد سلطته من الله وفقاً للأنظمة والقوانين ما قبل الثورة؟ ألم تستمر الممالك المستمِدة شرعيتَها من الحق الإلهي حتى مطلع القرن العشرين، وألم يتحكم القانون الديني بحياة المواطنين الشخصية في إيطاليا واليونان وإسبانيا حتى نهاية القرن الماضي؟ أليس ملوك الإنكليز هم أنفسهم رؤساء الكنيسة الأنغليكانية، وهي كنيسة المملكة الرسمية؟ وكيف نفسّر الجنون النازي الجماعي، بهذا الشطط السوريالي للفكر السحري الكاريزماتي لدى الألمان، وهم كانوا الشعب الأكثر اهتماماً بالفلسفة في أوروبا، وهم الذين ساهموا، إلى حدّ كبير، في بناء هيكل الهوية الحديثة الغربية؟ وكيف نفسّر أيضاً موجة المعاداة للسامية التي أدّت إلى الإبادة التي تعرضت لها الجماعات اليهودية في أوروبا، وهذه الأحداث الفظيعة حصلت وترافقت مع أوج تقدم العقل الغربي وإرساء قواعد الرشدانية والفردانية المتحرِّرة التي يروِّج بها الغرب لثقافته.[١٥]

وماذا عن موجة معاداة الساميّة والمجزرة الجماعية التي ارتكبها النازيون وأدّت بعد ذلك إلى خلق طقوس خاصة بما سمي «المحرقة» التي أخذت

---

١٤. بالإمكان الرجوع إلى الصفحات الرائعة التي كتبها مانويل دو دييغيز في كتابه: **بحث في عالمية فرنسا**، Manuel de Diéguez, *Essai sur l'Universalité de la France*، وتُسلِّط في هذا الكتاب الأضواء الكاشفة على أسباب الويلات الفكرية التي نجمت عن الثورة الفرنسية.

١٥. أثيرت، لهذا السبب، مماحكات ثقافية عديدة عن طبيعة النازية وجنون معاداة السامية وأسبابه، فقد تحولت إلى مشاحنات مزّقت العالمين الأكاديمي والإعلامي لسنوات من دون أن يتم الاتفاق حول المسؤولية المنسوبة إلى هذا العامل أو ذاك في ما جرى، وبالأخص المسؤولية التي تقع على عاتق الألمان بشكل جماعي. نذكّر أيضاً بالجدل الذي أثاره كتاب دانيال ج. غولدهاغن: **الجلادون المتطوعون لهتلر: الألمان العاديون والهولوكست** Daniel J. Goldhagen, *Les Bourreaux volontaires de Hitler: Les Allemands ordinaires et l'Holocauste*، منشورات Seuil، باريس ١٩٩٧.

نوعاً من طبيعة القدسية، وما أثارت مؤخراً من مجادلات كثيرة؟[16] إن صورة اليهودي «التائه»، صورة خلقتها الثقافة الغربية. لذا، من الخطأ القول إن معاداة السامية ترقى إلى أقدم الأزمنة. بل إن رفض التعددية، والفردانية، وإيثار ما يجمع ويوحّد في إطار الأخوّة الشاملة في المسيحية، هي التي أدت إلى نبذ كل الذين لا يعترفون بالمسيح واضطهادهم في أزمنة القلاقل والحروب. لكنّ هذا النبذ كان يلائم المحافظين والمتشددين من اليهود الذين بدا لهم عالمُ «المُشركين» مدنَّساً، مما ساهم في تعزيز عقلية الغيتو.[17] لقد «أعتقت» الثورة الفرنسية اليهود، أي حرَّرتهم من القيود المختلفة التي كانت مفروضة عليهم، ومن حالة الدونية التي عاشوا فيها في أوروبا، وذلك لتأمين انتظامهم طوعاً في رابطة المواطنية الأخوية الجديدة، على الرغم من أن بعضهم استشعر خطر التماثل والذوبان وفقدان الهوية. ومنذ ذلك الوقت، تعيش اليهودية نوعاً من الانفصام العقائدي، وتتنازعها التيارات المتعارضة، بين الانفتاح على الحداثة والانغلاق في مميزات دينية الطابع. ثم إن إنشاء دولة إسرائيل، التي يمكن أن نصفها بـ«طفل الأنبوب» للقرن العشرين، لن يجعل التأمل سهلاً في مسألة «المصير اليهودي».[18] وقد بذلت الدول الغربية جهوداً خارقة لإرساء دولة إسرائيل، بل سعت، بكامل وعيها، إلى إيجاد

---

١٦. نشير خاصة إلى كتاب نورمان فنكلشتاين: **صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال عذابات اليهود** **Norman Finkelstein,** ***L'Industrie de l'Holocauste: Réflexions sur L'exploitation de la Souffrance des Juifs***، منشورات **La Fabrique**، باريس ٢٠٠١؛ ويمكن الرجوع أيضاً إلى الصفحات التي كرّستها جريدة **الموند** ***Le Monde*** في ١٦ شباط/فبراير ٢٠٠١ لهذا العمل، واصفة إياه بأنه «رسالة هجاء».

١٧. كلمة غيتو **Ghetto** تشير إلى الأحياء التي انكفأ إليها اليهود في المدن الغربية لتجنب الاضطهاد، وكذلك لتجنب الحياة المشتركة مع «الكفار» من غير اليهود.

١٨. راجع آلان ديشكوف، **اختراع أمة: إسرائيل والحداثة السياسية** **Alain Dieckhof,** ***L'Invention d'une nation. Israël et la Modernité Politique***، منشورات **Gallimard**، باريس ١٩٩٣.

هذه الدولة مسخّرة كلّ طاقاتها الممكنة. لكن، كيف يمكن أن يكون الغرب علمانياً وجمهورياً، ويساهم، في الوقت نفسه، من دون تحفّظ، في إيجاد دولة مصطنَعة تطالب بـ«حقها» في الوجود استناداً إلى نص ديني؟ إذا كان التبرير الأخلاقي الذي شرّع وجودها بنظر الغرب، هو الاضطهاد الذي أُلحق باليهود على يد شعب آخر (أي الألمان)، فإنما تمّ ذلك بمصادرة أرض شعب آخر، أي الفلسطينيين، لا علاقة له بما حصل من إضطهاد في أوروبا للجماعات اليهودية. وهذه قضية أخرى في أسطورة الرشدانية الغربية، سوف نتطرق إليها لاحقاً.

إن فلاسفة أوروبا الجدد من الماركسيين القدامى، المرتدين، والذين تحولوا إلى المزايدة في نشر تعاليم الليبرالية الجديدة، يسهّلون كثيراً مهمة الاتهام في هذه القضية. يكادون يتبرؤون من فلسفة الأنوار، ويتصرفون وكأنَّ هذه الفلسفة تحرق أصابعهم، كما تزعجهم مبادئها المعتمدة على الشك من أجل زيادة المعرفة، وعلى النسبية في النظر إلى الأمور الإنسانية للقضاء على التعصب وترسيخ قيم التسامح، وكذلك الإيمان بقدرة التقدم العلمي. فهؤلاء الفلاسفة يسعون إلى إعادتنا إلى عالم ثنائي يتعارض فيه مجتمع الخير، حيث يسود الله والتوراة،[١٩] مع مجتمعات الشر حيث البربرية، في حين تَنْصَبُّ على الشيوعية اللعناتُ وتُلحق بركب النازية. لهذا السبب بالذات، تصبح فلسفة الأنوار مزعجة لأن الشيوعية يوتوبيا[٢٠] متحدِّرة منها. كما أن منظّريها الكبار، وهم فرنسيون وألمان، مؤرخون وفلاسفة من طراز رفيع، يغوصون في قلب الحداثة التي يُعتبر الغرب مؤسسها وحاميها. كذلك، تمثّل

١٩. نذكّر بالمجادلات التي أثارها كتاب: ستيفان كورتوا: **الكتاب الأسود للشيوعية** **Stéphan Courtois,** ***Le Livre Noir du Communisme***، منشورات **Robert Laffont**، باريس ١٩٩٧.

٢٠. يوتوبيا أو طوبى: نظرة سياسية أو اجتماعية خيالية غير متمثّلة في واقع، وقد وصفها كارل مانهايم بأنها حالة فكرية مثالية متنافرة مع الواقع الذي وُضعت فيه.

الشيوعية، نفسها، التوق إلى القيم الجماعية والتعاضد والأخوّة، ولا يمكن، بالتالي، مصالحتها مع هذا الاعتقاد الجديد القائل إن تفوق الغرب عائد إلى الفردانية الكامنة في جيناته.

كذلك، تتعرض قيم الثورة الفرنسية وميزاتها لإعادة نظر سلبية الطابع على يد جيل من المؤرخين أقلع عن إدمان الماركسية ورؤيتها إلى التاريخ. ثمة عمل صدر مؤخراً، يحلّل فكرة التقدم في فلسفة الأنوار، ويرى فيها أصول جميع التوتاليتاريات المعاصرة.[٢١] صحيح أن الإيمان المتزمت بنظام اجتماعي وبقدرته على التطور، يؤدي إلى الشطط الأسوأ، وبعض فصول الثورة الفرنسية شاهد على ذلك، وبشكل خاص حقبة الرعب والإرهاب la terreur. إلا أن هذه المراحل المتميزة بالعنف في الثورات الحديثة لا تبرّر بشكل من الأشكال العنف القديم والتقليدي، الذي ميّز الحروب الدينية والفتوحات والغزوات النابعة من الجشع الخالص، ولا تبرّر ذاك العنف الذي مارسته جحافل المغول والتتر، أو الحملات الأوروبية لفتح القارة الأميركية وما نتج عنها من إبادة السكان الأصليين؟

نرجسية الخطاب الغربي وأسطوريته

الواقع، أن خطاب الغرب عن نفسه، منذ ما يقارب ثلاثة عقود، بات لا يطاق، بل هو غاية في النرجسية والانعكاس الأسطوري لذاته. وعلى الرغم من كل الظواهر التي تؤكد نرجسية السلوك الغربي، يحاول الغرب أن يثبت خاصيته العقلانية وجوهره الديموقراطي واحترامه لاستقلالية الفرد. وكل ما عدا ذلك عوارض طارئة وثآليل وقروح سرعان ما يتخلص منها، وآخرها

---

٢١. فريدريك روفيلوا، اختراع التقدم: أصول الفكر التوتاليتاري (١٦٨٠ـ١٧٣٠) Frédéric Rouvillois, *L'Invention du progrès: Aux origines de la pensée totalitaire (1680-1730)*، منشورات Kimé، باريس ١٩٩٦.

الشيوعية. هكذا، يضفي الغرب على نفسه صفة القداسة: إنه العقل، والله، حتى لو أزيل عنه سحر الله، وهو قادر على تلقين العالم دروساً، لا بل يُفترض به أن يقوم بهداية بقية الشعوب.

صحيح أن الغرب أزال الأثر السحري للأديان عنه، لكنه يحتفل اليوم بعودة الله. والولايات المتحدة التي تقوده بلا منازع، هي «أمة مؤمنين»، وتقوم عملتها بالمساعدة على انتشار رسالتها المقدّسة: يهتف كل دولار أميركي يجول العالم: «بالله نؤمن». والجدير بالملاحظة أن القومية الأميركية تمد جذورها إلى البروتستانتية والعهد القديم، إذ رأى غزاة أميركا الشمالية أن فتحهم تكرار لغزو العبرانيين لأرض الميعاد، والهنود الحمر الذين طاردتهم وقضت على هويتهم، ليسوا بأفضل من الفلسطينيين أو الكنعانيين في التوراة. وتصف الأستاذة الباحثة في القومية الأميركية إليز مارينستراس Elise Marienstras الترسيمة التوراتية التي أثّرت إلى حد كبير في تشكُّل المجتمع والقومية الأميركيين، فتقول:

> تذهب الديانة الأميركية المدنيّة أبعد من النموذج الذي تزوّدنا به الفلسفة (أي روسو)، وتعيد إحياء الشعب العبراني وكأنه في أزمنته الأولى. وهي تحتفل بإعادة إحياء موسى وكذلك الوصايا العشر وفتح بلاد الكنعانيين. ويذكّر الليبراليون، أمثال القس أبيل آبو Abiel Abbot الذي أصبح على منهج الكنيسة الموحدة البروتستناتية، من خلال عبارات متوازنة، بالمقارنة التي يقيمها معاصروهم بين إسرائيل والولايات المتحدة: «إسرائيلنا الأميركية»، عبارة شائعة وتُعتبر صحيحة وملائمة. ومع ترسيخ الدولة ـ الأمة، يأتي التطابق بين تاريخ المستوطنين الأوائل وتاريخ أول «شعب مختار»، ليصنع الأسطورة التي تنضم إلى الأساطير الأخرى المتعلقة بالأصول الأميركية. وقد دشّن توماس جفرسون Thomas Jefferson،

عام ١٨٠٥، ولايته الثانية بابتهال إلى إله إسرائيل.[٢٢]

لن نتعجب، إذاً، من أن تكون الدول المعاصرة التي تكونت على أساس قاعدة دينية، حليفةً وفية للولايات المتحدة في صراعها ضد الشيوعية والقوميات العلمانية في العالم الثالث. ولن يزيدنا إعجاباً، أن تصطف إيران تحت حكم الإمام الخميني، إلى جانب الدول الأوثق قرباً من السياسة الأميركية، وهي إسرائيل والمملكة العربية السعودية والباكستان، في نبذ الشيوعية والقومية العلمانية.[٢٣] بموازاة ذلك، تساهم ثقافة الهولوكوست في تعزيز دور اليهودية كعنصر مؤثر في العلاقات الدولية، وهذا الأمر كان مهّد له إنشاء «بيت قومي»[٢٤] لليهود في فلسطين في مطلع القرن العشرين. ثم إن آخر مرحلة من مراحل الحرب الباردة التي انتهت بانتصار المعسكر الغربي، جرت في إطار تعبئة قصوى لفكرة الله، إله الكاثوليكية في أوروبا وإله

٢٢. إليز مارينستراس، نحن، الشعب: أصول القومية الأميركية Elise Marienstars, *Nous, le peuple: Les origines du nationalisme américain*، منشورات Gallimard، باريس ١٩٨٨، الفصل العشرون: «أمة الإيمان: المواطنية والدين والمدنية والقومية» (ص٣٧٩ـ٤٠٠)، و«الاستشهاد» (ص ٣١٤). تضيف الكاتبة: إن الميراث التوراتي الذي نقلته المذاهب البروتستانتية المتشددة ليس غريباً عن المواطنين أياً تكن قناعاتهم الدينية. كما أن التقليد الألفي المستقى منه يصدح من خلال أصوات منشدي الأمة بنبوءات دانيال ورؤيا القديس يوحنا. هذا التقليد مشدود أيضاً باتجاه مجيء مُلك المسيح، ويُحتفل كل عام مع ذكرى استقلال أميركا بالحدث المذكور مبشّراً بمعركة هرمجدون (نهاية الكون وعودة المسيح إلى الأرض) الأخيرة قبل الخاتمة الدنيوية، واصفاً مسيرة البشرية المنسجمة والدائمة باتجاه المجد والسلام، واعداً بمملكة الله واكتمال السعادة في العالم الآخر وتجسدهما على هذه البسيطة بالازدهار الأميركي (ص ٣٩٥).

٢٣. نذكر أن الباكستان (وهي تعني حرفياً «دولة الأنقياء») نشأت إثر انفصال المسلمين الهنود وتأسيسهم دولة ذات قاعدة دينية. انظر: الفصل السادس من هذا الكتاب.

٢٤. هذه هي العبارة الشهيرة national home، الملتبسة المعنى، والتي أتت بوعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا عام ١٩١٧، إلى وجهاء الطائفة اليهودية في إنكلترا، وتمّ إدخالها في صك الانتداب على فلسطين الذي منحته عصبة الأمم لبريطانيا.

الإسلام في العالم الثالث، وفي الخلفية ظلال العهد القديم حيث اندرج تحت رايته الانبعاث «العجائبي» لدولة إسرائيل.

أين تكمن، إذاً، رشدانية هذا الغرب الذي يدَّعي التخلي عن الأوهام الدينية في حين يسحق العالم بدينامياته المجنونة وحروبه وانقلاباته الفلسفية؟ ها هو العالم ينوء تحت وطأة الكتابات والخطب والصور الإعلامية التي ينهال بها الغرب عليه بثقة في منتهى الوقاحة. تقول صوفي بسيس:

> لا يزال يصدمني في الحقيقة هذا اليقين الهادئ الذي يؤكد الغربيون من خلاله شرعية تفوقهم، ويمكن استشفاف هذا اليقين في أعمالهم الأكثر تفاهة وفي مواقفهم الأكثر اعتياداً. إنه يصوغ الكلام العام والأستاذية المثقفة ووسائل الإعلام، مستوطناً في عمق أعماق وعي الأفراد والجماعات، مشكِّلاً صلب الهوية الجماعية إلى درجة أصبح معها ثقافة حقيقية، ثقافة التفوق؛ هذه هي ركيزة الكيان الذي يُدعى اليوم الغرب، وتقوم على أساسها علاقاته بالآخرين.[٢٥]

فمن ذا الذي يستطيع اللحاق بالغرب في هذه الحيوية الثقافية والعسكرية والتقنية والعلمية، التي لا نظير لها؟ ومن يستطيع أن يفهم شيئاً من خطبه المختلفة والمتناقضة بين عقد وآخر، أو من خلال عشرات الآلاف من المؤلَّفات في ميادين العلوم الإنسانية والتاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا، التي تصنع ثم تخرّب أنماطاً ثقافية زائلة؟[٢٦]

يخشى الغرب قوته بالذات. يتراءى له أنه على شفير الزوال؟ ألا يُحتمل أن يحاصره البرابرة من جميع الجهات بسلاحهم الوحيد، أي ازدياد

---

٢٥. صوفي بسيس: **الغرب والآخرون، حكاية تفوق**، المصدر السابق، ص ٧.

٢٦. ماذا يتبقى لنا اليوم، مثلاً، من منهج البنيوية التي كانت تسيطر منذ ثلاثة عقود على كافة العلوم الإنسانية؟

أعدادهم، بينما سكان الغرب يتناقصون عدداً؟[27] وماذا لو تكررت مأساة الامبراطورية الرومانية؟ لهذا السبب، على الغرب أن يثبت دوماً أنه الأقوى: من أجل هذا كانت حرب الخليج الثانية وحرب أفغانستان، لإعادة الذين لا يفهمونه أو يتجاسرون في تحدّيه، إلى رشدهم. إن المشهد السائد اليوم مشهد غرب فاتح، غارق في البلوى والنعيم، متأرجح بين ما يدّعيه من رشدانية بعيدة عن سحر الدين، وما يشعر من «قدسية» رسالته. إنه الغرب المحصَّن ذو السراديب الفكرية المخيفة، التي يمكن الدخول فيها لكن أنّى الخروج منها أو الاهتداء داخلها؟ ذلك أن الغرب مضياف ويستقبل في أحضانه جميع «البرابرة»، جاعلاً من هذه الضيافة مصدر قوته. وثمة نقاش حادّ آخر في الغرب حول الخيار بين نمط المجتمع المُتعدِّد الثقافات على النمط الأميركي، ونموذج المجتمع القومي على النمط الأوروبي الذي يخضع بدوره لتطورات كبيرة.

فرنجة العالم: القوة والمقدَّس

تحتضن القوة داخلها براعم الدينيّ، والسبب أنه لا يمكن تفسيرها حقاً، فهي تحتفظ بكيميائها الغامضة متخذة دوماً أشكالاً مقدّسة. من هنا، تجعل القوة من الغرب عالماً «مقدساً»، يُحظَر المساس به. ولذلك نظر الغرب إلى اعتداء الحادي عشر من أيلول وكأنه انتهاك لحرمة تفوقه وجبروته، أو نية سيئة شيطانية لنزع صفة القداسة عنه. فالغرب يعتبر أنه ليس صنماً ولا عجلاً مذهَّباً يمكن تدنيسه من دون عقاب، لذا بلغت ردود الفعل الأميركية تجاه أحداث ١١ أيلول شراسة لا توصف، وصوّرت نفسها على أنها عنف «الله

---

٢٧. إشارة إلى موضوع يُتداوَل به كثيراً منذ نهاية الحرب الباردة وتجدد الاضطرابات التي سببتها في أفريقيا والشرق الأدنى والبلقان. هذا الموضوع أول من تحدث عنه باسكال بروكنر في كتابه: **شهقة الإنسان الأبيض** Pascal Bruckner, *La Sanglot de l'Homme Blanc*، منشورات Seuil، باريس ١٩٨٣.

الساخط» الذي يجب أن يعاقب «الكافرين». والجدير بالملاحظة هنا، أن ضحايا اعتداء الحادي عشر من أيلول نَعِموا بمعاملة تكريمية مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة اللامبالية التي يُذكر فيها ضحايا آخرون في حوادث أو أعمال عنف وقتال شتى، عبر نشرات الأخبار، حتى بدوا وكأنهم فئة خاصة متميزة عن سائر البشر.

صحيح أن الغرب ادّعى أنه تخلى عن أوهامه الدينية الطابع، وتشهد الممارسة الدينية فيه تراجعاً، لكنه لا يجد مانعاً من القيام بمهام حضارية مقدّسة على الطريقة التوراتية التي تتمثل في العقيدة بأن الله يختار شعباً ويفضله على سائر الشعوب، وذلك تأميناً لخلاص البشرية ولو بقيام الحرب الشاملة لتوطيد نفوذه.

واللافت أن الأيديولوجيات العلمانية الغربية، وهي تحتضر اليوم، كالقومية والشيوعية أو الحلم في تأسيس الجمهورية الفاضلة، قد تميزت بالعنف نفسه التي مارسته الديانات التوحيدية، أكانت أنماطها يهودية أو مسيحية أو إسلامية، فهي موجودة أصلاً في التوراة. ولو تمّت علمنة العقل في الغرب الذي سعى إلى خلاص البشرية ليس عن طريق الله، بل من خلال العقل والتنظيم الاجتماعي، فيبدو أن الغرب استمر يعمل من أجل هذه الغايات وفق الأنماط الدينية التوحيدية.[٢٨]

---

٢٨. نعود إلى الكتاب المدهش لمانويل دو دييغيز Manuel de Diéguez الذي يعبّر بالشكل الأفضل عن انتقال صورة الله إلى «ملكية وسيادة المفهوم» concept-roi الغازي للعالم الفكري: «إن انحطاط الفكر في تصورية أسطورية يولّد جدلية خطرة للأفكار المنتشية بالطوباويات.» ويضيف قائلاً: «اللاهوت الهيغلي المتعلق بكونية الفكرة وتجرّد الروح لا يزال شرحاً أفلاطونياً ـ مسيحياً لا يمكنه إلاّ أن يؤدي إلى تأليه حاملي السيوف والعاطلين عن العمل من رجال الدين، وبالتالي ترفيع أمثال الإسكندر ونابليون إلى مصاف منفذي أعمال الله على الأرض ومن حولهم معشر الكتبة.» انظر: مانويل دو دييغيز، **بحث في عالمية فرنسا** Manuel de Diéguez, *Essai sur l'Universalité de la France*، ص ١١٥.

هنا، ثمة مفارقة غريبة: الهدف مقدّس والوسائل علمانية، فهل هذا ممكن؟ ليس هذا هو الانطباع الذي يتكون لدينا عند رؤية الفوضى التي يغرق فيها العالم الواقع تحت الهيمنة الغربية. كتب سيرج موسكوفيتشي متحدثاً عن العقلانية التي تشكل المرجع المعياري لتاريخ الغرب: «ها هي القوة (أي قوة الغرب) محاصَرة بالمشاعر نفسها التي يثيرها الدينيّ من إجلال وخشية.»[٢٩] كذلك، لا يتردد إميل سيوران Emil Cioran، بنظرته الثاقبة، عن وصف جنون هؤلاء «المثاليين الزائفين» (في المقدمة الرائعة التي وضعها لإحدى طبعات مسرحية ڤولتير: **محمد**)

نحن عبيد الأصنام بالغريزة نحوّل أحلامنا ومصالحنا إلى أمور مطلقة لا جدال فيها. ليس التاريخ إلا موكباً متواصلاً من المثاليات المطلقة والزائفة، ومتوالية من المعابد المشيَّدة من أجل الذرائع، وانحطاطاً للفكر أمام عدم اليقين في المصير. حتى عندما يبتعد الانسان عن الدين، يبقى خاضعاً له ويروح يُضني نفسه بخلق آلهة بديلة يتبناها في ما بعد بحماسة، ذلك أن حاجته إليه أقوى بكثير من الوقائع الواضحة ومن الوقوع في السخافة.[٣٠]

لكن، حذارِ من أن نخدع أنفسنا: الفوضى التي يغرق فيها العالم هي أيضاً انعكاس للفوضى التي يتخبط فيها الغرب الجبار، ولتناقضاته. فما من منطقة في العالم أو بلاد أو مجتمع إلا ولمسته إشعاعات الفكر الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين. ما من نخبة مفكّرة في العالم إلا وتعرف نتفاً من فلسفة الأنوار، أو قرأت النصوص الكبرى التي مهّدت للاستقلال

---

٢٩. سيرج موسكوفيتشي، **الآلة التي تصنع الآلهة**، مصدر سابق، ص ٤١٥.

٣٠. إميل سيوران، في المقدمة التي كتبها عن مسرحية ڤولتير: **محمد أو التعصب الديني** Emil Cioran, Préface à *Mohamet ou la Fanatisme*، منشورات Le Temps Singulier، نانت ١٩٧٩، ص ٩. بخصوص مسرحية ڤولتير هذه، راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الأميركي أو الثورة الفرنسية، أو اطّلعت على شيء من مبادئ الماركسية. واليوم، أكثر من أي وقت مضى، يتوافد المثقفون من النخب غير الغربية إلى جامعات أميركا وأوروبا ليعلقوا على صدورهم شارات التفوق والتقدير.

الأيديولوجيات الغربية في كل مكان، سواءً كانت ظاهرة أم خفية، تشيّد المجتمعات وتفككها تبعاً لتغيير الأنماط الثقافية المتقلّبة في الغرب وتدخلاته السياسية أو العسكرية المباشرة. هكذا، باتت أيديولوجيات العالم الثالث علمانية عندما كانت العلمانية رائجة في الغرب، ودينية عندما رأى الغرب أن الساعة حانت لكي يذهب «فرسان الله»، الحاخامات والبابوات والأساقفة والمشايخ وآيات الله، إلى القتال، ويقضوا نهائياً على الشيوعية. لقد أنشأ الإيرانيون «جمهورية إسلامية» وأيضاً «حزب الله»، مزاوجين بشكل لاواعٍ بين «الأنوار» العلمانية والمفهوم الحديث للحزب وبين السلفية الدينية.

حتى عندما نُظهر العداءِ للغرب، فإننا نستعمل أسلحته، سواءً تعلّق الأمر بالقومية على الطريقة الفرنسية أو الألمانية، أو بحق الشعوب في تقرير مصيرها أو بمطلقية الدولة على النمط الهيغلي أو بالماركسية أو بمناهضة الامبريالية ومعاداة السامية، أو أخيراً الإحياء الانتقامي الطابع لوجود الله في حياة المجتمعات والعودة إلى رحاب الدين على النمط الغربي. ونشير هنا إلى أن معاداة السامية الحديثة لم تعد كما كانت في السابق أيام الخصومات اللاهوتية في العالم المسيحي، عداءً تحقيرياً مستنداً إلى هذه الخصومات، بل أصبحت عداءً عنصرياً مميتاً، لا بل إبادة جماعية في ظل النازية. وهي في العالم الإسلامي استيراد حديث العهد صدّره إلى الشرق الأدب الأوروبي المعادي للسامية، وخاصة الكتاب الشهير **بروتوكولات حكماء صهيون**، وهو ظهر في روسيا وتمّ ترويجه في نهاية القرن التاسع عشر. وقد ضاعف من تأثير هذا الاستيراد إنشاءُ دولة إسرائيل والصدمة العنيفة التي أحدثها هذا الزلزال في البلدان العربية والمسلمة.

الحق، أن العالم أصبح متفرنجاً ومتأثراً بأنماط الحياة وطرق التفكير

والأساليب المسرحية الطابع للتعبير عن الذات والانتماء كما يصورها الإعلام والفكر الغربيان، وذلك مهما تعددت أنواع اللافتات الأيديولوجية الدينية أو العرقية أو المناطقية. إنها أنماط الغرب التي تنظم عادات جميع المجتمعات وتتحكم بها. تهيمن المحطة الإخبارية الأميركية الشهيرة «سي. أن. أن.» على العالم، إذ يجري تقليدها في كل مكان، إن لجهة تقنياتها، أو لطريقة عرضها الأحداث الراهنة والسجالات التي تنظّمها من حولها، سواءً كانت صادقة أم مصطنَعة. ليست فقط تقنيات الغرب هي التي تغلغلت في كل مكان، بل أيضاً طريقته في الحضور والرؤية والإدراك وصنع الخبر والترويج الدعائي.

ثمَّ إن الادعاء بوجود شرخ بين الشرق والغرب، لا يعود إلى الواقع بقدر ما يعود إلى النزاعات التي تُعنى بالتعبير عن الهوية والانتماء والتي أذكاها تطور الثقافة الغربية خلال القرنين الأخيرين.[31] كما أن التطور المذهل في مجال الاتصالات والنشاط المتنامي الذي تشهده حركة المغتربين والمسافرين يسهّلان عملية «الفرنجة» حتى عندما تكون مرفوضة ظاهرياً من خلال مختلف أشكال التعبير عن الهوية المعادية للغرب. إن المسار الذي يسلكه هذا الشرخ هو استجابة لمصالح النافذين الدنيوية بفضل المناورات الجيوسياسية العالمية التي يجيد استخدامها عند الحاجة. ويظل هذا الشرخ سلاحاً بيد الغرب يستخدمه لتأمين مصالحه وفقاً للظروف والأحداث والمتغيرات الطارئة، ويجسّد الخط الأسطوري الذي أوجده الغرب ليؤكد

---

٣١. إن مفهوم الهوية كمنتوج استهلاكي ثقافي واستعراضي هو الذي يدفعنا إلى استعمال عبارة «مسرحية» البحث عن الهوية. راجع في هذا الصدد: مانويل دولغادو رويز Manuel Delgado Ruiz في مقالته «ديناميات الهوية والمساحات العامة»، في مجلة سيدوب للشؤون الدولية Revista *CIDOB d'Afers Internationales*، عدد ٤٣ـ٤٤، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨ـ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩، مؤسسة CIDOB، سرغوسا.

تفوقه من خلال التباين القائم بين آريين وساميين، وتفوّقَ نَسَبه على نَسَب الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى والحضارات الأخرى.

فأي آلة جهنمية هي هذا الغرب! ينتقد نفسه وتمزِّقه الحروب بين شعوبه ويشهد آلاف التحولات؛ ويرى نفسه على طريق الانحطاط، ثم ينتفض من جديد أكثرَ قوة من ذي قبل ليعيد صياغة العالم وفق أمزجته وما تقتضيه مصالحه الاستراتيجية!

لقد اعتقد الماركسيون، طويلاً، أن العالم الرأسمالي الصناعي سيضمحل تحت وطأة تناقضاته بالذات، مفسحاً المجال أمام البشرية لمرحلة جديدة يتحرر فيها الإنسان ويرتقي باتجاه السعادة العالمية. اليوم، اختفى الفكر الماركسي من دون أن يترك أثر يُذكَر، بينما العالم واقع تحت سحر الرأسمالية التي تنتشر بالجنون «المقدس» نفسه لانتشار الاشتراكية في ما مضى. فهل ستنجح الرأسمالية أم أنها ستترك العالم في حيرة دائمة، متأرجحاً بين علمانية باتت محتقَرة وجنون حروب حضارية وهمية بين الشرق الروحاني والغرب المادي؟ علينا، قبل الخوض في هذا الموضوع، أن نواصل تفسيرنا للإنجذاب الهائل نحو تأكيد وإحياء تأثير الانتماءات الدينية والعرقية والحضارية في تسيير شؤون العالم.

الفصل الرابع

الانشداد المعاصر نحو قضايا الهوية والانتماء

الرومنطيقيون والشرق: هل الشرق روحاني والغرب ماديّ؟

يجد الانسحار بموضوعة الهوية الذي عرف حيوية جديدة في نهاية القرن العشرين، جذوره في مختلف التيارات الفكرية الغربية التي ذكرناها. وهو دائماً مرتبط بهيمنة الغرب على العالم وتطور المفاهيم المتعلقة بمصالحه الاستراتيجية والجيوسياسية. مَنْ يطّلعْ جيداً على أدبيات «المسألة الشرقية» في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، التي تضمنت وصف الأوضاع في البلقان والشرق الأدنى التركي والعربي، يعرفْ أيضاً أن الأحكام التقويمية التي تصدرها الثقافة الأوروبية على الشعوب والطوائف الدينية و«الأقليات» العرقية في هذه المنطقة من العالم، مرتبطة بسياسات الدول الكبرى وفتوحات أوروبا. إن الأحكام الأنثروبولوجية المسبقة وتعبئة المواقف حول ديناميات القوة ذات النمط الاستعماري، مترابطة بشكل وثيق. لكن الكليشيهات المتعلقة بالهوية لها أيضاً وظيفة ملازمة للتطور الداخلي الذي شهدته المجتمعات الأوروبية، وهذه المسألة سنتناولها بالبحث في ما بعد.

كانت الثقافة والأهواء الأميركية الجيوسياسة، في تلك الحقبة، غائبة عن معظم مناطق العالم. نُظر إلى الولايات المتحدة خارج نطاق أوروبا، وخاصة في الشرق كدولة نزيهة لا مصالح لها، تدفعها فقط الرغبة في احترام

الشعوب الساعية إلى السلام والاستقلال، كما أكّدت ذلك النقاط الأربع عشرة التي طرحها الرئيس الأميركي ويلسون في مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالمية الأولى. أما اليوم، فقد تغيَّرت الحال بالطبع، واستعاد، منذ السبعينيات، الانبهارُ بقضايا الهوية حيويتَه المعهودة، وهو لا يتغذى فقط من التقاليد الأوروبية القديمة، بل تزيد في تعزيزه المواقف الأميركية العالية النبرة، كما سنرى لاحقاً.

لكن لا شيء يؤثر في النفسية الجماعية الغربية، أكثر من هذا الكليشيه الرومنطيقي الذي راج في نهاية القرن العشرين، وساهم اعتداء الحادي عشر من أيلول في بلورته: «القرن الواحد والعشرون سيكون دينياً،» على حد قول الأديب الكبير مالرو Malraux.[1] لكن، إزاء العلمانية الضعيفة الشاحبة، فهذا الأديب سليل آخر الرومنطيقيين تنبأ بـ«عودة الله» قبل حصولها. هناك تقليد مألوف درج عليه رومنطيقيو القرن التاسع عشر، يقوم على ازدراء مظاهر التطور الأوروبي المتمثلة بالتقنية والتنظيم والفردانية الصاعدة، وعلى الدعوة إلى الرحلة إلى الشرق من أجل التمتع بالمناظر القديمة الحالمة حيث يُفترض أن نعثر في كل مكان على آثار الله وعَبَقه.[2] ولقد بحث شاتو بريان

---

١. مالرو (١٩٠١-١٩٧٦) روائي شهير، اختاره الجنرال ديغول ليكون وزير الثقافة في فرنسا. ساهم في الآداب في فرنسا، وقام بتجميل العاصمة الفرنسية.

٢. اقرأ بهذا الخصوص المقدمة الرائعة التي كتبها جان كلود برشيه تمهيداً لأنطولوجيا عن الرّحالة الفرنسيين في الشرق: **الرحلات إلى الشرق: مختارات من أدب الرحّالة الفرنسيين إلى مشرق القرن التاسع عشر** Jean-Claude Berchet, *Le Voyage en Orient Anthologie des voyageurs français dans le Levant du xix^e siècle*، منشورات Robert Laffont، مجموعة بونكان Bonquins، باريس ١٩٧٧؛ وكذلك كتاب دنيز براهيمي: **عرب الأنوار والبدو الرومنطيقيون** Denise Brahimi, *Arabes des Lumières et Bédouins romantiques*، منشورات Le Sycomore، باريس ١٩٨٢؛ وكلودين غروسير، **إسلام الرومنطيقيين** Claudine Grossir, *l'Islam des romantiques*، جزءان، منشورات Maisonneuve et Larousse، باريس ١٩٨٤، ولا ننسى أيضاً الكتاب البديع لتييري هنتش: **الشرق الخيالي**: =

Chateaubriand، بايرون Byron، جيرار دو نرڤال Gérard de Nerval، وغيرهم الكثيرون، عن الشرق الملهِم، شرق اليونان القديمة، والأراضي المقدسة وجوارها: لبنان وفلسطين وسوريا، ولا ننسى مصر في عهد الفراعنة حيث كان كل شيء دينياً. اقتفى الشعراء الأوروبيون الكبار في الشرق خطى موسى والمسيح ومحمد، وكان كل شيء يذكّرهم بالمكانة التي فقدها الله في حضارتهم، وبنهاية النظام الأبوي وحكم العشائر وإيقاع أصوات الصلاة الذي كان يزين تلك الأزمنة المنسيّة من تاريخ البشرية. وترسّخت على هذا النحو صورة أوروبا التي فقدت روحها إثر سعيها الدؤوب وراء التطوّر المادي، بينما أصبح الشرق يرمز إلى الروحانية وحس الشرف والترفع المزعوم عن القيم المادية.

وكما يحصل على الدوام في التناقضات التي يفرزها الفكر الأوروبي، كان لا بدّ لهذه التخيُّلات المثالية للشرق، من أن تتعايش مع موجة هائجة من التحقير للعادات الشرقية ولما رآه الأوروبيون من مكر وازدواجية اللسان والتصرف لدى الشرقيين من جهة، وما كانوا يشعرون به من التفوق النوعي للغرب العقلاني من جهة أخرى. وكما رأينا، فقد تغذّت هذه النظرة التحقيرية من نظرية الأعراق المتفرعة من الدراسات اللغوية، ومن النظرية الداروينية وهجمات رينان على ما كان يراه من بلادة الذهن السامي المتجسّد في الإسلام. وقد كتب، قبله، ڤولتير رسالة هجاء لاذعة ضد النبي محمد، واصفاً إياه بـ«المسيح الدجّال». ويجب الاعتراف هنا، بأن هذا النص لا

= الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسطي Thierry Hentsch, *L'Orient imaginaire: La Vision politique occidentale de l'Est méditerranéen*، منشورات Minuit، باريس ١٩٨٨.
ويجدر التنويه بالعمل المميز لإدوارد سعيد: **الثقافة والامبريالية** المذكور سابقاً؛ ومن أجل دراسة أكثر تفصيلاً لمختلف نماذج الكتابات الغربية عن الشرق، بالإمكان الرجوع إلى كتابنا: **انفجار المشرق العربي**، المذكور سابقاً.

يُشرّف الكاتب الكبير ولا نظامه الفكري.[٣] والحقيقة، أن الثقافة الغربية تقول، بسهولة قلَّ نظيرها، الشيء ونقيضه في آن. وكما يستطيع مفكرو الغرب الكبار أن يرفعوك إلى قمم المعرفة والفكر، فإنهم يرمونك بعد ذلك في مثالب الأفكار المسبَقة الزائفة والمبتذَلة.

وبالرغم من بلاهة هذا الكليشيه المتعلق بمادية الغرب وروحانية الشرق، فهو يستمر حتى اليوم في تأدية مهمته على أكمل وجه، ولا سيَّما أن المفكرين الشرقيين، أنفسهم، أصبحوا يرددون من دون وعي ما تعلموه من الأدباء الأوروبيين المشهورين، ساعين بذلك إلى التخلص من عقدة نقص يستشعرونها أمام تفوق أوروبا المستعمِرة للشرق، وأمام الغرب الذي يهيمن على الكوكب. ثم إن خطبهم تُردِّد بطريقة لا تكلّ، أن الشرق هو أرض الطهارة، وأن أبناءه هم ورثة الأنبياء الكبار الذين يَدين لهم الغرب بكل شيء، وأن الشرق يحتفظ بمشعل الله الذي ابتعد عنه الغرب «البربري» متمرغاً في شهوة الخيرات المادية، محقِّراً مكانة الدين في مجتمعاته، ومتخلياً عن تقاليد الشرق العائلية المتجسِّدة في كبح دور المرأة التي يجب أن تكون أولاً وأخيراً الزوجة والأم، وفي تكريس سلطة «الأب» كربّ للعائلة.

لقد مثّل الشرق، بالنسبة إلى هؤلاء المفكرين الشرقيين، عالم النور والإيمان، بينما يجسّد الغرب عالم الظلام والكفر حيث يحرّض فلاسفتُه الملحدون على القضاء على ما بقي فيه من روح من خلال نشر العلمانية. فالغرب، في هذه النظرة، آلة الحرب ضد الله، التي تدّعي الفصل بين الأرض والسماء، وبين الزمني والديني. يمكن للغرب أن يتمرغ قدر ما يشاء في القوة والفجور، إلا أن الشرق سيبقى برغم ذلك حامي المعبد، ولن

---

٣. ڤولتير Voltaire، **محمد أو التعصب الديني**، المصدر المذكور سابقاً. وتحمّل هذه المسرحية التي كتبها ڤولتير الإسلامَ كلَّ أنواع الترمّت.

يستطيع الغرب أن يقضي على روحه. وقد اتخذ من أجل هذا رفض العلمنة في بعض أجزاء الأدب الإسلامي المعاصر، تضميناً هستيرياً حاداً لم يكن موجوداً لدى المصلحين المسلمين الأوائل في مطلع القرن التاسع عشر. فهؤلاء المصلون كانوا يمتدحون محاسن الديموقراطية والمواطنية المعاصرة بعد اكتشافهما خلال أسفارهم إلى أوروبا، وخاصة فرنسا. أما اليوم فيرى المنظّرون الإسلاميون، في العلمنة، وهي جزء ملازم لكل ديموقراطية، آلة حرب غربية و«مؤامرة» يهودية ـ مسيحية ضد الإسلام.[٤]

نَعَم، يبدو أن العُصابات الثقافية ليس لها حدود، وهذه الصور الخيالية المجنونة لا علاقة لها بالواقع. لقد وُجد الجشع منذ الأزل، حيث تأخذ الثروة بالألباب أينما كان، وشُنّت من أجلها الحروب والغزوات وأُعمل النهب والاستغلال. ليس الغرب مادياً أو لاهثاً وراء الثروات أكثر من أي نظام امبريالي آخر، كما لا يحتكر الشرقيون إطلاقاً التقوى والنقاء، وتثبت قصص **ألف ليلة وليلة** ذلك، وتفضح أيضاً الثروات الفاحشة التي كانت تتمتع بها الامبراطوريات الشرقية الكبرى، ومن ضمنها الامبراطورية الأخيرة زمنياً، وهي السلطنة العثمانية الإسلامية. وماذا نقول أيضاً اليوم عن الثراء المذهل الذي وفّره النفط لعديد من البلدان العربية، وقد استولت عليه بشكل فاضح العائلات الحاكمة، سواءً كانت ملكية أو جمهورية، والمحسوبون عليها من وسطاء ومضاربون؟

ماذا نقول عن الثروات النفطية العربية هذه المهدورة في الغرب، أو المستثمَرة فيه بشكل بذخي مريب لا يعوض عنها بتاتاً ما يقدَّم من أموال البِرّ والإحسان في إطار جمعيات خيرية «إسلامية» الطابع. ويمكن أن يكون مردّ هذا النمط البذخي في الإنفاق الذي يثير الدهشة والاستهجان، إلى الفقر

---

٤. راجع بهذا الخصوص، مؤلَّفنا: **انفجار المشرق العربي**، مصدر سابق، الفصل الثالث والفصل العشرون.

والعوز اللذين عاش فيهما سكان هذه المناطق النفطية على مدى قرون.

بالمقابل، إذا كان ثمة قارة تقية ومتدينة فعلاً، فهي أوروبا التي اكتسحتها الديانة المسيحية، حيث تشكّل الأديرة والكنائس والرهبانيات شبكة مكثفة تتميز بها كل الأرياف والمدن في أوروبا، وهي لا تقلّ شأناً، لا بل هي أكثر انتشاراً من شبكة المساجد الكثيفة في مدن الشرق المسلم، مع التذكير بأن الأرياف في الشرق لم تعرف قط التقوى الكبيرة التي عرفتها أرياف أوروبا ودامت حتى مطلع القرن العشرين. لقد طبع التصوّف والزهد بخيرات هذا العالم ومتعه، بشكل عميق، كل من المسيحية الشرقية والغربية: القديس فرنسيس الأسيزي، لا بل أيضاً المسيحية ذات النفحة الاجتماعية للقرن التاسع عشر، أو حركة الكهنة الثوار ولاهوت التحرير في أميركا اللاتينية، كل ذلك يتنافى تماماً مع صورة الغرب المادي والملحد. واليوم، تنوب مؤسسات الإحسان غير الحكومية واللجان الكاثوليكية لمحاربة الجوع وتعزيز الإنماء الاجتماعي أو المجلس المسكوني للكنائس، عن الأشكال القديمة للهبات والتعاضد التي كان ينظمها المجتمع المدني. كما أن الأموال التي تُجمَع لأهداف إنسانية في الولايات المتحدة وفي أوروبا ضخمة للغاية. فهل يمكننا أن نتجاهل اليوم أنه إذا كان لا يزال هناك لاهوتيون كبار يُنتجون أعمالاً فكرية ضخمة حول الله وعلاقته بالعالم، فهم موجودون فعلاً في الثقافة الأوروبية المسيحية.

ومن المفارقات الضخمة، كما سنرى في الفصل السادس، أن الديانة الإسلامية لم تعرف في تاريخها إلا سلطة مدنية. لم تكن هناك سلطات دينية ومؤسسات ذات طابع كهنوتي مستقلة عن السلطة المدنية. النظام الإيراني الحديث الذي يشرف فيه رجال الدين على السلطة المدنية، هو اجتهاد جديد كلياً، كما سنرى، سببه فرنجة إيران. وفي المملكة العربية السعودية، حيث الممارسة السائدة للإسلام تكاد تكون حكماً ثيوقراطياً، فإن العائلة الحاكمة لا تدّعي أن سلطتها ذات طابع إلهي، بل هي سلطة مدنيّة الطابع. أما في

الباكستان والسودان، فالنظام العسكري هو الذي فرض بشكل ديكتاتوري التطبيق الصارم لأحكام الشريعة الإسلامية من دون أي تكيّف مع تطور الظروف والزمان.

وهكذا، يجب ألاّ يُخفي الخطابُ عن الروحانية المزعومة للشرق انحطاطَه العميق، والنوعيةَ الرديئة لزعمائه منذ عقود، والرياءَ الديني والفساد المادي والسياسي المستشري لأنظمة الحكم فيه وجمودها القاتل. أما في الغرب، فإن الخطاب عن روحانية الشرق ومادية الغرب يعبّر عما رآه كبار فلاسفته من إزالة تأثير الدين وسحره في مجتمعاته، كما شرحناه سابقاً، فهو ليس دواءً شافياً لما أصاب الغرب من كآبة نفسية من جراء ذلك، بل، على العكس، يشوش هذا الخطاب كل شيء، ولا سيّما أنه يتعايش مع خطاب آخر ذي منبع مختلف هو الخطاب المستوحى من شطط المجتمع الاستهلاكي وهذره، والذي يودّ أن يقنع البلدان في طور النمو بأن التنمية منتوج غربي حصراً لا يتناسب مع المناطق الأخرى في العالم.[٥] فالتصنيع والوظيفة المضمونة والإعانة العائلية للناس المُعدَمين، أي باختصار كل ما يصنع سحر التطوّر على الطريقة الغربية، لا يمكن أن تكون مناسبة ولا ملائمة للعالم الثالث. وهكذا نميل ضمن الفوضى الثقافية السائدة، إلى خلط كل شيء: العالم الذي خابت آماله، وفقدان الروحانية، ونقد النموذج التنموي المطبَّق على العالم الثالث والهجمات على العولمة أيضاً. وسوف نعالج ذلك في الفصل السابع.

وقد شخّص هذا القلق الغربي هربرت ماركوز Herbert Marcuse في

---

٥. هذه هي الرسالة المنبعثة من الأعمال المختلفة للكاتب سيرج لاتوش Serge Latouche، التي تتناول نقد نمط التطور الغربي وخاصة كتابه **فرنجة العالم**، *L'Occidentalisation du monde*، منشورات La Découverte، باريس ١٩٨٩. راجع أيضاً كتاب: جيلبير ريست: **التنمية: قصة عقيدة غربية** Gilbert Rist, *Le Développement: Histoire d'une croyance occidentale*، منشورات Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques، باريس ١٩٩٦.

كتابه **الإنسان ذو البعد الواحد**،[٦] وقام مارسيل غوشيه في زيادة التنظير لهذه الظاهرة بتأكيد الرؤية الفيبرية عن زوال تأثير الدين في المجتمعات الغربية. فهل القلق الناتج عن هذا التحول المزعوم بهذا القَدْر من العمق والكِبَر والاتساع، لكي يؤدي إلى حنين عالمي إلى الروحانية؟ وقد رأينا فعلاً منذ الستينيات قوة الجذب التي يمارسها الإسلام في المجتمعات الغربية نفسها؛ كما أن حالات اعتماد البوذية قد تضاعفت بشكل كبير ولو بضجة إعلامية أقل. ثمَّ، ألمْ نرَ أيضاً البروز المُقلق للمذاهب شبه الدينية التي تمارس في بعض الحالات انتحاراً جماعياً شنيعاً لأفرادها؟ هل نسينا تبنّي روجيه غارودي Roger Garaudy الدينَ الإسلامي وهو عضو سابق في الحزب الشيوعي الفرنسي؟ ونكتشف اليوم مذعورين اشتراك شبان غربيين فرنسيين وأميركيين وأوستراليين في القتال إلى جانب الطالبان. هل يتعلق الأمر فقط بالرغبات التي تدفع الإنسان إلى الانحراف والهامشية، وهي موجودة في كل المجتمعات، أم أننا نجد أنفسنا فعلاً في مواجهة عوارض مختلفة لثبات الذهنية الدينية الواعية أو اللاواعية في السيكولوجيا الغربية؟ إذا كانت هذه هي الحال، فمن الطبيعي، إذاً، أن يعيد انهيار الماركسية وتراجع العلمانية التي شيّدتها فلسفة الأنوار، الانسحار بقضايا الهوية والانتماء وإعادة اعتبار الظواهر المتعلقة بها إلى الساحة الإعلامية.

الاحتفال بالجذور المفقودة

لا شك في أن الدين أصبح، منذ مطلع السبعينيات، حمّالَ أَوْجُه كثيرة في الثقافة الغربية وفي كل وسائل الإعلام. والصحوات الدينية هذه ليس لها طابع الروحانية أو البحث عن جوهر مطلق، أو نظام قيم أو أخلاق أرقى، بل هي في الأساس تعبير عن نزعات عِرقية بدائية من خلال الرجوع إلى

٦. هربرت ماركوز، **الإنسان ذو البعد الواحد** Herbert Marcuse, *L'Homme unidimensionnel*، منشورات Minuit، باريس ١٩٦٨.

الطقوس الشعائرية والتفاخرية المظاهرية، خاصة في اليهودية والإسلام، مع أنه يجب ألا ننسى أيضاً أن الرحلات المتعددة للبابا يوحنا بولس الثاني، البابا البولوني المناضل، التي تمت تغطيتها بكثرة عبر وسائل الإعلام، لعبت أيضاً دوراً لا يستهان فيه في عودة الوعي الديني لدى المسيحيين، وبشكل خاص الجيل الشاب. وتصبح هذه الطقوس استعراضاً انتمائياً وقبعات «قومية» نلوّح بها بشكل عُصَابي لكي نوهم أنفسنا، في هذا الفراغ الكبير الذي نشعر به على الصعيد الأخلاقي والسياسي، بأننا نعيش من أجل قضية حقيقية.

تستحضر الهويات تاريخ الشهداء وتحيي الذاكرة القومية والدينية. يبدأ الألم يعترينا في جذورنا وكأنَّ المبادئ الكبرى لفلسفة الأنوار، كالعلمانية والديموقراطية، اقتلعت العالم من جذوره وألغت الذاكرات العرقية والدينية. وتصبح الأديان بالتدريج صانعة القانون الدولي: هكذا استُدعيت اليهودية في بدايات القرن العشرين لتبرير إنشاء دولة إسرائيل عبر اتخاذ القرار بتأسيس «وطن قومي» لليهود في فلسطين. ويُستخدم بعد ذلك الإسلام لمحاربة الشيوعية عبر إنشاء «منظمة المؤتمر الإسلامي» عام ١٩٦٩، كما يجري استنفاره للحد من تأثير الجاليات اليهودية ومساندتها دولة إسرائيل.

هنا أيضاً، تظهر الثقافة الغربية في عمل دؤوب ومستمر لبناء ومن ثم تفكيك ما تُنتجه. لقد قامت بتصنيف الأعراق والقبائل والحضارات والجماعات اللغوية والأمم والأديان، وسَلسلتها ووصفتها بدقة متناهية من دون أن تتفق على محتوى التصنيفات والمفاهيم التي تضعها أو من دون أن تستخدمها على الأقل بتناسق جدي. ثم وكأن الندم يعتريها، تسترسل الثقافة الأوروبية بلذة بالغة[٧] في جعل اختلاف الهويات مطلَقاً، وفي الاحتفال

٧. راجع: جورج قرم: **انفجار المشرق العربي**، حيث تتناول الفصول من واحد إلى أربعة عرضاً نقدياً لغياب الجدية والتجانس في استخدام المفاهيم المتعلقة بدراسة المجتمعات في الشرق الأوسط، والمجتمعات الإسلامية بشكل عام.

بالذاكرات الدفينة وإعادة إحيائها. فتبدأ أولاً بإعادة النظر في تاريخها بالذات، لا بالشكل المنهجي من خلال البحث عن منطق الأحداث أو التطور أو الثورة، بل لكي تنكبّ كلياً على دراسة العقليات والخصوصيات المناطقية الضيقة والجذور المفقودة تحت وابل التصنيع والتمدين والأحداث الثورية الكبرى والتغيرات الديموغرافية والهجرة.

هكذا، ركزت الثقافة الأوروبية البحث خلال العقود الماضية على إعادة إحياء جذور الأوطان المناطقية القديمة[8] بخصوصياتها المادية ومناظرها المختفية، على حياة القرى مثلاً والحرفيين، على منابت لهويات مفقودة أو مسحوقة تحت تأثير السياسات التوحيدية المتبعة في الدول ـ الأمم المعاصرة: منابت المجموعات العرقية المقموعة (كالباسك مثلاً والبريتانيين والكورسيكيين)، أو الجماعات الدينية المختفية (كالمانوية مثلاً، أو الطوائف اليهودية الأوروبية التي اقتلعها الجنون النازي وأبادها). بدا هذا التوسع في الأبحاث التاريخية خصباً لأوروبا حيث حجبت الذاكرة الرسمية ذاكرات الجماعات التي عانت أشكالاً مختلفة من الاضطهاد. لكن العدوى امتدت إلى العالم الثالث، وبدلاً من القيام ببحث جاد يتناول تاريخ الجماعات التي شكّلت مجتمعات تعددية الطابع طوال تاريخها، يطالعنا الحنين للأصالة المتعارضة مع حداثة غربية مقتلَعة من الجذور. وقد ظهر هذا الحنين بقوة وأصبح جذاباً ما إن بدأت «التقدمية» الاشتراكية[9] أو المتمركسة[10] تفقد ألقها. وهكذا، بدأت تبرز روايات المعارك والنزاعات ذات الطابع الجوهراني وكأنها لا تمت بصلة إلى سياق تحرك المصالح الجيوسياسية، كما برزت روايات

٨. بمعنى terroir، التي تدلّ، باللغة الفرنسية، على خصوصية منطقة أو إقليم أو مقاطعة معينة بكلّ أوجهها مثل أنواع الزراعات والحِرَف والذهنيات واللبس والمأكولات، وذلك قبل أن تأتي الدولة القومية الحديثة لتوحّد العادات وطرق العيش.

٩. بمعنى socialisant، أي نزعة اشتراكية، أو تميل إلى الاشتراكية.

١٠. بمعنى marxisant، أي ذو نزعة ماركسية.

الاضطهادات التي تقول الأقليات «البريئة» إنها عانتها على أيدي الأكثريات العرقية أو السياسية التي ترفض الاعتراف بها.

إن فقدان المنابت هو من المواضيع الكبرى في الأدب الغربي إبّان القرن التاسع عشر، وقد انبعث من جديد مع صعود الأنماط الفكرية المتمحورة حول قضايا الانتماء والهوية. يعبّر المسلسل الأميركي التلفزيوني الضخم «جذور» Roots عن هذا الحنين الجديد.[11] وكما رأينا، فإن البحث عن الأصالة إشكالية في الثقافة الأوروبية أوجدها التصنيع وفقدان المنابت الريفية. ثم ما لبث هذا البحث عن الأصالة أن استحوذ على النفسيات الجماعية في المجتمعات غير الأوروبية، وهو الذي أدّى إلى الخلاف النموذجي بين مناصري السلافيه ومناصري الفرنجة في روسيا خلال القرن التاسع عشر، وهو الذي نجده في الثقافة العربية والثقافات الأخرى في العالم الثالث، كما في حركة المهاتما غاندي في الهند الذي واجه تفرنج بلاده بأصالة التقاليد الهندوسية. كذلك، يمكن إدراج أعمال شبنغلر أو توينبي في عداد أعمال الحنين إلى الأصالة، والبحث عن منابت ذات خصوبة ثقافية لم تقصمها يد الحداثة بعدُ.

يستمد الانسحار بالإسلام أو بالحركات الإسلامية قوته في مطلع الثمانينيات من الشعور بأن هذه الأصالة الدينية الطابع التي فقدتها ظاهرياً أوروبا، يمكن للإسلام تجسيدها من جديد، ولا سيّما أن الإسلام يجد نفسه في مأمن من إزالة الأوهام الدينية التي يعتقد الغرب أنه أتمها. إن «اندهاش» بعض المفكرين الغربيين أمام ظاهرة الثورة الإيرانية في بداياتها وقبل انزلاقها

---

١١. بخصوص نقد مفهوم الأصالة الذي استعمله هايدغر على نطاق واسع، بالإمكان الرجوع إلى أحد مؤسسي المدرسة النقدية في فراتكفورت، ثيودور. ف. أدورنو في كتابه: **لغة الأصالة الخاصة** Theodor W. Adorno, *Jargon de l'authenticité*، منشورات Payot، باريس ١٩٨٣.

في مناهضة حثيثة للتفرنج، لا يمكن أن يُفهَم إلا من ضمن هذا المنطق المنطبع بخيبة الغرب وبحثه عن الأصالة المفقودة. منذ نهاية السبعينيات، يستغرف الطلاب الكثيرون الذين يفدون من كل أقطار العالم إلى أوروبا لدراسة السوسيولوجيا والآداب والتاريخ والأديان، في هذا الجو الأكاديمي الأدبي والإعلامي الذي يحفّز على الأبحاث أو الكتابات المعالجة لمسائل الهوية والانتماء.[١٢]

التطورات الجيوسياسية والانسحار بموضوعة الهوية

يُعتبر هذا الانسحار الفلسفي والإعلامي الجديد بموضوعة الهوية وأشكال التعبير عنها، الذي تطرقنا إليه في الفصل السابق، نتيجة أيضاً للتطورات الجيوسياسية والأيديولوجية التي ميزّت المرحلة الأخيرة من محاربة الشيوعية، وجرى فيها استنفار كل القضايا العرقية والدينية واستفزازها. لقد أعاد انهيار الاتحاد السوفياتي والأنظمة الشيوعية إلى الواجهة «المسائلَ القومية» القديمة، التي ساهم في تشكُّلها تصدير المفاهيم الأوروبية للأمة إلى جميع أنحاء أوروبا تقريباً بعد حدوث الثورة الفرنسية.[١٣]

---

١٢. شاركتُ في عدة لجان تشرف على أطروحات الدكتوراه في فرنسا، وكنت الشاهد «التعيس» للدراسات المتعلقة بإيران والشرق الأدنى التي تعالج إشكاليات متمحورة فقط حول ظواهر الهوية والانتماء (كتطور هذه الطائفة الدينية التي ينتمي إليها الطالب أو تلك، أو سلوك هذه الطائفة أو تلك حيال هذا النظام السياسي أو ذاك، من دون الأخذ بالاعتبار التعقيدات الحقيقية للمجتمعات التي تتصف بتعدديتها والتي أدخلتها العوامل الجيوسياسية في مِحَن عديدة). ولحسن الحظ، لم تُنشر معظم هذه الأطروحات، لكن بعضها المتماشي تماماً مع المصالح الجيوسياسية للغرب، نُشر واعتبر لسوء الحظ مرجعياً. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط، يمكن الرجوع إلى النقد والتعليقات التي تناولت هذه المراجع في البيبليوغرافيا الخاصة المفصلة التي تختم كتاب **انفجار المشرق العربي**؛ وأيضاً في كتابي: **أوروبا والشرق**، المصدرين السابق ذكرهما.

١٣. يمكن الرجوع في ما يخص رومانيا، مثلاً، إلى كتاب كلود كرنوح: **اختراع الشعب**: =

ثمة كتاب حقّق نجاحاً باهراً تكهّن بأن انهيار الاتحاد السوفياتي سيتم عن طريق تمرد الجمهوريات المُسلمة،[14] لكن ما حصل في الواقع أن الجمهوريات الأوروبية (دول البلطيق وجورجيا) كانت أول من سارع للانفصال عن الاتحاد الفيدرالي، بينما لم يُظهر مسلمو الاتحاد السوفياتي أية عجلة للتخلي عن النظام السوفياتي (الذي لا يزال سائداً اليوم على نطاق واسع في أنظمة جمهورياتهم). هكذا، تصبح مسألة الانتماء النقطة المحورية التي تعالجها التحليلات المتناولة للصراعات المتزايدة في العالم. وقد ظهرت مؤخراً أعمال كثيرة تشدد على الظواهر الانتمائية وترى فيها مفاتيح رئيسية لتفسير النزاعات، حتى عندما لا تكون الظواهر وثيقة الصلة بموضوع النزاع فعلاً. وتتحمل دُور النشر جزءاً من المسؤولية بسبب هذه العناوين المثيرة التي تضعها لمؤلّفات كان بإمكانها أن تكون على أرفع مستوى أو تحوي تحليلات أكثر توازناً ودقة. هكذا، تصبح المدلولات المتعلقة بالانتماء المذهبي، مثلاً، حاضرة دائماً في العناوين (وخاصة في ما يتعلق بالإسلام)، فيجري التحدث عن «جيوسياسية» الإسلام والتشيُّع، وأيضاً عن الأرثوذكسية

= يوميات من رومانيا Claude Karnoouh, *l'Invention du peuple: Chronique de Roumanie*، منشورات Ancantère، باريس ۱۹۹۰، وخاصة الفصل السابع: «ما هو المدخل إلى الحداثة؟»؛ ويمكن قراءة للكاتب نفسه كتاب: **ما بعد الشيوعية في نهاية القرن: البحث في أوروبا القرن الواحد والعشرين** *Post Communisme Fin de Siècle: Essai sur l'Europe du xxie siècle*، منشورات l'Harmattan، باريس ۲۰۰۰، حيث يُجري الكاتب تحليلاً نقدياً للتطورات التي شهدتها أوروبا الشرقية بعد انهيار الشيوعية، ومن ضمنها التطورات في ميدان القومية وتعددية الثقافات. وقد عالجتُ تشكّل النزاعات القومية في البلقان والشرق الأدنى في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في كتابي: **أوروبا والشرق**، المصدر السابق ذكره.

١٤. إيلين كارير دانكوس: **الامبراطورية المتشظية** Hélène Carrène D'Encausse, *L'Empire éclaté*، منشورات Flammarian، باريس ۱۹۷۸.

(اليونانية والروسية والعربية)، كما لو أن الدين هو الذي يقوم بصناعة النظام الدولي.[١٥]

تتضاعف منذ مطلع الثمانينيات، الأعمال التي تتناول الإسلام والمسلمين في فرنسا. وقد تركت أصداءها الإيجابية في وسائل الإعلام ظناً من هذه الأخيرة أنها ستجد فيها تفسيراً مناسباً للأزمات الجيوسياسية التي تعصف بالبلدان العربية المتوسطية وتطبع الجاليات المغربية المهاجرة بطابعها. وبُذل اهتمام خاص بالحركات الأصولية المسلمة، لكنها لم تحلل، كما كان الأمر عند دراسة الحركات الفوضوية anarchistes الروسية مثلاً في القرن التاسع عشر، أو مع التنظيمات اليسارية المتطرفة، سواءً الفرنسية («العمل المباشر») أو الإيطالية («الألوية الحمراء») أو الألمانية («بادر ماينهوف») أو اليابانية («الجيش الأحمر»)، بل غالباً ما سادت في تحليل الحركات الإسلاموية النظرةُ الجوهرانية القائلة بوجود ذهنية مُسلمة ثابتة لا تتغير، معتمدة النصوص العقائدية الهزيلة بهذه الحركات بشكل حصريّ، وتقديمها بشكل زائف على أنها تمثل جوهر الدين الإسلامي.

في هذا السياق، أتت السجالات التي جرت حول ارتداء الفتيات المسلمات الحجاب في المدارس الرسمية الفرنسية العلمانية الانتماء لتبرّر قلق الفرنسيين بشأن التمايز المتزايد في مجتمعهم. وقد حاول مجلس الشورى الفرنسي إيجاد تسوية بين مبادئ المدرسة العلمانية والمطالب المتعلقة بالتعبير الجديد عن الانتماء والهوية اللذين يظن البعض أن تطور حقوق الإنسان يحمل على الاعتراف بهما. وقد استعادت ضمن هذه الظروف نفسها،

١٥. بالإمكان الرجوع، مثلاً، إلى أعمال الكاتب فرنسوا تويال: **جيوسياسية الوجود الشيعي** François Thual, *Géopolitique du chisme* منشورات Arléa، باريس ١٩٩٥؛ و**جيوسياسية الأرثوذكسية** *Géopolitique de l'orthodoxie*، منشورات Dunod، باريس ١٩٩٤.

المدارسُ الخاصة، وهي تنتمي غالباً إلى مؤسسات دينية، حيويتَها، وعادت الخلافات المدرسية إلى سابق عهدها: هل يجب أن تستسلم المدرسة العلمانية الرسمية لموضة التعبير عن الهوية؟ هل تستطيع الفتيات المسلمات أن يرتدين زياً يرمز إلى خصوصيتهن وأصلهن المناطقي، (زياً إثنياً أي لباساً وطنياً، أو دينياً أي حجاباً على الشعر)؟ هل يحق للشبان اليهود عدم المشاركة في الامتحانات التي تجرى أيام السبت؟ هل يمكنهم المجيء إلى المدرسة مرتدين «الكيبا» وهي رمز هويتهم الدينية؟

أُطلقت، في الفترة نفسها، الحريات الإعلامية، وسُمح ببث إذاعات دينية وإثنية، حيث تقوم «إذاعة الشرق» التي أسسها رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري بنقل خطبة الجمعة من مكة. ولا ترى فرنسا، في إطار جهودها الرامية إلى إدماج الإسلام في مجتمعها، أي حرج في أن تُبَثّ في فرنسا العظات المتشددة والمناهضة للغرب، التي تدور على ألسنة خطباء مكة المنتمين إلى المذهب الوهّابي؛ وكل هذا بسبب الصداقات الجيوسياسية والارتباطات المالية التي تجمع بين السياسيين الشرقيين والغربيين.[١٦]

كذلك، لعبت فرنسا دوراً رئيسياً في انتقال الحكم إلى سلطة رجال الدين في إيران عام ١٩٧٩. استقبلت الإمام الخميني على أرضها وسمحت له ـ وكان نظام الشاه لا يزال قائماً ومعترَفاً به من قبل مجموع الأمم ـ بأن يقود أعنف حملة سياسية انطلاقاً من بلدة نوفل لو شاتو Neauphle - le - château،

---

١٦. الحركة الوهابية، حركة إسلامية متشددة للغاية نشأت في شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن الثامن عشر، وتمَّ التصدي لها في عهد محمد علي باشا في مصر الذي أرسل جيوشه إلى نجد المدّ الوهابي في الجزيرة العربية وعلى أطرافها. وفي عام ١٩٢٥، إثر تولي عائلة سعود العرش، نُصِّب المؤيدون لهذه الحركة المتشددة حرّاساً على الدين في الحكم الملكي الجديد. وسمحت الثروة النفطية للمملكة للوهابية، وبشكل خاص مع التصاعد المفاجئ لأسعار النفط عام ١٩٧٣، بتصدير هذا النموذج الإسلامي الذي لم يكن معروفاً حتى تاريخه، تصديراً تكلّل بالنجاح.

حيث نُصبت في هذه القرية الهانئة خيمة للإمام والمرجعيات الدينية والمدنية المرافقة له، ودُعيت وسائل الإعلام في العالم أجمع لكي ثبت الخطب الداعية إلى الثورة الدينية.[١٧] وقد عضّت فرنسا، في ما بعد، أصابعها ندماً من ضعفها هذا، ودعمت العراق في حربه ضد إيران، مما عرّضها لانتقام رهيب في لبنان عبر خطف العديد من رعاياها ودبلوماسييها على أيدي جماعات موالية لإيران. وقد استهدفت إحدى العمليات الانتحارية الوحدة الفرنسية التابعة لقوة التدخل المتعددة الجنسيات. لقد ساهمت كل هذه التغيرات في الجيوسياسة الدولية التي دعمتها فرنسا بتهور، وما نتج عنها من أصداء سلبية هائلة في الإعلام، بالإضافة إلى صعود الأيديولوجيات المتمركزة حول الهوية والانتماء التي أفرزتها هذه التغيرات، في ازدياد صعوبة اندماج الجاليات المهاجرة في المجتمع الفرنسي. وقد أثارت مؤخراً الأحداث الدراماتيكية في فلسطين الخوف من حدوث مواجهات عنيفة في فرنسا بين المواطنين المنتمين إلى الجاليتين اليهودية والمُسلمة.

وترجع بنا الذاكرة أيضاً إلى الأحداث الدراماتيكية التي شهدها لبنان بين ١٩٧٥ و١٩٩٠، والتي قسمت الرأي العام الفرنسي والغربي وتجاذبت وسائل الإعلام. لقد توزّع الفرنسيون، بلا أي تردد في المواقف، إما مع «المسيحيين المحافظين في لبنان» وضد «الفلسطينيين المسلمين التقدميين»، أو العكس. واستعمل الرئيس الفرنسي آنذاك فرانسوا ميتران François Miterrand، وريث تقاليد اليسار العلمانية، القاموس المذهبي الأكثر فجاجة، حين دعا إلى التعامل مع «الواقع الشيعي» في لبنان بعد انقسام الجيش اللبناني عام ١٩٨٤ وانشقاق الجنود الشيعة والدروز عنه، مما أدّى إلى

١٧. نذكّر بأنه في تلك الفترة كان يجري طرد كل معارض جزائري ناشط في فرنسا أو يتم إسكاته من دون تحفظ. ونذكّر أيضاً بأن الولايات المتحدة راهنت على الحركة الدينية في مواجهة الملكية الإيرانية لكي تشكل سداً منيعاً في وجه الأحزاب العلمانية والراديكالية، ومن بينها الحزب الشيوعي الإيراني: «توده».

استلام ميليشيا «أمل» زمام الأمور في المنطقة الغربية من بيروت. كذلك، عجز البرلمان اللبناني عام ١٩٨٨ عن التفاهم على خَلَف لرئيس الجمهورية ونتج عن ذلك وجود حكومتين متعارضتين في لبنان، حيث تحدث رئيس الدولة الفرنسية عن: «حكومة للمسلمين» بإدارة سليم الحص، وحكومة الجنرال «المسيحي» ميشال عون التي جابهت عسكرياً الوجود السوري في لبنان.

برز أيضاً إبّان الصراع اليوغوسلافي، نزوعاً قوياً للتجييش الإعلامي، وانقسمت المواقف بين مؤيد للصرب ومعارض لهم. وأُلبس ميلوسيڤيتش، وهو ديكتاتور غير مُحبَّب بالتأكيد، كلَّ التهم الممكنة، وحُمِّل مسؤولية المجازر التي أعقبت الصراع اليوغوسلافي الذي أخذ أشكالاً عِرقية ودينية. لم تكن فرنسا وإنكلترا (اللتان ساهمتا في إنشاء المملكة اليوغوسلافية التي ضمّت الكروات والصرب والسلوڤيين عام ١٩١٨) متحمستين، البتة، لتقسيم يوغوسلافيا. لكن الحال اختلفت تماماً لدى ألمانيا والفاتيكان. وتعاملت وسائل الإعلام الكبرى مع الموقف بتبسيط كبير ومغالاة غير مبرَّرة، ومن دون مهنية إعلامية، لتبرير تفكك الاتحاد اليوغوسلافي، حيث اتُّهمت النزعات المناطقية، سواءً العرقية أم المذهبية، في الوقوف وراء تفكك الفيدرالية اليوغوسلافية، بينما كانت المسألة أكثر تعقيداً بكثير.

وتذكّر السياسة التي اعتمدتها دول «الحلف الأطلسي» في كوسوفو، إلى حدّ ما، بالسياسة الأميركية اللامنطقية والمتناقضة حيال الأكراد والشيعة في العراق. لقد دُعي هؤلاء إلى التمرُّد على صدّام حسين خلال حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، ثم تُركوا لمصيرهم البائس وللتهجير. كذلك، أدّت الحماية المعطاة للألبانيين في هذه المقاطعة (كوسوفو) إلى هجرة كثيفة للسكان مما أخلَّ باستقرار مقدونيا المستقلة حديثاً، والتي يتحدَّر ثلث السكان فيها من أصل ألباني.

وكما في كل مرة، لا تقيم التحليلات اعتباراً للعوامل الزمنية الداخلة في

الصراع، ولا للعبة النخب المحلية أو جماعات المافيا والمخدرات والجرائم المنظمة؛ بل يختصر التحليل بشكل حصري على عوامل عرقية ودينية مزعومة. أما الذين يحاولون عبر وسائل الإعلام إبداء وجهة نظر مختلفة قليلاً أو أكثر توازناً عن وجهات النظر السائدة، فهُم غالباً عرضة لحملات من النقد اللاذع.[18]

إعطاء العامل الديني الوزنَ الأكبر

أثبت عدد من المحللين الذين اتّسمت أعمالهم بالجِدية ورصانة التحليل، أن الصور التي تُرسَم للجماعات العرقية والدينية هي نتاج بنية نابعة من التخيل وليس من الواقع.[19] وأصدر العالم السياسي الفرنسي جان ـ فرانسوا بايار Jean-François Bayart العام ١٩٩٦، كتاباً رفيع المستوى يفضح فيه «أوهام الهوية»، وينتقد من دون تحفظ هذا الازدهار للتخيلات الانتمائية الدينية والعرقية، وأيضاً الاعتقادات القائلة بالجوهر الثابت للثقافات الذي يُفترض أن يحتضن في طياته ما يسمى «روح كل شعب».[20] وفي عام ٢٠٠١، هاجم الكاتب الأميركي ستيوارت ج. كوفمان Stuart J. Kaufman

١٨. راجع بهذا الصدد: **الإيمان بالحرب: نموذج كسوفو وتأثيره** *Croyance en Guerre: l'Effet Kosovo*, Les Cahiers de la médiologie no.2، العدد ٨، منشورات Gallimard، باريس ١٩٩٩.

١٩. بنيديكت أندرسون، **المتخيل القومي: تأملات في أصل القومية وانطلاقتها** Benedict Anderson, *L'Imaginaire national: Réflexions sur l'origine et l'essor du nationalisme*، منشورات La Découverte، باريس ١٩٩٦؛ نذكر من جهة أخرى كتاب: إريك هوسباوم، **الأمم والقوميات منذ ١٧٨٠: البرنامج، الأسطورة، الواقع**، Eric Hosbawm, *Nations and Nationalisme since 1780: Programme, Myth, Reality*، منشورات Cambridge، ١٩٩٠، وفيه يُظهر الكاتب أن الأفكار والمشاعر القومية هي نتاج ثقافي وسياسي أوروبي لم يُبصر النور إلا في مرحلة متأخرة من تاريخها.

٢٠. جان فرنسوا بايار، **وهم الهوية** Jean-François Bayard, *L'illusion identitaire*، منشورات Fayard، باريس ١٩٩٠.

التحليلات التي قدّمت الحروب البلقانية بصفتها «حروباً عرقية»، موضحاً الأسباب العديدة والمعقدة التي أدّت إلى المواجهات الدامية بين الأطراف المتصارعة، حيث لا يلعب الوعي العرقي أو الديني إلا دوراً ثانوياً، ولا يحرّك الأحداث، بل تحرّكها مصالح مختلفة وخاصة.[21]

لم تنجح الإضافات الموضوعية والجوهرية التي قدمها علم التحليل النفسي والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا للفكر النقدي في مجال دراسة الظاهرة الدينية والعرقية، في فرض مناخ علمي موضوعي يقلّل من شأن المد الجارف للخطاب النرجسي للهوية الذي يُتداوَل في الغرب كما في خارجه.[22] وقد جرى تقليد هذا الخطاب النرجسي المتمحور حول هويات متخيَّلة، جوهرية وثابتة الطابع، وجرى كذلك تقليد أساليب الترويج الأكاديمية والإعلامية الغربيتين، في كل مكان تماماً كما يحصل بالنسبة إلى العادات الغربية الأخرى المتقلبة. فقد انتقلت، على سبيل المثال، الأهواء الثقافية الغربية إلى العالم الثالث، بدءاً من اعتماد النظريات القومية ذات الطابع العلماني على الطريقة الفرنسية أو الألمانية التي انتشرت إبّان زوال الاستعمار، مروراً بالتحليلات الماركسية عن الجماهير والبورجوازيات الطفيلية، وصولاً إلى تأريخ الاستشهاد ذي النمط الديني و/أو العرقي أو المذهبي (والتي أصبحت ثقافة الهولوكست النموذج المركزي لها بشكل واعٍ

---

٢١. ستيوارت. ج. كوفمان، **الضغائن الجديدة: الرموز السياسية للحروب العرقية** Stuart, J. Kaufman, *Modern Hatreds: The Symbolic Politics of Ethnic War*, منشورات Cornell University Press, Ihaca, 2001.

٢٢. على سبيل المثال الدراسة التي قام بها رينيه جيرار: **العنف والمقدس**: René Gérard, *La Violence et Le Sacré*، منشورات Grasset، باريس ١٩٧٢؛ و **كبش المحرقة** *Le Bouc émissaire*، منشورات Grasset، باريس ١٩٨٢؛ وأيضاً أعمال ريجيس دوبريه وسيرج موسكوفيتشي وبيار لوجاندر المذكورة آنفاً.

أو لاواع)، وانتهاءً اليوم بالأيديولوجيا المعتمدة الحرب الشاملة بين الحضارات التي تحتل فيها عقيدة العولمة الاقتصادية مكاناً مرموقاً.

إن ما حدث في الحادي عشر من أيلول عاد ليبلور بشكل حتميّ تجدُّد الأطماع الجيوسياسية والتحليلات ذات النسق الواحد في وسائل الإعلام الأوروبية والأميركية الكبرى. وقد حقق القرآن، من جراء هذا الحدث، بالإضافة إلى الدراسات عن الإسلام، نجاحاً ساحقاً في المبيعات في الدول الغربية، وكأن الدين الإسلامي والنص القرآني يمكن أن يفسّرا هذه الأحداث المعقدة التي أصبحت تهزّ الشرق منذ الحرب التي تم خوضها في أفغانستان ضد الاتحاد السوفياتي الغازي، وكانت ثمرتها منظمة «القاعدة» التي أنشأها أسامة بن لادن بمساعدة الولايات المتحدة.

لكي نفهم هذا «الولع» الجديد بالقرآن، لا ننسى الإشارة إلى الضجة التي أحدثها في الثمانينيات الكتاب الهزيل الذي ألّفه أحد المثقفين الأميركيين، وهو صاموئيل هانتنغتون Samuel Huntington، المقرَّب من أوساط الحكم في الولايات المتحدة، وتنبأ فيه بـ«صراع الحضارات».[٢٣] يصف هذا الكتاب، بطريقة سطحية، سيناريو خيالياً لا يمت إلى الواقع بصلة عن مواجهة دينية بين الإسلام (الذي يصوّره متحالفاً مع البوذية) والغرب المسيحي. لا يسعنا أن نفهم النجاح الذي حصده هذا الكتاب المعبِّر عن فوضى فكرية عارمة، وتشيع فيه ضحالة في التحليل قلَّ نظيرها، إلا إذا أدركنا أنه يستغل، إلى أقصى الحدود، وجود الشرخ المتخيَّل بين الشرق والغرب، الذي هو صنيع الظروف الجيوسياسية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. يلغي الكتاب كل ما له علاقة بالقوى الزمنية لصالح تخيل أن هناك جوهراً

---

٢٣. صاموئيل هانتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي **Samuel Huntington,** ***The Clash of Civilization and the Remaking of World***، منشورات **Simon and Shuster**، نيويورك ١٩٩٦.

ثابتاً لهويات الشعوب التي يشكل الدين ركيزتها، والتي يسميها الكاتب، ظلماً، «الحضارة». لكن منذ صدور هذا الكتاب، أصبح العالم أسير إشكاليته الهزيلة التي يستنتج منها أنه لا بد من العمل بتسامح من أجل قبول اختلاف القيم، وذلك بحجة عدم توسيع الهوّة بين الحضارات، وكأن النزاعات في العالم ليست نتاج تنافس المصالح والأطماع، بل نتاج الاختلاف في الأديان والحضارات الثابتة الهوية.

ويمكن أن نتساءل هنا عما إذا كانت إعادة الاعتبار القوية لدور الدين في الأبحاث والتحليلات، انتصاراً للثقافة الأنغلوساكسونية المطبوعة بالبروتستانتية وتمسُّكها بالنماذج التوراتية الأساسية، أم أنها ليست إلا نتيجة رسوخ سوسيولوجيا ڤيبر حول أهمية الأديان في الأذهان، أم مزيجاً من الاثنين معاً؟ إن العلمانية في البلدان البروتستانتية نسبية، ولا تقوم على الفصل بين الدنيوي الاجتماعي والديني الذي طوّرته البلدان الكاثوليكية؛ بل أعطت الحريةَ في إنشاء الكنائس ودُور العبادة التي طالبت بها البروتستانتية في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية الأحادية النمط وتزمتها الدينيّ. أضف على ذلك أن الأميركيين، كما ذكرنا، يحبّذون دوماً إدخال الدين ضمن رؤية العالم وتنظيم الحياة الاجتماعية، لا بل أكثر من ذلك، يستطيع سكان الولايات المتحدة تأكيد أصولهم العرقية أو تميزهم الديني من دون أن يكون ذلك مزعجاً أو مُحرجاً لإدارتهم في واشنطن (على خلاف الحال في أوروبا).

ليست العلمانية في الولايات المتحدة قيمة سياسية أساساً، بل تقوم فقط على حرية الممارسة الدينية، وليس على فصل الأمور الدينية عن الأمور الزمنية. وهذا ما تؤكده وثيقة إعلان المبادئ التي وضعها في مطلع العام ٢٠٠٢ جماعة «نافذة» من المثقفين الأميركيين، يبررون فيها الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على أفغانستان بعد اعتداء الحادي عشر من

أيلول.[٢٤] تعرض هذه الوثيقة المُطنبة، النظام الأميركي للقيم الأخلاقية، وتتناول المسألة الدينية ودورها الفاعل في المجتمع. وجاء فيها:

> يعترف كل الموقّعين على هذه الرسالة، بأن الإيمان والمؤسسات الدينية في هذه البلاد وفي كل مكان من العالم ركائز مهمة يُبنى عليها المجتمع المدني، وقد كان لها أثر إيجابي لإراحة الناس والمجتمع برغم أنها أصبحت أحياناً عوامل تجزئة وفتنة.

يصف الموقّعون، باختصار، ثلاثة أنظمة أساسية لمواجهة هذه المسائل الإنسانية المحورية وهم يرفضونها: إقصاء الدين من المجتمع وقمعه؛ الأيديولوجيا العلمانية؛ الحكم الثيوقراطي.[٢٥]

ويقول النص بوضوح:

> نعلن معارضتنا لكلٍّ من هذه الأنظمة الثلاثة التي يمكن أن تشكل حلاً لمشاكلنا. نعلن رفضنا للأيديولوجيا العلمانية برغم التأييد المتزايد الذي تحظى به في أوساط الشباب في مجتمعنا، والسبب أنها تتعارض مع شرعية فئة مهمة من المجتمع المدني، وتنفي ما يمكن اعتباره بُعداً مهماً للشخصية الإنسانية.

ثم يمتدح الموقّعون الحلّ الأميركي ومكانة الدين في المجتمع الأميركي قائلين:

> يبذل المجتمع الأميركي قصارى جهده لكي تسير الحرية والإيمان

---

٢٤. الموقعون هم: فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama، صاموئيل هانتنغتون Samuel Huntington، دانيال باتريك موينيهان Daniel Patric Moynihan، داڤيد بلاكنهورن David Blakenhorn، مايكل والزر Mickael Walzer، روبرت بوتمان Robert Putman، مايكل نوڤاك Mickael Novak، وأميتاي إتزيوني Amitaï Etzioni: «رسالة من أميركا، مبرّرات الحرب» 'Lettre d'Amérique, Les Raisons d'un Combat'، وقد نشرت هذه الرسالة في جريدة الموند *Le Monde*، ١٥ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

٢٥. الحكم الثيوقراطي: حكم إلهي يشرف عليه رجال الدين.

جنباً إلى جنب، ولكي يُعلي كل منهما من شأن الآخر. نظامنا علماني ـ رؤساؤنا ليسوا رجال دين ـ لكن مجتمعنا هو الأكثر تديناً في العالم الغربي.

التباين الذي تضيفه أوروبا إلى الخطاب النرجسي والخطاب في شأن الهوية

شكلت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر حافزاً للخطاب الغربي لكي يُعبِّر عن نفسه، وكانت الخطب الأكثر حدّة من الولايات المتحدة. لا ننسى أن نيويورك وواشنطن كانتا هدف الاعتداء، وأن فكرة «صراع الحضارات» شهدت النجاح الأكبر في الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الباردة. لكنَّ هذه الفكرة حوربت في أوروبا لأنها لا تتناسب والجهود التي يبذلها الاتحاد الأوروبي للتأقلم مع تعددية مجتمعاته العرقية والدينية، كما تثير المخاوف لأنها تُخلّ باستقرار الجاليات المهاجرة، ولا سيّما أن الإسلام هو الدين الثاني في أوروبا، لا بل تثير مشاكل أكثر تعقيداً من تلك التي يسببها، منذ نهاية العقود الثلاثة المجيدة، تزايدُ ظاهرة التهميش والفقر في المجتمعات الأوروبية.[٢٦]

يتمثل الفارق أو التباين الذي تضيفه أوروبا إلى الخطاب عن «صراع الحضارات»، في هذا الوعي للانحطاط الذي يصيب مفهوم الدولة والأمة كمجتمع مترابط من المواطنين المتساوين في الحقوق والواجبات. وقد حلّل دومينيك شنابر Dominique Shnapper هذا الانحطاط تحليلاً دقيقاً على أمل

---

٢٦. sur l'idée moderne de nations أي العقود الممتدة من الخمسينيات إلى الثمانينيات حيث كانت معدلات النمو عالية جداً في المجتمعات الغربية، أي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الصدمة الناتجة عن ارتفاع أسعار النفط.

إعادة العافيةَ إلى مفهوم المواطنية.[٢٧] كما نجد نقداً متشائماً عند جان ـ ماري غيوينو Jean-Marie Guéhenno الذي يتنبأ بنهاية الديموقراطية و«لبننة العالم».[٢٨] ويبدو أن صورة الآخر في «الشرق» (والنموذج هنا لبنان) تشكل على الدوام النموذج السلبي الذي يجب تجنّبه.

تسعى أوروبا إلى إيجاد حلّ عقلاني لمسألة تجدد الظواهر المتعلقة بالهوية، والتي لا يمكن إلا أن تؤثر حتماً في الجاليات المهاجرة. الواقع، أن تزايد وفود المهاجرين من اللاجئين السياسيين والفقراء الذين نزحوا منذ ثلاثين عاماً من مختلف المناطق الفقيرة في العالم باتجاه المناطق الغنية، قد سبَّب تضخماً في الجاليات الأجنبية، العرقية والدينية، التي بدأت تظهر خلال العهد الاستعماري في العواصم الأوروبية الكبرى. وقد طرحت هذه التعددية العرقية والدينية تحدياً جدياً على الديموقراطية الأوروبية التي عاش مواطنوها حتى الآن في تجانس نسبي. ويُظهر مارسيل غوشيه، المنظّر الجديد لرشدانية الغرب الحديثة، كيف أن الديموقراطيات الأوروبية القديمة التي يتمسك أصحابها بالتقاليد اليعقوبية[٢٩] الثابتة، تُجهد نفسها لتتلاءم، باسم تنمية المبادئ الديموقراطية، مع المطالب الرائجة بشأن الهوية.[٣٠]

---

٢٧. دومينيك شنابر، مجتمع المواطنين: المفهوم المعاصر للأمة Dominique Schnapper, *La Communauté des citoyens: Sur l'idée moderne de nations*، منشورات Gallimard، باريس ١٩٩٣.

٢٨. جان ـ ماري غيوينو: نهاية الديموقراطية Jean-Marie Guéhenno, *La Fin de la démocratie*، منشورات Flammarion، باريس ١٩٣٣.

٢٩. اليعقوبية بمعنى Jocobin أي المتحزّبة بتشدد للديموقراطية ومركزية الدولة، نسبة إلى اليعقوبيين، وهم أعضاء في نادٍ جمهوري في أيام الثورة الفرنسية كان يعقد جلساته في دير الرهبان اليعقوبيين.

٣٠. مارسيل غوشيه، الدين في الديموقراطية Marcel Gauchet, *La Religion dans la démocratie*، منشورات Gallimard Col. 'Folio/Essais'، باريس ١٩٨٨، ص١٢١ـ١٤٠.

أكثر من ذلك، تحاول أوروبا أن تخلق منطقة تبادل حر مع بلدان المتوسط اللاأوروبية. ليس هذا المشروع اقتصادياً فحسب، ولا يهدف إلى توسيع السوق الأوروبية وتعزيز الموقف الأوروبي في المنافسة الدولية فقط، بل يرتدي بعداً سياسياً واضحاً يتمثّل في تخطي الشرخ بين الغرب والشرق (ومحوره المركزي في المتخيَّل التاريخي الغربي هو حوض المتوسط، ونواته الصلبة رفض «الشرقيين» وجودَ دولة إسرائيل التي يُنظر إليها كعنصر طفيلي زرعته أوروبا على الضفة الأخرى من المتوسط). كان إعلان «مؤتمر برشلونة» عام ١٩٩٥ الذي سعى إلى إنشاء آلية تعاون واستقرار تشمل إسرائيل والبلدان العربية وتركيا، بمثابة استكمال للجهود الأميركية الرامية إلى إدارة النزاع الإسرائيلي ـ العربي من خلال سلاح التعاون الاقتصادي، إلا أن هذه الجهود، بعد زوال النشوة التي أثارها مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ واتفاق أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين عام ١٩٩٣، لم تُسفر عن نتيجة تُذكَر.

رأى الاتحاد الأوروبي في لحظة فتح الباب أمام تركيا للانضمام إليه. وكان يُفترض بتركيا، بعد تحقيق الوحدة الجمركية معها، أن تصبح بلداً ذا عضوية كاملة في الاتحاد الأوروبي، لكنه يؤجّل باستمرار هذا الاستحقاق متذرعاً بعدم احترام تركيا حقوقَ الإنسان، خاصة في ما يتعلق بالمسألة الكردية، وهي مسألة بالغة التعقيد (يدفعنا هذا السبب، برغم أنه مبرَّر فعلاً، إلى التساؤل عمّا إذا كان مستخدَماً كذريعة، نظراً إلى الاستخفاف الذي أظهرته لجنة بروكسيل بالشروط الموجبة لاحترام حقوق الإنسان الواردة في «اتفاقيات الجمعية» التي وقّعها الاتحاد الأوروبي مع تونس عام ١٩٩٥، ومع الجزائر عام ٢٠٠١). إن سبب رفض قبول تركيا في «نادي» الاتحاد الأوروبي، يكمن في تركيبة المجتمع والثقافة الأوروبيين، إذ سوف يمنح ضمّ ستين مليون مسلم، حتى لو كانوا علمانيين كما هي الحال بالنسبة إلى تركيا، التعدديةَ الأوروبية الثقافية اتساعاً وتنوُّعاً لا تبدو مجتمعات الدول الأعضاء على استعداد لتقبلهما، حتى ولو لم تعد للأتراك، منذ الإنجازات

الإصلاحية التي حقّقها مصطفى كمال وعلمنة تركيا، تلك الصورةُ السلبية التي سادت طوال قرون ثمَّ انتقلت اليوم إلى العرب. فلا زالت أوروبا تنظر إلى الإسلام كـ«طارئ» على مجتمعها، حتى ولو أنه يُعتبَر الدين الثاني في أوروبا التي تدّعي «العلمانية».

هكذا، تحاول أوروبا أن تُخمد غيظ الأميركيين في حربهم الشاملة المعلَنة ضد الإرهاب، لكن يصعب عليها الانفصال عن الولايات المتحدة. لأسباب عديدة، أولها يعود إلى علاقات تاريخية بديهية ووثيقة بينهما: الحضارة الأميركية نتاج خالص للثقافة الأوروبية. ثم إن الولايات المتحدة هبَّت لنجدة أوروبا الخاسرة عسكرياً إبّان الحربين العالميتين الكبريين في القرن الماضي، وساعدتها أيضاً في التصدي للشيوعية السوفياتية. من هنا، لا يمكن في أي حال من الأحوال تصوّر «تمرّد» حقيقي أوروبي على واشنطن، ولا سيّما أن المملكة المتحدة تحرص على إقامة علاقات وثيقة جداً بين الولايات المتحدة وأوروبا، وتبدو أحياناً بمثابة الولاية الثانية والخمسين لاتحاد الولايات الأميركية.

ثمة سبب آخر يمنعَ تباعد أوروبا عن الولايات المتحدة، هو تمسكها بدولة إسرائيل: إسرائيل متحدِّرة مباشرة، في أساساتها التاريخية، من تاريخ أوروبا وثقافتها. فلولا الاضطهادات المُمارَسة ضد اليهود والتي تتحمل أوروبا مسؤوليتها، ولولا شكل التعصّب الديني الذي اتخذته النزعات القومية الكبرى في أوروبا وانطبع بها الآباء المؤسِّسون لإسرائيل، وخصوصاً أنهم كانوا جميعاً أوروبيين وعلمانيين وعصريين، لَما استطاعت هذه الدولة أن تبصر النور. وبعد ذلك، وبفضل اتساع نفوذ ثقافة الهولوكست التي عملت الولايات المتحدة على ترسيخها وتعميمها، استطاعت إسرائيل أن تصبح لاحقاً محوراً فولاذياً لحيّز الوجود الغربي ذي الطابع القدسي. وإسرائيل في الحقيقة تجسّد فعلياً هذه العلمنة المخادعة التي يتأبّد المقدَّس فيها ويجدِّد قواه باستمرار، محتمية بالمظاهر المؤسساتية للعلمانية والديموقراطية. وسوف

نقدّم تحليلاً مفصَّلاً عن هذه العلمنة المخادعة في الفصل اللاحق. لقد أصبحت إسرائيل جزءاً من صميم الخطاب الغربي النرجسي المعاصر، وتجد أوروبا صعوبة في التحرّر منه، مع أننا لاحظنا، إثر تجدد الانتفاضة الفلسطينية ضد إسرائيل خلال العامين ٢٠٠١ و٢٠٠٢، تعاطفاً أوروبياً مع القضية الفلسطينية أكبر من تعاطف الولايات المتحدة، التي لم يتردد رئيسها جورج دبليو بوش عن وصف رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون بـ«رجل السلام»!

مصلحة الدول العليا والأخلاق الدولية

تعهّد الغرب بالدفاع عن قضايا تُعتبر على سبيل الانتهازية الجيوسياسية، «إسلاميةً» (حرب أفغانستان لتحرير مسلمي هذه البلاد من الاضطهاد السوفياتي، وحماية مسلمي البوسنة وكوسوفو من الصرب، وتحرير الكويت من الاحتلال العراقي). أعطت هذه القضايا ذات الفحوى الإسلامية، ولو لفترة قصيرة، الانطباع بأن القضية الفلسطينية كانت ثانوية في الحرب الوهمية الدائرة في التخيُّلات بين الشرق والغرب. ثمَّ جاء انقلاب الأوضاع إثر أحداث الحادي عشر من أيلول ليضع الإسلام وفلسطين، في آن، في الخطوط الأمامية لهذا الشرخ المأساوي.

يتعاظم الخطر، إذاً، ويزداد الشعور بعمق هذا الشرخ، ولا سيّما أن قِيم العدالة والإنصاف التي يدّعي الغرب تبنّيها تسقط كلَّما تعلق الأمر بدولة إسرائيل، وتفقد العلمانية أية مصداقية في الخطاب الغربي، مع العلم بأن هذه العلمانية لا بد منها للحفاظ على النظام الدولي. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ النظر إلى حركات مقاومة الاحتلال الإسرائيلي التي ترفع الراية الإسلامية، ويمكن أنها من نوع الحركات الإسلامية نفسها التي كانت بمثابة «الفرقة الانكشارية»[٣١]

٣١. الفرقة الانكشارية: فرقة من المشاة في الجيش العثماني عُرف أعضاؤها بقوتهم وبأسهم، =

التي استغلها الغرب في الحرب الباردة، ثم انقلبت ضده بعمليات إرهابية عدة، يُقفل الباب على تراجع الشعور بحرب الأديان والحضارات، فيعمّ شعور جازم في الشرق، كما في الغرب، بأن الحرب القائمة منذ الحادي عشر من أيلول هي حقاً تجميد واقعي وليس خيالياً لـ«صراع الحضارات». ويرفض الغرب، أيضاً، الاعتراف بالتناقضات الفكرية والثقافية التي يقع فيها خطابه النرجسي، ويتوسل إثارة المشاعر الدينية وتكريس نماذج التوحيد التوراتي الأولية، وإن كان يؤدي ذلك إلى إلغاء الدور المعطى للعامل السياسي الموضوعي، الذي لا يمكن لأي نظام قومي أو دولي أن ينهض على قدميه إلاّ من خلاله.

أنشأ الغرب محاكم قضائية دولية خاصة من أجل يوغوسلافيا سابقاً ورواندا، وهذا الأمر مدعاة إلى السرور والابتهاج، لكن ما يثير التساؤل هو رفض الولايات المتحدة التصديق على اتفاق الأمم المتحدة حول إنشاء محكمة جزائية دولية عام ١٩٩٨ تتمتع بصلاحية الحكم في جميع جرائم الحرب أو تلك المرتكَبة ضدّ الإنسانية. كما يدعو إلى التساؤل أيضاً عن امتناع الغرب عن مقاضاة مجرمي حرب آخرين غير مجرمي رواندا ويوغوسلافيا (حيث تُشن الحملات العنيفة على القادة الصرب أكثر من غيرهم). فهل ستقتصر المحاكمات على هؤلاء الديكتاتوريين الذين لم يخدموا المصالح الجيوسياسية للغرب، وشنوا معارضة علنية ضده؟ وهكذا، تبقى الضغوط الدولية مائعة، بل أخفقت مثلاً عندما تعلق الأمر بالملاحقة القضائية للخمير الحمر لارتكابهم مجزرة كمبوديا البشعة. كما استُبعدت كل الملاحقات القضائية بحق زعماء الميليشيات اللبنانية، وكلهم على علاقة وثيقة، بشكل أو بآخر، بإحدى الدول الغربية القوية، ومسؤولون عن اغتيال

= وكان لها الفضل الكبير في تثبيت دعائم السلطنة. والمعروف أن الفِرَق الإنكشارية كانت مكونة من شبان من غير المسلمين أصلاً كانوا يُخطفون في سن مبكر من أهاليهم النصارى في أقاليم البلقان. ولذا، أصبح استعمال الكلمة يشير إلى الذي لا ينتمي أصلاً إلى البلد المحارب.

أكثر من مئة وخمسين ألف لبناني،[٣٢] أو بحق أرييل شارون الذي اجتاح نصف لبنان وحاصر بيروت خلال صيف ١٩٨٢ متسبباً، ليس فقط بمقتل ألفي فلسطيني في مجزرتي صبرا وشاتيلا،[٣٣] بل أيضاً بمقتل اثنين وعشرين ألف شخص في غزوه لبنان. وكذلك، أُهملت الدعاوى التي أقيمت ضد الديكتاتوريين السفّاحين في أفريقيا وأميركا اللاتينية (ومن ضمنهم الجنرال أوغوستو بينوشيه Augusto Pinochet، الذي لم يتم اعتقاله ولا سَجنه برغم كل جهود القضاة الإسبان وشجاعتهم).

كيف يمكن أيضاً السكوت عن الحظر المفروض على العراق الذي تسبب بوفاة عشرات الآلاف من الأطفال؟ وهل من المعقول ألا تمارس الأمم المتحدة بعد مرور ثلاث عشرة سنة على تحرير الكويت، الحد الأدنى من الضغوط على إسرائيل، أو تفرض عليها حظراً اقتصادياً ولو جزئياً، بينما لا تطبق إسرائيل واحداً من القرارات العديدة الصادرة عن الأمم المتحدة؟ إذا اعتمدنا هذا المقياس، فكيف يبقى في مقدورنا، إذاً، إدانة العمليات الانتحارية التي يقوم بها بعض الفلسطينيين، وهم يقاسون، منذ ما يقارب نصف قرن، عذابات التشتت، ويحتل أراضيهم أحد أقوى الجيوش في العالم؟ أليس دافعهم الحقيقي، حتى لو كان الإسلام شعارهم الأيديولوجي، تحريرَ أرضهم، الذي هو رهان دنيوي لا علاقة له بالدين؟ وينطبق هذا الأمر

---

٣٢. باستثناء «حزب الله» ذي العلاقة الوثيقة بإيران وسوريا، وقد أرادت الولايات المتحدة معاقبته وإلغاءه بسبب موقفه المعادي للغرب خلال اجتياح إسرائيل للبنان، وبسبب اختطافه رهائن أميركيين في بيروت ومقاومته الشرسة ضد إسرائيل.

٣٣. رفع ناجون من مجزرتي صبرا وشاتيلا إثر الشكوى التي قُدّمت إلى المحكمة البلجيكية بحق مسؤولين ومتورطين في مجزرة رواندا، شكوى مماثلة ضد رئيس الحكومة الإسرائيلية الجنرال أرييل شارون. الشكوى الأولى أفضت إلى نتيجة، أما الثانية المتعلقة بالجنرال الإسرائيلي الجلاّد، فيبدو أنها عُلّقت، والسبب أن الجنرال رئيس وزراء لا يزال في سدّة الحكم ويتمتع بحق الحصانة.

أيضاً على حال تنظيم «حزب الله» في جنوب لبنان الذي شنّ منذ عام ١٩٨٣ حرب عصابات شرسة ضد الاحتلال الإسرائيلي (الذي دام من عام ١٩٧٨ إلى عام ٢٠٠٠) خَلَفاً للحركات العلمانية والقومية بعد أن حجّمها الاجتياح الإسرائيلي.[٣٤]

فهل هؤلاء المناضلون الذين يعلنون انتماءهم إلى الله، أقل بطولة أو مقاومة من الشيوعيين الذين قاوموا الاحتلال الألماني في فرنسا؟ صحيح أن عقيدة «حزب الله» متفرّعة من الثورة الخمينية في إيران، لكن ألم يكن الشيوعيون الفرنسيون أيضاً تابعين للسوفيات ويحملون لواء الماركسية الأممية؟

إلى متى يتم تسخير المبادئ الخلقية الراقية لخدمة مصالح الغرب والدول العظمى الجيوسياسية؟ إذا كان الاستعمار قد استطاع تبرير ذلك قديماً من خلال مقولة الرسالة الحضارية للغرب تجاه الشعوب الأخرى، فهل نقبل اليوم بقانون دولي يخضع للأمزجة الجيوسياسية وأهوائها، أو للأحكام الدينية والعرقية والأنثروبولوجية المسبَقة؟

علينا ألا نمزج بين الأخلاق ومصلحة الدول العليا، كما يجب ألا نبرّر انحراف منطق الدولة،[٣٥] ونشرّع عبر نظريات أنثروبولوجية رخيصة الاعتقاد

---

٣٤. يجدر التذكير بالنضال النسائي ضد الاحتلال الإسرائيلي: في عام ١٩٨٥ فجّرت سناء محيدلي نفسها أمام دبابة إسرائيلية في جنوب لبنان، وهي شابة تنتمي إلى الطائفة المسيحية. كذلك، تجرأت شابة، مسيحية أيضاً، هي سهى بشارة، عام ١٩٩٠، على القيام بمحاولة اغتيال للجنرال لحد وهو زعيم الميليشيا الموالية لإسرائيل، التي ألقت الذعر في نفوس الجنوبيين طوال فترة الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. (راجع شهادة سهى بشارة في مؤلفها: **مقاومة** Souha Bichara, *Résistante*، منشورات J. C. Latès، باريس ٢٠٠٠؛ الترجمة العربية: سهى بشارة، **مقاومة**، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٠). كما استشهدت ثلاث شابات في فلسطين المحتلة خلال عمليات انتحارية قمن بها في الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٢.

٣٥. هذه العبارة مأخوذة من عنوان كتاب: **انحراف منطق الدولة**، لمؤلفه أوليفيه روسباك Olivier Russbach, *La Déraison d'État*، منشورات La Découverte، باريس ١٩٨٧.

الجاحد بالجوهر الثابت والأبدي للهويات الجماعية، الذي يُقحم الدين والقومية في تركيبة كل النزاعات تبريراً لكل الجرائم، كالإتجار بالمخدرات والأسلحة والتهريب، ويُعتبر مصدر إثراء للقادة الجدد، الذين يتزعَّمون التيارات العرقية أو الدينية التي تشرِّع أسباب النزاعات، وتؤدي بالتالي إلى استمرار العنف واستفحال المجازر.

تلك هي الهذيانات التي تهجس بموضوعة الهوية، وتنتهجها الثقافة الغربية الأكثر حداثة، من دون أن تملك ذرة من التماسك الفكري، مما يعزّز الاعتقاد أن هذا التماسك غير موجود أصلاً. فهل الثقافة الغربية فعلاً ثقافة رصينة وعقلانية؟ علينا أن نقبل، إذاً، بأن القوة والديناميكية لا تعنيان بالضرورة أن تتحكم عقولنا بتصرفاتنا. كان الرومان يتفحصون أحشاء دجاجة قبل أن يقرروا شن معركة، وكان الإغريق يستشيرون الكهنة ليستشرفوا نتائجها، وكان نابليون يؤمن بحظّه وقوة عبقريته أكثر مما يؤمن بالوقائع الميدانية، وقد سببت له هذه الوقائع الفشل الذريع في ساحات الوغى الروسية، لكنه كان أيضاً الباني العبقري للمؤسسات الحديثة. كما كان هتلر مجنوناً وأبله، لكنه نجح في اجتذاب قسم كبير من نُخَب ألمانيا وأوروبا وشعوبهما إلى صفّه. ولم يكن ستالين أفضل منه، لكن أحداً لم يكلِّف نفسه الإصغاء إلى مواطنيه الروس الذين كانوا كشفوا حقيقة نظامه منذ ثلاثينيات القرن الفائت في أوروبا.

لذا، إن أشكال العنف التي ننتقدها بشدة هنا، سببها دائماً مصالح جيوسياسية مقرونة بأهواء أنثروبولوجية مستندة إلى نماذج دينية أولية قديمة وأسطورية، نعالجها في الفصل اللاحق.

الفصل الخامس

العلمانية ولاهوت الخلاص و«الشعب المختار»

توغُّل النماذج الدينية الأولية في المُثُل العلمانية

هل خيَّبت العلمنة آمال العالم فعلاً؟ أيكون التخلي عن فكرة الله في حياتنا اليومية مسؤولاً عن عجز الحداثة وعدم قدرتها على تأمين السعادة المدنية التي يحلم بها الإنسان بمعزل عن الدين؟ وهل الحداثة مسؤولة عن الانحرافات المختلفة التي نعاني من ذيولها داخل العالم الغربي، وخارجه أيضاً؟ نحسب أننا تجاوزنا ما في الدين من جوانب مظلمة، وها هي عادت إلينا بأشكال غير متوقَّعة: في شكلها العلماني عبر الشيوعية، وفي شكلها الديني عبر الحركات الأصولية على اختلافها، وقد رأينا نموذجها الأصولي القاتم في اعتداء الحادي عشر من أيلول، وحركة الطالبان، وصعود اليمين البروتستانتي المتطرف في الولايات المتحدة.

ألم يقع الغرب في يوتوبيا كبيرة عندما آمن بإمكانية ممارسة السلطة من دون معونة الدين، وهل العقل قادر وحده على تأمين السعادة للبشر؟ أم يكون نابليون على حق حين اعتبر الدين ضرورياً لسياسة أمور الناس؟ ألم تقف المملكة العربية السعودية بوجه الأثر المدمِّر للحداثة فنصّبت نفسها الحارسة المؤتمَنة على الأمكنة المسلمة المقدسة، ممارِسةً التشدد في

الأخلاق الدينية، بينما فقدت إيران نظامها الملكي والمُتعصرِن.[1] أليست مفارقة أن تُعتبر إسرائيل دولة ديموقراطية قادرة على التوفيق بين الحداثة والتقليد الديني، بينما علة وجودها هي انتماؤها الديني اليهودي، مع العلم بأن مؤسسي هذا الكيان كانوا من اليهود العلمانيين المتأثرين بثقافة عصر الأنوار وبنموذج الدولة القومية الحديثة المبنية على فكرة المواطنة وليس على فكرة الدين؟ إن مراحل التطور التي مرّت عبرها الديموقراطية وتجلّت في العلمانية على الطريقة الفرنسية، أو الدنيوية[2] على الطريقة الأنغلوساكسونية، وقيام المجتمع المدني الذي يرعى شؤون المواطنين الخاصة ويكرّس حقوق الإنسان والمرأة والمعاقين والعاطلين عن العمل والأقليات القومية أو الدينية... إلخ، فهل حالَتْ هذه الإنجازات مجتمعة دون هذا الشعور بالخيبة والفراغ في الغرب نفسه، ودون هذا الحنين إلى التصوف والروحانية في الحياة اليومية؟ هل حالت دون انبعاث العصبيات داخل الغرب حيث يستمر جنون النازية في الظهور عبر أحزاب عنصرية دموية، وخارج الغرب أيضاً حيث تسبّبت التظاهرات العنيفة لتأكيد الهوية، بكافة أشكالها العرقية أو الإثنية أو القبلية، بالمجازر وجرائم الإبادة؟ ثمَّ، أليس الحادي عشر من أيلول فصلاً من فصول تجدد النزعات اللاعقلانية والظلامية في العالم؟

تستوقفنا هذه الأسئلة في مطلع القرن الحادي والعشرين من دون أن نملك يقيناً يبدِّد شكّنا، اللهم إلا الانكباب أكثر على تحليل معنى العلمانية وأسسها، حتى لو كنا نشك اليوم بقدرتها على أن تكون نظاماً قابلاً للحياة أو للتعميم في أنحاء العالم، أو جديراً بتأمين عالم أفضل. لقد لعبت الكنيسة

١. المتعصرن: من يحاول التكيف مع أساليب العصر.

٢. الدنيوية: بمعنى secularisme، وهي مفهوم للعلمنة من منظار (بروتستانتي، أي القبول بتعدد الكنائس المسيحية والحرية الدينية، وليس بمعنى فصل الدين عن الدولة بالشكل الصارم الذي تمّ في البلدان الكاثوليكية.

الكاثوليكية، لوقت طويل، دوراً في لجم التطور العلمي، ووقفت ضد الحداثة وتحرُّر المرأة، وسعت إلى عرقلة كل المناحي الإيجابية للديموقراطية. وقد استعرت لهذا السبب بالذات، معركة شرسة بين الكنيسة من جهة، والداعين إلى تحديث المجتمع من جهة أخرى، وكانت هذه الحرب جزءاً لا يتجزأ من الكيمياء الغامضة التي صنعت النهضة الأوروبية.

هيَّأت البروتستانتية الهجوم بمعارضتها النظام الملكي الاستبدادي وفساد السُّلطة البابوية. وقد حاولت البروتستانتية أن تخوض حركة إصلاحية من داخل الكنيسة نفسها، تنطلق منها إلى إرساء مفهوم الإصلاح داخل المجتمع كلِّه، ولذلك حصرت دعوتها بضرورة العودة إلى المنابع الدينية التي يجسِّدها العهد القديم من دون أن تغامر بالدعوة إلى تخطي الإيمان الدينيّ أو تهميشه في النظام الاجتماعي. ودافعت عن الحرية من داخل المسيحية نفسها، لا عن تخطيها عبر مُثُل علمانية أو مذهب ألوهي غامض،[٣] كما فعل فلاسفة الأنوار. لم يكن لوثر، على سبيل المثال، أقلَّ عداءً لليهودية من الآخرين، وكان كلفين صارماً واستبدادياً في إدارته لمدينة جنيف. كان استمرار اليهودية بعد مجيء المخلّص، بالنسبة إلى لوثر، أمراً غير مقبول، إذ لا يمكن رفض النور الإلهي الذي تجلّى بمجيء المسيح المخلّص. وقد استجابت في ما بعد، البروتستانتية للفكر العقلاني الذي دعت إليه فلسفة الأنوار برغم أن عدداً من كنائسها لا يزال يتسم حتى اليوم بالطابع الديني المتشدد، ويدعو إلى الرجوع إلى المنابع الدينية الأصيلة، وخاصة في الولايات المتحدة. وقد أوضحنا في الفصل الثالث كيف تعمل القومية والدين المدني، جنباً إلى جنب، في الولايات المتحدة، على إقامة الصلات الوثيقة بالنموذج التوراتي القديم المتمثل في فكرة «أرض الميعاد».

لكنَّ اللافت في تاريخ أوروبا، ليس مسار العلمنة أو الدنيوية بصفتهما

٣. الألوهية: مذهب يقول بوجود إلهٍ للعالم، يتعارض مع اللاهوت المسيحي.

انفصال الزمني عن الروحي، بل انتقال النموذج التوراتي القديم للخلاص ومفهوم الشعب المختار إلى المُثُل العلمانية الجديدة. لم يعد الخلاص تدبيراً إلهياً يهدي الإنسان أو يُفترض بالإنسان أن يجهد للعثور عليه، بل غدا محدَّداً للغاية: الخلاص هو سعادة الإنسان من خلال التطور والتنظيم السياسي والاجتماعي الأفضل. أصبح العقل مرشد الإنسان وليس اللاهوت وعقائده الجامدة. فالمفهوم العلماني للسعادة هو المفهوم الذي يتعارض مع النظام الإلهي كما وضعه الكهنة والأنبياء واللاهوتيون، واعتمدوه نظاماً في مختلف حقبات التاريخ.

يسهُل، نسبياً، فهمُ هذا الانزلاق من العلماني إلى الديني القدسيّ. صحيح أن أيديولوجيا التقدم والعقل قد تغلّبت على كافة أشكال خلاص البشرية عبر الدين، لكن الغلبة لم تحصل إلا بعد صراع مرير. وفي نهاية المسار تصبح هذه الأيديولوجيا نفسها ذات طابع مقدّس، سواءً كان هذا تحت شكل الرأسمالية الليبرالية أم الاشتراكية التي تدّعي أنها «علميّة».[4] ولم تتم إزالة الهالة الدينية عن تحديد مفهوم «الخلاص»، فالخلاص، بمحتواه العلماني ومُثُله العليا المتجسدة في الثقافة الأوروبية، يبقى متميزاً دائماً بشيء من القدسية. لقد أشعلت ما أسماها العديد من المفكرين «الديانات العلمانية»،[5] أكبرَ الحروب وأكبر البطولات وأكبر التضحيات، تماماً كما حصل في الحروب خلال حقبة «ما قبل الحداثة». واستعادت هذه الديانات غالباً التعابير التي استُعملت في الحروب الدينية التي خاضتها الأديان التوحيدية، مثل: «الحملات الصليبية»، «الحروب المقدسة»، «امبراطورية الشر»، الشيطان»، «شيطاني». وهذه تعابير توغلت في لغة فكر يُفترض أنه

٤. يتحدث مانويل دو دييغيز عن أصنام ذهنية تتحكم بعمارة اللاهوت التوحيدي القرباني، لكن أيضاً بالنظرية العلمية الحديثة (مانويل دو دييغيز: **وخلق الإنسان الله**، مصدر سابق).

٥. انظر الأعمال التي جرى الاستشهاد بها في المقدمة.

متعلمن.[6] أما في الأمور القتالية، فإن عصري النهضة الأوروبية والعلمنة الغربية أبقيا على الأساليب نفسها، فالعنف شامل والخلاص كلّي ولا تعتريه أية شكوك، ويستدعي تبعية وولاءً لا ثغرة فيهما. يجب على العدو أن يُمحَق، أكان داخلياً أم خارجياً. وقد أعطت الماكارثية[7] في الولايات المتحدة مع بداية الحرب الباردة، نموذجاً يُحتذى لمحاكم التفتيش ما بعد الدينية. كما أنَّ حملات التطهير والتنكيل التي قامت بها الأحزاب الشيوعية الروسية أو الأوروبية، تذكّر بحملات الكنيسة ومجالسها التي كانت تفرض الخضوع لأحكامها تحت طائلة التعذيب والنبذ اللذين يمكن أن يتخذا أشكالاً عنيفة للغاية. واليوم، إن «الإيمان» الاقتصادي بأهمية العقيدة الليبرالية الجديدة يأخذ بدوره الطابع المطلق والشمولي نفسه.

في الحقيقة، لم يتخلَّ الفكر الغربي يوماً عن العالم «السحري» للتوراة، وعن الروح التوحيدية في شكلها الأكثر فجاجة، والمتمثلة في صورة النبيّ الذي يشهر سلاحه ليُخرج شعبه من ظلمة العبودية إلى نور الهداية؟ لم يستطع المسيح الذي يدعو إلى التخلي عن العنف ولا يعترف بحدود القبيلة، أن ينجح حقاً في تغيير هذه الروح، لأن المسيحية نفسها ستصبح، من بعده، ديناً يدعو إلى القتال. كما أن الإسلام، الذي يقول إنه يختتم حلقة الأنبياء في التاريخ البشري، لن يكون أقل تحريضاً على القتال من المسيحية ولا من اليهودية المنبعثة اليوم من رمادها لإحياء دولة إسرائيل القائمة على العنف.[8]

---

٦. هناك كلمات كثيرة تنتمي أصلاً إلى القاموس المسيحي باتت تُستعمل في إطار دنيوي مثل: «رعية»، «يبشّر»، «يعبد»، «الحج»... إلخ.

٧. الماكارثية: فترة سوداء في تاريخ أميركا اتسمت، خلال الحرب الباردة، بمطاردة الفكر المعارض ووصمه بالخيانة.

٨. اعترف الإسلام دائماً بمصداقية الديانتين التوحيديتين الأخريين، أي اليهودية والمسيحية. وقد منح الإسلام حرية العبادة لهؤلاء المؤمنين الذين يتقبلون سيادة النظام الإسلامي.

فهل أتاحت الدنيوية والعلمنة للغرب أن يحقق قطيعة فعلية مع التوجهات القتالية التي شهدها تاريخ البشرية؟ وهل قطع الغرب فعلاً جذوره التاريخية وصلته بالشرق من خلال الرؤية العلمانية التي أنتجتها فلسفة الأنوار؟ إننا كلَّما تفحصنا الصورة الحالية للغرب، بدا لنا الأمر مريباً: صحيح أن الغرب حقَّق قطيعة فعلية عبر تطوره التقني، وصحيح أيضاً أنه قام بعملية نقد ووعي ذاتيَّين، لكن لم تمنع كلُّ أشكال القطيعة التي مارسها الغرب عبر تاريخه الحديث من أن يكون النموذج التوراتي القديم فاعلاً دائماً في حاضره: إله واحد، فكرة مثالية واحدة، نظام قيم واحد، النموذج الواحد للخلاص الذي يجب فرضه على سائر البشر... إلخ. ما من شك في أن العلمنة حققت تطوراً وأرست مفهوم التسامح وأوجدت الحقوق لحماية الخارجين عن عقائد المجتمع وعاداته، إذا كانوا لا يشكلون خطراً عليها، وهذا من فضائلها؛ لكن هذا التطور لم يمنع الحربَ ولا العنف الشامل ولا أساليب الانتقام ولا استخدام الرموز التوراتية في اللعبة السياسية الداخلية للغرب، أو في علاقاته مع الأجزاء الأخرى من العالم.

يعتبر المؤرخ الإنكليزي الكبير أرنولد توينبي، من خلال كتابه الذي عالج فيه ظهور العلمانية في الغرب، وتطرق إلى معناها وهشاشتها، أن الجوانب العلمانية في الحضارة الغربية ليست إلاّ «مرحلة عابرة بالضرورة،» كما يُندّد بالمفكرين والفلاسفة الذين قدّموها بوصفها كلية شاملة وعنصراً مؤسساً وشاملاً في هذه الحاضرة.

منطق التوحيد ومفهوم الطبقة «المختارة» أو الشعب «المختار»

يضاعف لاهوت النبوية و«الشعب المختار» في الأيديولوجيات المعاصرة من خطورة منطق التوحيد في النظر إلى الخلاص، ومن العنف الذي يتسبب به. ثمة أفراد أو شعوب يرون أنفسهم، عبر نظرة توراتية الطابع، مختارين من الله، أو يرون أنفسهم كأنبياء داعين إلى تأسيس الحداثة وتأمين السعادة

العلمانية الطابع، ويعتبرون رسالتهم إرشاد البشرية إلى خلاصها. بهذا المعنى، ترى بعض الشعوب أنها هي المختارة أو المصطفاة للشهادة على الطريقة الدينية، وهكذا تَغْرِف القوميات المعاصرة بوفرة من اللاهوت التوراتي الأصل الذي يعتمد فكرة أن شعباً معيناً قد يكون مختاراً من خلال العناية الإلهية لتعميم السعادة لدى الشعوب الأخرى.

ألم تدّعِ كلٌّ من القوميات الفرنسية والإنكليزية والألمانية والأميركية، أنها تحمل مَشعل النور إلى العالم؟ ربَّما كانت أوروبا المبنية على القوميات التي تخلف أوروبا المبنية على وحدة الكنيسة، هي على طريقة تبنّي العلمانية، لكن كلّ تشكُّل قومي كان يرى نفسه، بعبارات توراتية، شعباً مختاراً يسعى إلى سعادة البشرية. يغيب، هنا، تماماً التواضع الذي يُفترض به أن يميّز الفكر العلماني، من النزعة القومية، فهي تعمل فعلاً وفق نموذج الدين التوحيدي: هي شاملة وكلية وحصريّة وتنتج أيضاً أنبياءها وكهنتها الكبار الداعين إلى القتل والاغتيال والحرب حتى الموت أو حتى الفناء، ليصبحوا من ثمَّ شهداء تُقام لهم أضرحة التكريم. لم يختفِ الدينيّ من القومية المعاصرة، بل انتقل من مركزه المحوري القديم، أي الكنيسة وجماعة المؤمنين، إلى الجماعية العرقية أو القومية، ولم يختفِ أيضاً من روح التعلق بالمبادئ الجمهورية على الطريقة الفرنسية، التي تضم جماعة المواطنين بكافة جذورهم العرقية. يقول في هذا الخصوص دو ديبغيز:[٩]

> لا نستطيع أن نفهم شيئاً من روح ثورة الجمهورية، إذا كنا نجهل الثقافة اللاهوتية في فرنسا إبّان القرن الثامن عشر، وما حصل من علمنة المجادلات الدينية حول طبيعة المسيح الباقية المتأصلة في

٩. مانويل دو ديبغيز: **وخلق الإنسان الله**، ص ١٧٤؛ بالإمكان أيضاً الرجوع إلى التحليلات الرائعة التي قامت بها إليز مارينستراس بما يخص الروح الدينية في القومية الأميركية في كتابها **نحن الشعب**، المصدر المذكور آنفاً، وخاصة الفصل الثامن عشر.

الجوانب اللاوعية للحياة السياسية في الديموقراطيات اللاتينية.[١٠]

يتأثر تطور تاريخ الأمم دوماً بنفحة توراتية، ويتوسَّل صوراً توراتية كعبور الصحراء واجتراح المعجزات المؤدية في النهاية إلى «أرض الميعاد» (أي الأمة بحدودها التاريخية) وتقديم النموذج القدوة للشعوب الأخرى. ما تزال هذه الأنماط القديمة تطبع أطوار التاريخ الغربي بطابعها، سواءً تعلق الأمر بالنبي المشرِّع كموسى، أو، بشكل أكثر تعقيداً، بالمسيح الذي قدّم نفسه قرباناً لخلاص البشرية بعد أن تجاوز بدائية الشريعة القديمة ليؤسس نوعاً جديداً من الروابط الأخوية بين البشر؛ وهي ما تزال أيضاً فاعلة في تصرفات الغرب وتاريخه. لقد أراد نابليون للقومية الفرنسية أن تكون شعاعاً يوجِّه أوروبا لكي تتعصرن، لكنه حاول، في الوقت نفسه، أن يوفِّق بين العالم المَلَكيّ القديم وإقامة نظام جديد لاختيار النخبة يعتمد حصراً على كفاءة الفرد. وقد تمّ ذلك كله على وقع الإيقاع الملحمي الخاص بالنمط التوراتي وركيزتيه الأساسيتين: أي البحث عن الخلاص والحقيقة الإلهية الشاملة والكلية من جهة، والإيمان بشعب مختار قادر على هداية البشر إلى الخلاص من جهة أخرى.

اتخذت الاشتراكية أشكالاً مختلفة في أوروبا، وتطورت بالموازاة مع الحركات القومية محاولةً تجاوزها، لكنها سارت بدورها وفق النمط ذاته. كان ماركس «النبيَّ الكبير»، واجتمع من حوله تلاميذ كثر، واعتبر أن الطبقة العاملة، تستطيع وحدها باتحادها أن توفِّر السعادة للبشرية وترشدها إلى «أرض الميعاد»، حيث الوَفْر والمساواة للجميع. وقد تناول ريجيس دوبريه بطريقة معمَّقة، في مؤلَّفه عن اللاوعي الديني، المذكور في مقدمة هذا

---

١٠. الديموقراطيات اللاتينية: دول أوروبا التي تتكلم الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية، وهي لغات مشتقة جميعها من اللاتينية، وهي اللغة الأم لجميع هذه اللغات.

الكتاب، أوجه التشابه بين مراسم الاحتفالات الدورية للنظام السوفياتي والمراسم الدينية الطابع. لقد اغترفت لعقود عدة، القوميات الروسية والصينية، حيويتها وديناميتها من مَعين الماركسية، وهي عقيدة غربية. ظنَّ الروس أن الماركسية ستسمح لهم بتجاوز الخلاف القائم بين أنصار السلافية المؤيدين للمحافظة على «الروح الروسية» التقليدية لمواجهة الأثر المدمّر لما سُمي «ماديّة» الغرب، وأنصار التفرنج الذين يؤيدون تحديث روسيا على الطريقة الأوروبية بأسرع وقت ممكن. كان بوريس باسترناك،[١١] آخر أنصار السلافية الكبار، يرفض في الوقت نفسه الماركسية والرأسمالية، لأنهما من نتاج الحضارة الغربية، ويحاول الحفاظ على جوهر الروح الروسية وروحانيتها. وقد حصل هذا أيضاً مع القومية العربية التي شهدت الظاهرة نفسها، وطغت عليها نتيجة عوامل عديدة، ظاهرةُ العودة إلى الجذور الدينية الإسلامية.

بَيْدَ أن الرأسمالية الغربية التي تغلّبت على الماركسية في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، لا تكتفي بنصر متواضع. يبدو أنها تنزلق، هي الأخرى، في مطبات اللاهوت الخلاصيّ وآلياته. لم تعد البروليتاريا منقذة البشرية كما كان يُنظَر إليها من خلال العقيدة الماركسية، بل أصبحت فئةُ رجال الأعمال أملَ البشرية في السعادة والخلاص. وينتشر، اليوم، أصحاب الثروات الضخمة في كل مكان من العالم ويتضاعف عددهم، ويصبح صندوق النقد والبنك الدوليان ومنظمة التجارة العالمية حرّاسَ المعبد الرأسمالي الجديد. أما رؤساء هذه المنظمات فهم كهنته الكبار ووسطاء الوحي وأنبياء الفجر الجديد الذي يُفترض أنه أشرق على البشرية مع انتصار النظام الرأسمالي على

---

١١. بوريس باسترناك Boris Pasternak، من كبار الأدباء الروس. ناضل ضد الشيوعية، لكنه رفض من جهة أخرى، من خلال كتاباته، الرأسمالية على الطريقة الأميركية، ونادى بالاعتماد على التراث الشعبي.

النظام الاشتراكي. وتغدو القمم التي يعقدها رؤساء الدول الغربية العظمى بديلة عن الاجتماعات التي كانت تعقدها اللجان المركزية في الحزب الشيوعي في ما مضى، فتعلن في نهايتها الكلمة الفصل أو كلمة الوحي المقدسة. كما أصبح انعقاد مؤتمرات الهيئات الدولية الكبرى للتمويل، معادلاً للمجالس الكنسية القديمة أو للجلسات العامة لمجلس السوفيات الأعلى، حيث تُقمع الانشقاقات والفِتن وأعمال الشغب في الشوارع وأي نوع من الخلافات ويتم وضع حدّ لها كما كان يحصل في السابق.

فهل قضت «فرنجة» العالم في جوهرها على الله وجعلت وجوده منحسراً في المعابد الدينية؟ أم أنها، بخلاف ذلك، لا تزال تعمل وفق آلية تستوحي، بقوةٍ، الملحمةَ الإلهية التوحيدية وتستعيدها دوماً؟ بإمكان الله أن يُغيّر اسمه، لكن هل كفَّ حقاً عن إلهام تصرفاتنا الدنيوية؟ يكفي أن نتمعّن في النظرة العميقة التي عالج بها سيرج موسكوفيتشي الرشدانية التي رسَّختها سوسيولوجيا ڤيبر ودوركهايم في الثقافة الغربية، لنتبيَّن سلطة المفاهيم الدينية على هذه الثقافة. يقول موسكوفيتشي:

> تسعى هذه الرشدانية إلى أن تخلق إجماعاً ضمن السوسيولوجيا يشبه إلى حدّ ما الإيمان المطلق الديني. وعبثاً تحاول أن تكون موضوعية وقريبة من تجربتنا، حيث يحوّم الظل العملاق للاهوت على لغتها ومفاهيمها. نُصغي إليها فنسمع صدىً توراتياً غربياً. هذا على الأقل إذا قارنّا بينها وبين اللغة التي تستخدمها والعلوم القريبة منها مثل الاقتصاد والأنثروبولوجيا.[١٢]

علمانية مخادعة تدّعي اكتشاف جذور يهودية ـ مسيحية

ربما، تكمن إحدى المشاكل الرئيسية لفرنجة العالم، في هذه العلمنة

١٢. سيرج موسكوفيتشي، **الآلة التي تصنع الآلهة**، المصدر المذكور سابقاً، ص ٤١٦.

الكاذبة التي يدّعيها الغرب لنفسه: علمنة مخادعة تجترها الثقافة الغربية وتدفعها اليوم إلى أن تَنْسب إلى نفسها جذوراً يهودية ـ مسيحية، بديلة عن الجذور الإغريقية ـ الرومانية التي كانت تبنّتها ثقافة النهضة الأوروبية لكي تشرّع أو تبرّر انتصاراتها الجديدة في مواجهة أيديولوجيا الكنيسة الجامدة. لكن، هل من شأن اِختراع مفهوم الجذور اليهودية ـ المسيحية للغرب واستخدامه في اللغة السياسية العادية، أن يؤمّن التناسق بين الخطاب العلماني والسلوك الغربي ذي الجوهر الديني؟

كان الرجوع إلى الجذور الإغريقية ـ الرومانية في ثقافة الإنسان المعاصر تكريساً مبدئياً للقطيعة مع لاهوت التوحيد ومختلف العقائد المؤمنة بخلاص الجنس البشري عن طريق الدين، وإنهاءً لنَسَق الرؤية الثنائية للعالم حيث «لا خلاص خارج الكنيسة،» أي خارج الدين.

إن الجذور الإغريقية ـ الرومانية هي في الواقع وثنيّة وحلولية[13] وتعددية. والوثنية الكلاسيكية هي التعددية المُمَأسَسَة والمضمونة، وهي اختلاط الآلهة والثقافات من دون تناحرها المتبادل.[14] ولقد كانت هذه الجذور الركائز الأولى للديموقراطية والعمل على إقامة البرهان المنطقي من دون اللجوء إلى العناصر السحرية. وهي أيضاً الشكوكية[15] والجدل

١٣. حلولية: مذهب الاعتقاد أن روح الخلق تتجلى في كل شيء.

١٤. درسنا بالتفصيل الآلية القانونية والمؤسساتية في المجتمعات الوثنية القديمة التي تتصف بالتعددية الدينية (وبخاصة مجتمعات اليونان وروما وبابل)، وقارنّا بينها وبين المجتمعات التوحيدية. ما من شك في أن ظهور الدين التوحيدي أثار مشاكل حادة في الإدارة السياسية للمجتمعات التعددية، ولا نزال حتى اليوم أسرى لها، ذلك أن فكرة الإله الواحد المتصلب خلقت صعوبة جمّة في إيجاد ترتيبات مؤسساتية تتيح لأشخاص يعبدون آلهة مختلفة التعايش في ما بينهم. راجع مؤلفي: **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**، دار النهار، بيروت ١٩٧٧.

١٥. الشكوكية: مذهب فلسفي يعتمد الشك للوصول إلى اليقين.

السقراطي[١٦] في خدمة البحث عن الحقيقة.

لا تمتّ هذه الجذور بأية صلة إلى عنف أو تعصب مكرَّس لخدمة الإيمان الديني، ولا إلى مفهوم وحيد لخلاص الإنسان، يُعتبَر كل حياد عنه سقوطاً في الظلمة، كما لا تنتمي إلى عالم «أرض الميعاد» والأنبياء والسقوط في الخطيئة ومفهوم الشعب المختار وحروب الإبادة ذات الهدف المقدَّس.

انكفأ الخطاب الغربي ذو الجذور الإغريقية ـ الرومانية انكفاءً سريعاً، خلال السنوات العشرين الأخيرة من القرن الماضي، إلى خطاب تبنَّى قيماً وجذوراً يهودية ـ مسيحية. يبدو لنا أن هذا الانكفاء يمكن تفسيره، إذْ يوفِّق الخطاب الجديد بين النمط الذي يسير وفقه الفكر الغربي الحديث، والنماذجِ التوراتية التي ما برحت تهيمن على هذا الفكر، برغم علمنة مظاهر الخلاص البشري وأشكاله وأهدافه. وتشكِّل، في هذا المضمار، التجاربُ القومية والشيوعية أو الرأسمالية الجوهرَ نفسه لكل أشكال الحداثة الأوروبية. فهل انتصرت هذه الحداثة حقاً على نموذج التوحيد التوراتي العنيف، حيث قامت من ورائها الحروب القوميَّة الأوروبية أو الحروب الاستعمارية أو الحرب الباردة، ولم تقلَّ عنفاً عن الحروب الدينية؟ أم أن هذه الحداثة لا تني تنتج ذلك النموذج التوراتي بشكل لامتناهٍ وبتسميات ومفاهيم جديدة، حيث إن تاريخها حافل بالحروب الشاملة وحروب الإبادة، Herem،[١٧] وهي الحروب المقدسة التي تستقي نموذجها من «العهد القديم». فعلاً، لم تحقق الحداثة الديموقراطية والعلمانية أي قطيعة حاسمة تحدّ من أشكال العنف الجماعي التي يمكن للمجتمعات أن تُبتلى بها، حين يأخذ بعقلها شيطان الغزو والقوة والتعصب.

١٦. الجدل السقراطي: نسبة إلى الفيلسوف اليوناني الشهير سقراط، وترمز هذه العبارة إلى الجدل الفلسفي الذي ينطلق من الجزئي إلى الكلي، ومن الظاهر إلى الباطن.

١٧. الحِرم Herem: الحرب المقدسة، أو الجهاد عند اليهود، وهي عبارة تتردد كثيراً في «التوراة».

يسمح هذا الاستحضار للجذور اليهودية ـ المسيحية أيضاً بتبرير وجود دولة إسرائيل وشرعته، وهو وجود مقدَّس في النفسية الجماعية الغربية؛ كما يسمح بانتزاع كل صفة استعمارية عن نشأة إسرائيل بما في ذلك الانتشار المتواصل للمستوطنات. وهكذا، حسب النظرة الغربية، يتمّ في إنشاء دولة إسرائيل التوفيق بين العلمنة والديموقراطية والنموذج التوراتي، وهما الركيزتان الأيديولوجيتان المتناقضتان اللتان قامت عليهما الدولة العبرية. وقد وظفت أوروبا، ومن ثمَّ أميركا، جهودهما الدائمة والثابتة لقيام هذه الدولة واستمرارها بالرغم من المعارضة الفلسطينية والعربية العارمة.

لا ننسى أيضاً أن هذه البدعة، الجديدة في العالم الغربي، كما سنرى بالتفصل في الفصل السادس، تساعد على تطويق الإسلام وعزله، وهو الدين التوحيدي الثالث والحفيد الأخير الذي يعتز اعتزازاً شديداً بانتمائه إلى التاريخ التوراتي ونبوّة الأنبياء والتوحيد الأكثر نقاءً. ولا شك في أن بدعة إنشاء إسرائيل في وسط العالم العربي تؤكد، بما لا لبس فيه، الشرخ بين الشرق والغرب الذي أقامته الثقافة الغربية ولم تتوصل إلى التحرر منه. كادت الماركسية الشيوعية والعالمثالثية[١٨] العلمانية تنجحان في تقويض هذا الشرخ، لكن انهيار هاتين الحركتين يعيد، بحيوية أكبر، الشرخ تلقائياً إلى الواجهة. لذا، سهَّل الكتاب الرديء، **صدام الحضارات**، لمؤلفه صاموئيل هانتنغتون، بلورة هذا الشرخ من جديد. ولهذا السبب أيضاً، أحرزت رسالة الهجاء المرعبة التي تهاجم فيها الصحافية الإيطالية أوريانا فالاتشي بنبرة تنضح عنصريةً، الإسلامَ والمسلمين عقب اعتداء الحادي عشر من أيلول،[١٩] نجاحاً متعاظماً في أوروبا.

---

١٨. العالمثالثية: عقيدة تنادي بالتضامن مع العالم الثالث.

١٩. أوريانا فالاتشي، **الغضب والكبرياء**، Oriana Fallaci, *La Rage et l'Orgueil* منشورات Plan، باريس، ٢٠٠٢.

ويجب ألاّ ننسى هنا أن النصر الأميركي في الحرب الباردة أصبح أيضاً انتصاراً للثقافة الأنغلوساكسونية بجذورها البروتستانتية والتوراتية. وقد عجَّل هذا الانتصار في أفول أسطورة الجذور الإغريقية ـ الرومانية التي كانت مهيمنة في الثقافة الأوروبية لعصر النهضة.

انقلاب ثقافي

الحقيقة، أنّ ثمة انقلاباً ثقافياً يُصنع بهدوء. ينظِّم الدين التوحيديّ من جديد حملات العداء والعنف، فيخلق غرباً «يهودياً ـ مسيحياً» يحقق توسعاً مدهشاً في حيّزه عبر إنشاء دولة إسرائيل كنقطة متقدمة في قلب الشرق. في المقابل، يشعر الغرب بأن العالم الشرقي الإسلامي، بجالياته المهاجرة، أصبحت له «طوابيره الخامسة» المنصوبة في قلب عواصمه، حيث يمكن للأعمال الإرهابية أن «تزدهر» بفضل انخراط أبناء هذه الجاليات في شبكات الإرهاب.[٢٠]

لقد بلور الحادي عشر من أيلول، من خلال الصور التي أنتجها، حدود الآفاق التي ترسمها المخيِّلة الدينية التوحيدية، وهي أكثر خطراً بكثير من الحدود الفاصلة بين الدول. فمنذ ذلك الحين، بلغ الصدام بين المخيِّلات

---

٢٠. هذه الصورة القوية يوحي بها عنوان كتاب: **ضواحي الإسلام**، لصاحبه جيل كيبل Gilles Kepel, *Les Banlieues de l'Islam*، منشورات Seuil، باريس ١٩٨٧. وتعود إلى جيل كيبل أول دراسة عن الحركات الإسلامية التي يقدمها كضحية للديكتاتورية القومية والعلمانية لجمال عبد الناصر، في مصر. يستند عنوان هذه الدراسة إلى صورة توراتية راسخة في الأذهان: صورة الفرعون المضطهِد (عبد الناصر) والنبي المضطهَد (أي الحركات الأصولية الإسلامية): **النبي والفرعون: الحركات الإسلامية في مصر المعاصرة** *Le Prophète et le Pharaon: Les mouvements islamistes dans l'Egypte contemporain*، منشورات La Découverte، باريس ١٩٨٤، (والطبعة الجديدة صدرت عن Seuil، باريس ١٩٩٣)؛ بالإمكان الرجوع أيضاً إلى النقد الذي أجريتُه لأعمال الجيل الجديد من المستشرقين في كتاب **أوروبا والشرق**، مصدر سابق.

الدينية التوحيدية أوْجَه، مطيحاً بكل محاولات التهدئة في الغرب والشرق، خاصة عندما يقوم بعض رؤساء الدول في الغرب بإطلاق تصريحات تنضح بالتعصب (مثل الرئيس بوش أو رئيس الحكومة الإيطالية سيلفيو برلسكوني).

إنّ اختراع المخيّلة الغربية للجذور اليهودية ـ المسيحية، يشير إلى قبول الثقافة الغربية أهميةَ التوحيد في أعماق النفسية الغربية بالرغم من انتشار العلمانية. ليس هذا فحسب، بل يؤمّن هذا الاختراع مزايا أخرى أيضاً. لقد حقق أولاً المصالحة بين اليهودية والمسيحية، الأمر الذي كان مستحيلاً منذ ما يربو على قرن أو نصف قرن من الزمن. صحيح أن «العهد القديم» و«العهد الجديد»[21] مرتبطان بشكل وثيق، لكن المسيحية المؤسساتية قامت على محاربة شرسة لليهودية المتشبثة حصراً بالعهد القديم، والرافضة رسالة المسيح. كان من المستحيل، إذاً، الجمع بين اليهودية والمسيحية في عبارة واحدة، منذ قرن أو حتى نصف قرن. أما اليوم، فباتت عبارة «جذور يهودية ـ مسيحية» من العبارات المألوفة التي تجري على كل لسان بصورة طبيعية ومشروعة. وهكذا، بات «الثنائي المرسَل من السماء» والمنحرف، المؤلَّف من الآراميين والساميين، من المصطلحات الثقافية البائدة، لأن اليهودية، بهذا الانقلاب الثقافي ـ الديني الطابع، اندمجت من الآن فصاعداً بالتراث الغربي. لقد قامت البروتستانتية، بالخطوة الأولى في هذا المجال، ليس من خلال التقرب من اليهودية، حيث كان آباؤها المؤسِّسون على الصعيد اللاهوتي معادين للساميين تماماً كزملائهم الكاثوليكيين، بل من خلال الرجوع إلى منابع العهد القديم.

لم يقبل الكاثوليكيون، من جهتهم، بالسير في المؤخرة، فأرادوا التكفير

---

٢١. نذكر أن عبارة «يهودية ـ مسيحية» كانت لا تزال عبارة متفاصحة، وتشير حصراً إلى الطوائف المسيحية في القرنين الأولين للمسيحية التي لم تكن آنذاك منفصلة شكلياً عن اليهودية ومُمأسسة في إطار الكنيسة التي قطعت في ما بعد كل صلة تربطها باليهودية.

عن تجاوزات الكنيسة واضطهادها المزمن لليهود وتوجيهها أقذع الاتهامات والصفات إليهم، وإطلاق عبارة «قاتل الله» على الشعب اليهودي، محمّلةً إياه مسؤولية صَلْب المسيح وهو «الإله المفدّى». ويحصل الانقلاب الكبير المذهل بجعل إبادة اليهود على يد النازية ـ وهي أيديولوجيا حقيرة لا تملك مرجعية دينية مسيحية لها ـ قرباناً استشهادياً جماعياً (وهذا هو معنى عبارة «هولوكوست») يعيد إلى اليهود مصيراً شاذاً فريداً من نوعه. فبدلاً من الاحتقار التقليدي لليهود، أعادت المحرقة (الهولوكوست) الاعتبار إلى اليهود، وباتوا يلقون في الغرب مزيداً من التعاطف، كشعب مظلوم ومضطهَد يجب إزالة الغبن التاريخي عنه، بتشجيعه على إنشاء دولة خاصة به. يحصل، من جراء ذلك، في الثقافة الغربية، تمازج عقائدي (لا تقره المسيحية الشرقية والكنائس الأرثوذكسية التي لا تنسى بتاتاً أن الكنيسة شُيِّدت على أنقاض اليهودية وبالتعارض معها) يسود الذهنية اليهودية والكاثوليكية والبروتستانتية الغربية، عبر هذا الانتشار السريع لمفهوم الجذور اليهودية ـ المسيحية. ومن مزايا هذا المفهوم التي سهّلت انتشاره، أنه يتلاءم مع رؤية ڤيبر إلى تاريخ الغرب الديني. لقد تصالح، أخيراً، التاريخ العلماني والتاريخ الديني للغرب، وتمّ التزاوج بين العهد القديم والعهد الجديد، وجرى احتضان اليهودية بدلاً من التنكر لها كما كان الحال على مدى قرون في التاريخ الغربي.

وهكذا، تصبح المحرقة التي تعرض لها اليهود على أيدي النازيين الألمان، في عملية ذهنية لاواعية، مستوحاةً من اللاهوت المسيحي وفكرة التجسد الإلهي بالذات، مبرِّراً كافياً لإنشاء دولة إسرائيل. وكما بعث الله في اللاهوت المسيحي ابنه، يسوع، للاستشهاد قرباناً لخلاص البشرية وتأسيساً للكنيسة، فاستشهاد الجماعات اليهودية على يد النازية (المحرقة) يصبح القربانَ الذي يسمح بإنشاء دولة إسرائيل ونهضة الدين اليهودي وانبعاثه عالمياً. وقد حصل كل هذا بالرغم من الموقف الرافض لمعظم المدارس الفقهية اليهودية التقليدية، وهي مدارس لا تقبل العودة إلى «أرض الميعاد»

بفعل البشر وإرادتهم وإنما بفعل الله، كما تتهم دولة إسرائيل بأنها مُلحدة وتمارس العنف الفتاك ضد الفلسطينيين الأبرياء. لكنّ الدعم البريطاني، ومن ثم الدعم الأميركي، أتاحا لهذه الدولة، بالرغم من معارضة دينية يهودية، أن تبصر النور، مستوحية صورة العهد القديم ومكمّلة له. باختصار، لقد أُنجزت أخيراً، بشكل مفارق، «فرنجة» اليهودية، هذا الدين السامي القديم الذي كان يُنظَر إليه على أنه جسم غريب في الحضارة الأوروبية بسبب انتمائه إلى الحضارة الشرقية.[٢٢]

يحسب الغرب أنه، من خلال الدعم غير المشروط لإسرائيل، ينقذ نفسه من التصرف اللاعقلاني ومن معاداة السامية التي مارستها المسيحية وجعلت من تشبث اليهود بديانتهم عقبة في طريق خلاص البشرية. فلم يعد اليهود أولئك الأشرار الذين كفّروا ظلماً عن لاعقلانية الغرب. وتهدف الثقافة التي نشأت عن «المحرقة» أو «الهولوكوست» إلى إقصاء هذه اللاعقلانية نهائياً، وإثبات أن الغرب قد شُفي منها. لم يعد اليهودي الآن، ذلك «الآخر» الغريب المختلف جوهرياً عن الإنسان الغربيّ. لم يعد سليلَ المتمردين على المسيح، والغريب الأطوار والتصرف. لقد تبدّلت المعايير والمقاييس الآن، وتم بإتقان قلب الصورة: أصبح «الآخر» المكروه، هو المسلم، معتنق دين

٢٢. الأعمال العديدة التي كتبها يهود معادون للصهيونية، أوروبيون أو أميركيون، رجال دين أو علمانيون، مهمّشة تماماً، ويتم تجاهلها بخلاف الأعمال التي تمجّد العودة إلى أرض الميعاد، مانحة «اليهودية الحديثة» تاريخاً اتصالياً منطقياً يرقى إلى الأزمنة الأسطورية لإبراهيم وموسى. نذكر بهذا الخصوص اشتراك الحاخامات المعادين للصهيونية مؤخراً في المظاهرات العديدة المؤيدة للفلسطينيين في أوروبا، وأيضاً في واشنطن. كما نذكر كتاب ناتان وينستوك: **الصهيونية ضد إسرائيل** Nathan Weinstock, *Le Sionisme contre Israël*، منشورات Maspero، باريس ١٩٦٩؛ وأيضاً شهادة مؤثرة قامت بها زوجة أحد الحاخامات تعترض فيها على الاضطهاد الذي يُمارَس على الجماعات اليهودية التي ترفض وجود دولة إسرائيل لأسباب لاهوتية. راجع: روث بلو: **حارسو المدينة: قصة حرب دينية** **Ruth Blau, *Les Gardiens de la Cité: Histoire d'une guerre de religion***، منشورات **Flammarion**، باريس ١٩٧٨.

النبي محمد، الذي كان ينظر إليه في أوروبا على أنه «المسيح الدجّال». وقد أصبح الآن المسلم هو الذي يرمز إلى الشذوذ واللاعقلانية، والمتمرد على المدنية الراقية للغرب، ويثير الحنق والنفور.

أصبح التنكر والعزل من الآن فصاعداً (وسنعود إلى ذلك في الفصل التالي)، حصراً على الدين التوحيدي الثالث: الإسلام. يقول في هذا الخصوص جان لامبير:

> من الطبيعي ألا تجد المسيحية دوراً تمنحه للإسلام ما دام التوحيد والعقلانية سبق لهما أن أدّيا دوريهما. لذا، يبقى الإسلام وحده ديناً توحيدياً قديماً هائماً على وجهه، محاطاً بهالة من الأسطورة، ويغدو شكلاً من أشكال انحطاط اليهودية وعقلانية مبتورة لم تُنجَز، وتستعصي على الاستمرار في شكل علماني وحديث لفترة طويلة من الزمن. يُتوقع منه أن يسعى فعلاً إلى التحرر من سلفيته الدينية ليتمكن من القيام بعملية دمج على الطريقة اليهودية في شبكة الحضارة المتوسطية. لكن ذلك عسيرٌ لأن الإسلام، بخلاف اليهودية ـ المسيحية، لا يملك أي هامش للاجتهاد والنقد إزاء نصّه.[٢٣]

تبقى خطابات الثقافة الحديثة منطبعة بالخطاب التوراتي عن القبائل أو الشعوب ـ القبائل. إنه الوحي التوحيدي الذي يجعل العبرانيين، وهم قبيلة بين القبائل الأخرى، «شعباً» مميزاً. إنها الكنيسة التي تجعل من المسيحيين جماعة مؤمنين متفوقين على الشعوب والقبائل الأخرى. إن آلية الثقافة الغربية تتجه دائماً إلى الخيار الأحادي الجانب: الاحتواء أم الرفض، وهي في الحقيقة لم تستطع أن تصنّف بشكل رشيد ودقيق الجماعات الأنثروبولوجية الكبرى: الساميين/ الآريين؛ القبيلة/ الإثنية/ الشعب/ الأمة/ الدين؛ المجتمع/

---

٢٣. جان لامبير، **الإله المُتقاسَم**، مصدر سابق، ص ٢١.

الطائفة/ اللغة/ الثقافة؛ الحضارة/ العِرق؟ فما هو، حقاً، التصنيف الذي يمكن أن يستوعب تنوع العالم بشكل أفضل؟

على الرغم من آلاف الأعمال التي نُشرت، لا يزال الأمر غامضاً في الفكر المعاصر، ذلك أن اليهودية على سبيل المثال، بالرغم من اندماجها القديم في شتى الثقافات، لا يزال يُنظر إليها على أنها معادِلة للرابط القومي الذي يمنحها الحق بإقامة دولة، حتى ولو كانت أكثرية السكان اليهود تُقيم خارج الأرض القومية (الدينية؟). بينما، من الناحية المعاكسة، لا يزال الإسلام الذي يبلغ عدد أتباعه أكثر من مليار نسمة، وبرغم التنوع الهائل للغات والثقافات التي يتكون منها، يُعتبر «كلية» شاملة وكتلة متراصة ومتجانسة تماماً، تهيكلها حصراً العقيدةُ الدينية التي يُنظر إليها على أنها لاهوت سياسي ونظام أخلاقي واجتماعي شمولي، في الوقت نفسه.

فالثقافة الغربية تكاد تفقد صوابها ما إن تشتم رائحة التوحيد، فتتزعزع مقاييسها العلمانية إلى حد خطير. فهل الغرب بعيد عن الله؟ هل أخرج فعلاً نفسه من «الانشداه تجاه الدين»؟ لا شك في أن مظاهر التقوى متراجعة ومهمَّشة ومستبدَلة بطقوس أكثر دنيوية،[٢٤] لكن هل تخلّت نظرة الغرب إلى العالم وفهمه له، عن الجوهر الديني التوحيدي؟ ألم يخلق الغرب عن نفسه ميثولوجيا كاملة لانتساب الحضارة العقلانية والفردانية إليه، تجعله استثناءً في

---

٢٤. تتمثل هذه الطقوس في «الاحتفالات الرياضية الكبرى» أو الحشود المجتمعة في الحفلات الموسيقية التي يُحييها مطربون مشهورون، وأيضاً حفلات توزيع الأوسكار ومهرجان مدينة كان في الميدان السينمائي والمعارض الاستعادية للأعمال الفنية ومهرجانات الموسيقى الكلاسيكية، وكتلك التي تُقام في مدينة بيرت **Bayreuth** في ألمانيا لإحياء أعمال الموسيقار الشهير ڤاغنر **Wagner** أو مدينة سالزبورغ **Salzburg** في النمسا حيث نشأ موزارت **Mozart**، وهو أيضاً من كبار عباقرة الموسيقى الكلاسيكية، أو في المناسبات الانتخابية الحاسمة والإعلان الدعائي والإعلامي لمستحضرات جديدة استهلاكية أو لأزياء الموضة والاكتشافات الجديدة في الالكترونيات والمعلوماتية وعلم الوراثة.

تاريخ البشرية، مما يتيح له اليوم، كما في الأمس، نبذَ الإسلام واعتباره طريد تاريخ الديانات، كما فعل سابقاً مع اليهودية؟

يبقى مهماً أن نذكر في خاتمة هذا الفصل، كلام الأب يواكيم مبارك الذي كان كاهناً وعالم لاهوت مشهوراً في فرنسا ولبنان بكتاباته عن العلاقات الإسلامية ـ المسيحية من منظار «إبراهيمي»، غالٍ على قلب المستشرق المعروف لويس ماسينيون **Louis Massignon** الذي كان الأب يواكيم مبارك تلميذه وشارحه الملهم. قال الأب مبارك في إحدى الندوات:

> إن الحاضرين هنا يعرفون جيداً أنني أعارض بشكل أساسي لاهوت الخلاص. أمضيت ثلاثين سنة من عمري وأنا أسعى إلى أن أجعله مقبولاً، بالقول إن التاريخ الخلاصي اليهودي ـ المسيحي ليس حصرياً ولا يُقصي أحداً منه، ويُفترض به، على الأقل، أن يتسع ليشمل الإسلام أيضاً. لمدة ثلاثين عاماً ولم نفعل شيئاً سوى التبشير بالإبراهيمية.[٢٥] عليَّ اليوم أن أعلن، من دون أن أحرق ما عبدته طوال هذه السنوات، أنني أجد هذه الترسيمة ملتبسة تماماً. تبدو ترسيمة تاريخ الخلاص هذه، حتى لو اتسعت لتشمل الإسلام أيضاً، غير فاعلة، وذلك للأسباب التالية: على الصعيد العملي أولاً، لأن هذه الترسيمة لم تفعل شيئاً سوى أنها غذّت نزاعات فظيعة منذ البدء وحتى اليوم، مما يدعو إلى التساؤل عن جدواها. ليست القضية قضية لاهوت، بل قضية صراع قاتل بين الأخوة وإجحاف خطير الشأن. إن هذا المفهوم الخلاصيّ هو الذي غذّى كل هذه الصراعات، وهو المسؤول عن الاستعمار: لديَّ تاريخ

---

٢٥. الإبراهيمية: نسبة إلى إبراهيم الخليل، وهي تجمع بين تراث كل من اليهودية والمسيحية والإسلام.

وأنت لا، وأريد أن أدمجك في تاريخي. هذا هو لاهوت تاريخ الخلاص: لديَّ الحقيقة وأنت لا. أنت في الخطأ وأريد أن أدخلك في حقيقتي.[٢٦]

---

٢٦. يواكيم مبارك، مسيحيو العالم العربي، ندوة ١٩٨٧، قدّم للكتاب بيار روندو Youakim Moubarak, *Les Chrétiens du monde arabe*, Préface de Pierre Rondot، منشورات Maisonneuve et larose، باريس ١٩٨٩، ص ١٢٤.

الفصل السادس

الإسلام المنبوذ الجديد
من بين الديانات التوحيدية الثلاث

وظائف الصورة التي يكوّنها الغرب عن الإسلام

لا شيء يثير القلق في الثقافة الغربية كنظرتها إلى الإسلام ومقاربتها له. يختار الغرب من بين الصور التي يشرف على ترويجها وصياغتها في العالم، تلك التي تشرّع رؤيته السلبية إلى الإسلام، فيتعامل معه بصفته عقيدة كلية شاملة ورابطة اجتماعية وثيقة، زمنية ودينية في آن، وبصفته أيضاً عقيدة متصلبة تنضح عنفاً ولا تتسم بالعقلانية.[1]

قلة من المفكرين المسلمين الذين تناولوا القرآن والنبوة الإسلامية في السنوات الأخيرة انطلاقاً من إشكالية حديثة، استطاعت أعمالهم أن تحظى بشرف التكريم الأكاديمي في الغرب. لكن هؤلاء المفكرين المسلمين موجودون وأعمالهم عديدة ومثيرة للاهتمام، وهم يوظّفون كل مكتسبات الألسنية، مُعيدين وضع العبارات القرآنية في إطارها الزمني، يفككون ويحللون أحكام الشريعة وأنماط التأويل على ضوء الصراعات التي كانت

---

١. هذه هي الصورة الكاريكاتورية للإسلام، وقد زاد من توهجها وذيوعها الكتاب العجيب للصحافية الإيطالية أوريانا فالاتشي: **الغضب والكبرياء**، مصدر سابق.

دائرة في حينه بين القوى المختلفة المتناحرة للاستيلاء على السلطة.

لكن هؤلاء المفكرين الذين اغتيل بعضهم أو نُبذوا، لم يلقوا الاهتمام في الغرب.[٢] وعلى الرغم من أن أعمالهم تحظى بترحيب عظيم في العالم العربي ويباع بعضها بعشرات الآلاف من النسخ، لم تُترجَم مؤلفاتهم إلى اللغات الأجنبية، ونادراً ما يؤتى على ذكرها في الأدبيات الغربية عن الإسلام.[٣] هذه هي الحال مثلاً بالنسبة إلى محمد شحرور، الكاتب السوري المقيم في دمشق والذي اشتهر مؤلفه: **الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة**. فهو يقترح قراءة جديدة تماماً وثورية للقرآن وآياته على ضوء الألسنية ومن خلال الرجوع إلى المعنى الأصلي للتعابير والمفاهيم المستخدَمة في الإسلام، كما كانت تُفهم في عصر النبي وليس كما نفهمها الآن.[٤] ويدعو شحرور إلى متابعة شرح النص القرآني الذي لا ينبغي أن يظل أسيراً للتأويلات المجتزأة والجامدة. وبالرغم من النجاح الذي لقيه هذا الكتاب في العالم العربي، فهو

---

٢. راجع بهذا الصدد، مؤلّفي: **انفجار المشرق العربي**، المصدر المذكور آنفاً، الفصول: الأول والثاني والرابع والعشرون. هذه الفصول مخصّصة لدراسة التغيرات التاريخية التي مرّت بها الهوية العربية، والأشكال التي تمّ من خلالها استخدام الإسلام في إطار الحرب الباردة، وبغية محاربة العلمانية في العالم الثالث.

٣. نشير مع ذلك إلى الترجمات التي قامت بها دار La Découverte في فرنسا لمفكرين مصريين مسلمين يتمتعون بشهرة واسعة، وقد هبّوا جميعهم لمواجهة النظرة التي تتناول بها الحركاتُ الأصولية الإسلامَ، ولا تمت إليه بصلة. هذه الأعمال هي: محمد سعيد العشماري، **الأصولية الإسلامية ضد الإسلام**، Muhammad Saïd al-Ashmawy, *L'Islamisme contre l'islam*، La Découverte، باريس ١٩٩٠؛ فؤاد زكريا، **العلمانية أو الأصولية: العرب أمام الخيار الصعب**، Fouad Zakarya, *Laïcité ou islamisme: Les Arabes à l'heure du choix*، La Découverte، باريس، ١٩٩١؛ حسين أمين، **كتاب المسلم الحزين على عتبة الألفية الثالثة**، Hussein Amin, *Le Livre du musulman désemparé: Pour entrer dans le troisième millénaire*، La Découverte، باريس ١٩٩٢. لكن كل هذه الأعمال لا يجري التطرّق إليها أبداً في مؤلفات الغرب عن الإسلام.

٤. محمد شحرور، **الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة**، دمشق ١٩٩٢.

مجهول تقريباً في الأدبيات الأوروبية أو الأميركية،الغزيرة عن الإسلام.

بقيت الأبحاث الأكاديمية حول الإسلام خاضعة لمعايير الأثنولوجيا[٥] في القرن التاسع عشر، مهتمةً فقط في السنوات الثلاثين الماضية بوضع الفهارس والوصف الدقيق لكل جماعة تنادي بطروحات الأصولية الإسلامية المعاصرة. لا تهتم هذه الأعمال، (كما رأينا سابقاً في الفصل الرابع)، إلا بالحركات الإسلامية الناشطة على الساحة السياسية، متجاهلة تحليل تطور السياقات الجيوسياسية، ولا تقدّم إلا صورة مبتورة للواقع «الإسلامي». وهكذا، يتم تجاهل الصلة التي تربط هذه الحركات بالإسلام الوهّابي، أو تجاهل تأثير إنشاء دولة إسرائيل وانتصاراتها المتعاقبة على الجيوش العربية على تنامي الأصولية الدينية الأكثر تشدداً وتطرفاً.

لم تشر الصحافة الغربية، إلا منذ اعتداء الحادي عشر من أيلول، إلى الأصولية التي تتميز بها وجوه عديدة من الحياة الاجتماعية والسياسية في المملكة العربية السعودية والباكستان، وصلة هذين البلدين بنظام الطالبان في أفغانستان وتنظيم القاعدة الذي يتزعمه أسامة بن لادن. كان السكوت عن هذا الوضع نابع من كون هذين البلدين حليفين استراتيجيين متفانيين للولايات المتحدة، وشريكين ناشطين في محاربة الاتحاد السوفياتي، وقد كان يجري دوماً تقديمهما غالباً على أنهما «معتدلان» ومواليان للغرب.[٦]

لماذا تركزت التحليلات الأكاديمية أو الإعلامية بشأن الإسلام، في

---

٥. الأثنولوجيا: علم يبحث في أصول السلالات البشرية.

٦. راجع بشكل خاص: جون ك. كولي، **الحرب غير المقدسة: أفغانستان، أميركا والإرهاب العالمي** John K. Cooly, *Unwholy War: Afgahnistan, America and International Terrorism*، منشورات Pluto Press، لندن ٢٠٠٠؛ بالإمكان أيضاً الرجوع، بين الكتب التي ظهرت إثر اعتداء الحادي عشر من أيلول، إلى كتاب جان كلود بريزار وغيوم داسكيه: **ابن لادن: الحقيقة المحرّمة** Jean-Claude Briscard et Guillaume Dasquié, *Ben Laden: La Vérité interdite*، منشورات Denoël, coll. 'Impacts'، بارس ٢٠٠١.

النصف الأخير من القرن الماضي، على الحركات الإسلامية الأصولية فقط خارج أي سياق جيوسياسي؟ لماذا تجاهلت التيار الناشط للفكر العربي الليبرالي والنقدي، علماً بأن هذا التيار يستعيد الجذور العقلانية للفكر الإسلامي في عصره الذهبي خلال القرنين التاسع والعاشر، ويستحضر كذلك الجذور الثقافية لحركة النهضة العربية التي بدأت مع حملة نابليون على مصر واستمرت خلال القرن العشرين مغذية مقاومة الاستعمار، ولكن بالحفاظ على التواصل الفكري مع فلسفة الأنوار؟ ولماذا اقتصرت صورة الإسلام في الثقافة الغربية منذ نهاية الستينيات على صورة الحجاب والسيف والعمامة[٧] والجهاد الإسلامي ولحى المشايخ؟ هناك مجموعة معقدة من العوامل أدت إلى الاستخدام الاستثنائي للأصولية الإسلامية لتأدية أغراض شتى في كل المجتمعات التي توجد فيها طوائف إسلامية، ولا يبدو أن شيئاً بإمكانه إيقاف التعبئة للمواقف الأصولية المتشددة، وهذا ما أثبتته لاحقاً التبعات الاستثنائية التي تمخّضت عنها أحداث الحادي عشر من أيلول.

لقد تسبّب الخطاب الغربي الذي يتناول الشرق، في سوء فهم هائل، نابع من الإطار المنهجي والمفهومي المعتمد للنظر إلى الشرق، مما أدّى إلى هذا الشرخ بين الشرق والغرب، فقد تصور الغرب أنه قطع صلة الوصل بعالم البطاركة والأنبياء الأسطوري وأوكل إلى الشرق رمزياً مهمة تتمثل في تجسيد كل ما هو سلفيّ وروحانيّ. لقد اعتبر الإسلامَ محوراً مركزياً رائداً للسلفية والروحانية، وكأنّ المسيحية لم تولد في الشرق ولم تتفتح وتزدهر قروناً طويلة فيه، أو كأنها لا توجد الآن عبر طوائفها النافذة المسمّاة «شرقية» (الأقباط في مصر والموارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك في لبنان

---

٧. عنوان كتاب للمؤلف ريمي لوفو: **السيف والعمامة: مستقبل المغرب** Rémi Leveau, *Le Sabre et le Turban: L'Avenir du Maghreb*، منشورات François Bourin، باريس ١٩٩٣.

وسوريا وفلسطين والأرمن في سوريا وإيران ولبنان والأشوريين في العراق). بالمقابل، أمعنت الثقافة الغربية في تعميق التنافر بين عالمي الشرق والغرب وتعزيز الشرخ بينهما، وخوَّلت نفسها وحدها مأثرة الفصل بين الزمني والروحيّ، وحصرت بها سلوك طريق العقل وتعزيز استقلالية الفرد.

أما الإسلام، في هذه النظرة الغربية، انطلاقاً من جوهره بالذات، وهو جوهر مختلف عن الأديان التوحيدية الأخرى، فلا يسعه النجاح في هذه التجربة البالغة التعقيد. الإسلام محكوم عليه بعجزه عن تحقيق هذا الفصل الأساسي بين الزمني والروحي: مفتاح الدخول إلى العصرنة. لكن هذا العجز (دائماً بحسب الخطاب الغربي) جزءٌ من سحره، سحر الشرق المتجمد في السلفية الدينية. الإسلام محكوم عليه بأن يظل طفلاً غير قادر على النمو أو على استيعاب دينامية الغرب الإبداعية. وهكذا، ترسخَّت صورة الشرخ الأبستمولوجي بطريقة لا تُرَدّ، ودارت من حولها الأبحاث والخطب حول هذا الثنائي الجهنمي: الشرق والغرب. ليس المهم أن تكون هذه الصورة مطابقة للوقائع التاريخية، المهم أن ثنائيتها حادّة ولا تشوبها شائبة. لا بل أكثر من ذلك، إن هذه الثنائية تعيد، بشكل كامل ولاواعٍ، خلق ترسيمة «الشعب المختار» كما تصورها التوراة، لكن في شكل علماني. والمهم أن تستجيب هذه الصورة لرغبة الغرب النرجسية في خطابه عن نفسه وتجعله مطمئناً إلى تفوقه. وهنا، يغيب عن بال الغرب، أن أوروبا عاشت لقرون خلت في ظل عقائد الكنيسة الكاثوليكية الجامدة، وفي ظلام القرون الوسطى الطويل، بينما كان الشرق هو صاحب الحضارة البراقة والتراكم المعرفي.

لا يسعنا هنا إلا الرجوع إلى الصفحات الرائعة التي كتبها جاك غودي وتحدث فيها عن غياب الانقطاع في مراحل التطور بين الشرق والغرب حالماً يوجّه المؤرخ نظره إلى امتداد الزمن الذي استغرقته مراحل التطور في الشرق وفي الغرب وحركتها البندولية. يقول غودي وهو أستاذ شرف في «جامعة كمبردج»:

يجب إعادة النظر في الفكرة القائلة إن الشرق لا يتقبل أي تغيير لأسباب عامة، تتعلق مثلاً بغياب نمط عقلاني لديه أو نمط عائلي ملائم. يبدو لي أن كل مداخلة في هذا الميدان يجب أن تأخذ في الحسبان الطابع المؤقت للتميز الغربي، على الرغم من القناعة الثابتة لدى من يتطلع إلى التاريخ من زاوية الإنسانية، القائلة إن مفتاح سر التميز موجود في اليونان وروما، أو في الجذور القبلية في ما يخص شعوب الشرق.[٨]

من هنا، نكتشف تفاهة الطروحات المتعلقة بالدور الأساسي الذي يمكن أن يلعبه دين التوحيد في إبراز استقلالية الفرد أو تفوق الغرب أو ما يقوله مارسيل غوشيه (كما رأينا في الفصل الثالث) عن أن دين التوحيد هو «دين الخروج من الدين». لكن أية قيمة فعلية يمكن إعطاؤها لدين التوحيد ـ حسب النظرة الغربية ـ ما دام المولود الثالث للتوحيد، وهو الإسلام الذي يوازي عدد المنضوين تحت لوائه عدد المسيحيين، يُستبعد من حيز التحليل في دور الدين؟ وإذا المسيحية تعلن من دون أي حرج، أنها سليلة اليهودية،[٩] فكيف يمكن أن يكون المولود الثالث للديانات التوحيدية مبعَداً عنها؟ وبدلاً من أن تتناول الأبحاث في العلوم الإنسانية والتساؤلات في فلسفة التاريخ مراحل التطور المختلفة التي مرّت بها الأديان التوحيدية الثلاثة ومعناها، لم تفعل شيئاً سوى أنها استمرت في نسج «الخرافات» المتحذلقة التي كان صاغها ڤيبر ودوركهايم، وسيّجت الحيّز التي تتحرك فيه الثقافة الغربية برغم إطلاق صفة العالمية على نفسها.

على أية حال، يبدو واضحاً، كما أشرنا في الفصل الثاني، أن تميز

---

٨. راجع: جاك غودي، **الشرق في الغرب**، مصدر سابق.

٩. تستعيد فصول عديدة من القرآن مراحلَ تاريخ العبرانيين في العهد القديم، وأيضاً قصة المسيح الذي تَعتبر أنه تلقّى روح الله.

الغرب الاستثنائي في مجال التنمية الاقتصادية لا يمت إلى الدين بصلة، وخصوصاً الدين التوحيدي. فالمجتمعات الإسلامية التي اعتنقت التوحيد منذ أربعة عشر قرناً، لم تعرف مع ذلك «الثورات» على الطريقة البروتستانتية، ولا ظاهرة إزالة الانشداه تجاه الدين، اللتين عرفتهما المجتمعات الغربية، واللتين صنعتا، بحسب التقاليد الراسخة للسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا الغربيتين، قوة الغرب المعاصر.

إذا درسنا الصورة التي كوّنها الغرب عن المسار التنموي المنفصل الذي يفترض أنه تميّز به، فقد لا تكون في الجوهر عداءً للآخرين، بل رغبة شديدة في الراحة والأمان النفسيين. لا شكَّ في أن الغزاة الذين سعوا إلى السيطرة على العالم إبّان عصر النهضة الأوروبي ساهموا في السمات السلبية للشق الشرقي للثنائي «شرق وغرب»، وعمّقوا فكرة التمايز بين الشرق والغرب، وذلك لتبرير الغزوات والاستعمار. لكن، ليس أكيداً أن الإسقاط الذي جرى من خلاله تصوير العالم على أنه قائم على شرخ جوهري بين الشرق والغرب، مردّه عداء جوهريّ أو «وراثي» بين عالمين مختلفين كما يحلو لبعض المفكرين ترسيخه في المتخيل الغربي والإسلامي. (هذا ما أثبتته لنا التحليلات التي تناولت نظام القيم والاهتمامات التي صاغت مفاهيم الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا المعاصرتين، وعلى وجه التحديد، الإرث الذي تركه لنا ڤيبر والتحريف الذي مارسته الألسنية، وقد تحدثنا عنهما في مقدمة هذا الكتاب وفي الفصل الأول منه).

إن نقد الخطاب الاستشراقي وتخيلاته الذي يعتمد فقط على فرضية وجود عداء إرثي الطابع بين الشرق والغرب، قد يفشل في إصابة هدفه الحقيقي المتمثّل في ضرورة تفكيك الأسطورة المنسوجة حول الشرخ بين الشرق والغرب، ذلك أن هدف التفكيك لا يجب أن يكون تأجيج العداء بين العالَمين، بل ـ بالعكس ـ الحدّ منه، وإثبات بطلانه، وإظهار أثره المشؤوم في اللاوعي الجماعي الذي يرتوي، برغم التطور المزعوم للعلمانية، من

مَعين النماذج التوراتية الأولى، سواءً كانت يهودية أم مسيحية أم إسلامية. هذا ما تفتقده أيضاً التحليلات البراقة التي أبرزت الطابع «الاستعماري» و«التوتاليتاري» الذي يتسم به خطاب الغرب عن الشرق، كما قام به إدوارد سعيد في كتابه الشهير عن الاستشراق.[10]

وسواءً أتت هذه الخطب، بكل ما فيها من اتهام متبادَل، من الغربيين أو من الشرقيين، فهي لا تساهم قطُّ في تطوير المعرفة وترشيد النظرة إلى واقع الصراع. ثم إنّ التيارات الفكرية الكبرى التي تتناول نظرة الإسلام إلى نفسه، أو لِنقلْ، التيارات التي تسمح لها الثقافة الغربية المهيمنة بالانتشار، وحدها من دون غيرها، وتسعى إلى ترويجها علناً، هي الخطابات التي ترسّخ منطق الشرخ بين الشرق والغرب. وهكذا، يهتف هؤلاء المسلمون الشرقيون الذين يعبّرون عن هذه التيارات والذين ترتئي الثقافة الغربية إسماع أصواتهم حصراً، قائلين ما معناه: نَعَم، نحن عالم الروحانية وجبروت الإيمان بالله. قرآننا كلام الله المنزَّل ولا يسمح لنا بفصل الزمني عن الروحي كما تفعلون أنتم في الغرب، فتحتقرون شأن الإنسان وتفصلونه عن الله. أما نظامكم العلماني الذي تطيلون الحديث عنه مُحْدثين ضجيجاً هائلاً، فليس إلاّ مؤامرة يهودية - مسيحية لإلغائنا وفك الروابط التي جمعتنا حول فكرة الإيمان بالله أينما كنا على هذه الأرض، وأياً تكن الحقبة التي نعيش فيها. لقد أخفقت، قديماً، حملاتكم الصليبية، واليوم تريدون أن تنتقموا منا بإنشائكم دولة إسرائيل ودعمكم لها، وبرفع الشعارات حول حقوق الإنسان والعلمانية، أي باختصار، تهددون بزعزعة كل أسس نظامنا الاجتماعي.

أجوبة الإسلام المقتلَع من جذوره

ترتدي الأجوبة التي يردّ بها الشرق المسلم على تخيلات الغرب حوله،

---

١٠. إدوارد سعيد، الاستشراق: الشرق كما خلقه الغرب Edward Said, *L'Orientalisme: L'Orient créé par l'accident*، منشورات Seuil، باريس ١٩٨١.

طابعاً محزناً مأساوياً، لأن الشرق، بأجوبته هذه، يؤكد تفوّق الغرب ويعزز قناعاته النرجسية، ويرسّخ بالتالي قدرة نفوذه على إذابة وتمويه ثقافات الشعوب الأخرى ودعائمها. لذا، يجب ألاّ نتعجب من كثرة الأعمال والأبحاث والكتب التي تتطرق إلى هذا النموذج من الإسلام السلفي، الجامد والمقتلَع من جذوره، والذي يحيا على هامش المجتمعات المسلمة ويشكل أقلية فيها، ولم يحظَ بهذه الأهمية في الإعلام الغربي والأبحاث الأكاديمية إلاّ لأنه تمّ استنفاره واستغلاله خلال الحرب الباردة للقضاء على «الوحش الشيوعي» الذي نشأ في رحاب الغرب، وكان ثمرة دينامياته المتناقضة.

هذا الإسلام المقتلَع من جذوره فعلاً، هو في الحقيقة إسلام «مفرنَج»، أي متأثر بأفكار الغرب وتخيلاته وخطابه، وتحكمه الآلية المتصلبة للاهوت الخلاص و«الشعب المختار»، أي الآلية نفسها التي تحكم غالباً الثقافة الغربية، وكان الإسلام قد تحرر منها أيام مجده وازدهاره سابقاً. لكن إسلام اليوم المتميز بانتشار الأصولية الشمولية بسبب الظروف التي أوجدتها الحرب الباردة، هو إسلام مقتلَع من جذوره التاريخية. والمأساة تكمن في أنه يرفض الاعتراف بذلك. يرفض أن يأخذ علماً بأن الحضارة الإسلامية العظيمة، حضارة الأمويين والعباسيين والعثمانيين الأوائل، بما خلقت من امتدادات لها في إيران وفي امبراطورية المغول في الهند، قد ولّت إلى غير رجعة، تماماً كما حصل لحضارة اليونان القديمة. كانت عظمة الحضارة العربية تكمن حقاً في انفتاحها الرحب ومرونتها وتقبُّلها كل الإضافات الثقافية والعلمية التي عثر عليها العرب الفاتحون الخارجون من الصحراء، في طريق مسيرتهم الملحمية. ليس سهلاً فهم الكيمياء التي أنتجت هذه الحضارة لأنها خلاصة إبداعية وعبقرية واستثنائية لحضارات عديدة وروافد كثيرة أسهمت في إغنائها، كالإضافات الفارسية والإغريقية القديمة والبيزنطيا والسريانية والآرامية والهندية.

وخلافاً للأفكار المتوارَثة، لم يستوعب هذا الإسلام، في رونق

حضارته، العلومَ فقط، وخاصة علم الفلك والرياضيات والطب، بل شجّعها أيضاً؛ وازدهرت على أيامه المدارس الفلسفية الدينية، وفُتحت على مصاريعها أبواب الاجتهاد في التشريعات والأحكام. كان هذا الإسلام منفتحاً متقبلاً وجودَ اليهود والمسيحيين في قصور الخلفاء والسلاطين، ومتيحاً المجال أمام المناظرات اللاهوتية بين المسلمين وغير المسلمين. وقد قام أيضاً بترجمة كتابات الفلاسفة اليونانيين الكبار، وتأثر بالأدب الهندي وأدخله إلى الأدب العربي. أصبحت اللغة العربية آنذاك لغة الثقافة والحضارة حتى بالنسبة إلى الفرس الذين ورثوا حضارة عريقة فذّة هي الحضارة الفارسية، أو السريان والأشوريين المسيحيين وكنائسهم في كل أنحاء المشرق العربي. صحيح أن الغرب يعرف «المعجزة الأندلسية»، لكنه غير مطّلع بشكل كافٍ على التعددية المشرقية في شرق المتوسط (لم يُلغِ الإسلام هذه التعددية بل حافظ عليها) ولا على ما واجهه امتداد الحضارة الإسلامية إلى الهند وأندونيسيا وماليزيا، حيث كان على الإسلام أن يتعايش مع الوثنية. كيف يمكن، إذاً، تفسير هذه الظاهرة الحضارية التي تشبَّع بها الإسلام، والتي قلّما تتلاءم مع الرؤية الحالية للأيديولوجيا الإسلامية الدينية؟

هناك سببان رئيسيان بإمكانهما تفسير ظاهرة الانفتاح هذه التي ميّزت الحضارة الإسلامية الأصيلة. السبب الأول يعود إلى احترام النبي للتاريخ التوراتي وحرصه الشديد عليه، فالمسلمون هم أبناء إبراهيم ويعترفون بكل نَسْل الأنبياء منذ إبراهيم حتى يسوع الذي يحتل مكانة مميزة في القرآن، كما تحتل العذراء مريم مكانة مرموقة فيه، وهي الوجه الأنثوي الوحيد المكرَّم في القرآن، وتُعتبر بمثابة قديسة بارّة. لم يشكل إسلام النبي محمد قطيعة مع الأديان التي سبقته، بل كان استمرارية واستكمالاً لفكرة التوحيد ومحاولة لتعزيزها بعد أن أخفق كل من اليهود والمسيحيين ـ في نظر المسلمين ـ في الحفاظ على الفكرة التوحيدية بأكمل بوجه. فالقدس هي ثاني الحرمين عند المسلمين، وقد تأثر المسلمون بعادات يهودية تشكل صلب الهوية الإسلامية

كالختان وتحريم أكل لحم الخنزير. وقد جاء القرآن بمثابة وحي جديد أنزله الله ليكمل الديانات السابقة ويتممها ويختتمها.[11]

نعود، هنا، إلى مسألة «الشعب المختار». فقد اختار الله أن ينزّل القرآن بالعربية، لكن العرب وإن كانوا «خير أمة أخرجت للناس»، ليسوا شعباً مختاراً، بل «أمة وسط»، لأن الله لا يحب الشطط، ولا «الإكراه في الدين». اليهود والمسيحيون والمسلمون هم «أهل الكتاب» ويستطيعون العيش معاً وتبادل التجارة والتداول الحرّ في ما بينهم. ليس هناك في الإسلام مفهوم «الدنس» بين أولاد إبراهيم اليهود والمسيحيين والمسلمين، لأنهم ينتمون جميعاً إلى العائلة التوحيدية نفسها. فالنبذ محصور فقط بالمشركين والوثنيين الذين يتمسكون بأصنامهم ويرفضون فكرة الله الواحد. كل هذه الأمور مجتمعة هي التي خلقت الأندلس والمعجزة العباسية ثم امبراطورية المغول حيث تعايش المسلمون مع الهندوسيين الوثنيين بفضل الاجتهادات التي جدّدت روح الإسلام وحثّت على التسامح وسمحت بدمج الفرس، معتنقي الزرداشتية، في الحضارة الإسلامية. لقد استلهم الإسلام المسيحيةَ برفضه، مثلها، ظواهرَ التمسك بالقبيلة أو العرق. صحيح أن الوحي أُنزل باللغة العربية، وأن القبائل العربية كانت الأداة لتنفيذ إرادة الله، لكن، لم تكن داخل جماعة المؤمنين، تفرقة بين من هم عرب ومن ليسوا عرباً، حيث دعا الإسلام إلى المساواة بين الناس، واعتبارهم سواسية «كأسنان المشط».

لا شك في أن الأمور لم تكن سهلة على الصعيد الميداني بين المسلمين من جهة، واليهود والمسيحيين من جهة أخرى. لقد فُرضت «جزية» على اليهود والنصارى، مقابل الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية

---

١١. اتهم المسيحيون اليهودَ بتغيير النصوص الرئيسية في العهد القديم وتحريفها ليتمكنوا من إنكار دور المسيح المخلّص وانتزاع صفة «فادي البشرية» عنه. وكذلك اتهم المسلمون بدورهم اليهود والمسيحيين بتحريف الأناجيل والعهد القديم بغية إنكار صفة النبوة عن النبي محمد.

بنوع من «الدونية» التي أسست لنظام «أهل الذمة». لكن، يجب ألا ننظر كما يفعل غالبية الباحثين إلى المجتمعات الإسلامية في مرحلة «ما قبل الحداثة»، بمقياس المعايير الديموقراطية الحالية، ونطلق الأحكام على إدارة المسلمين للطوائف الأخرى في تلك المجتمعات بمقاييس المواطنية العلمانية المعاصرة،[١٢] بل يجب مقارنة ذلك بالمصير الذي كان يُلحقه اليهود بأعدائهم في عهد التوراة في حال كانوا هم المنتصرين، أو بالمصير الذي لقيه اليهود في الامبراطوريات أو الممالك المسيحية في أوروبا. عندما نقارن إدارة المسلمين للطوائف الأخرى بإدارة اليهود والمسيحيين لها، نجد أن المقارنة هي حتماً لصالح المجتمعات الإسلامية التي قبلت بوجود التعددية. ولو حصل أن أساء المسلمون أحياناً معاملة المسيحيين واليهود في هذه الفترة التاريخية أو تلك من الغزوات والفتوحات، لكن تجدر الإشارة إلى أنه لم تكن هناك مجازر متواصلة، ولا إبادات جماعية، ولا إقامة أحياء غيتو[١٣] مغلَقة، ولا حظر امتلاك الأراضي أو تبادل التجارة بين المسلمين وغير المسلمين. وقد أُلغيت الجزية المفروضة على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في منتصف القرن التاسع عشر، وهذا شاهد على تطور التقاليد الإسلامية وتكيفها منذ تلك الفترة.

سيكون لهذه الفرنجة ـ وهذه النقطة أساسية ـ أثر مزدوج، إيجابي وسلبي في الوقت نفسه: إيجابي لأن النخب المتنورة في العالم العربي تمسكت بالجوانب الإيجابية الموجودة في تراث فلسفة الأنوار وافتتحت المسار الذي يجدد التقاليد الإسلامية في العمق ويجعلها متماشية مع روح العصر. وقد أخفق هذا المسار لسوء الحظ وسنتطرّق إلى سبب إخفاقه لاحقاً؛ وسلبيّ لأن الفرنجة، كما أشرنا سابقاً، أثارت الحساسيات والنعرات

---

١٢. راجع بهذا الخصوص، مؤلَّفي حول: **تعدد الأديان وأنظمة الحكم**، مصدر سابق.

١٣. الغيتو **ghetto**: أحياء معزولة يُجبَر اليهود على الإقامة فيها.

داخل المجتمعات المسلمة. والشاهد على ذلك ما حصل في الهند حين زرع الاستعمار البريطاني بذور الفتنة الطائفية، فنشأ عن ذلك انفصال الهنود المسلمين عام ١٩٤٧ واستقلالهم عن الهند، وإنشاؤهم دولة الباكستان، أي «بلد الأنقياء»، إثر أعمال عنف ومذابح دموية رهيبة. حصل كل ذلك بالتزامن مع إنشاء دولة إسرائيل التي فصلت هي أيضاً بين اليهود والعرب في فلسطين. ثم تشرذمت الباكستان بعد انفصال إقليم البنغال عنها مما يُظهر جيداً أن الخصوصية الإثنية أو القومية تتفوق على الانتماء الديني الذي يقال عنه إنه حاسم في الحقبة المعاصرة.

الإسلام دين علماني!

السبب الثاني الذي يُفسِّر تقبُّل المجتمع الإسلامي التقليدي لتعدُّد الطوائف هو عدم وجود إكليروس[١٤] في الإسلام. ليس هناك لا إكليروس ولا كهنة ولا مؤسسات كنسية، حيث إن الخليفة هو الحاكم وأمير المؤمنين، يعدّل في التوجهات العقائدية والأحكام القضائية تبعاً للحاجات والمتطلبات الآنيّة في المجال السياسي. لم يعرف الإسلام، ومثله اليهودية، لاهوتاً معقَّداً وشائكاً وعويصاً كما كان لاهوت الدين المسيحي، حيث العقائد فيه سهلة والباقي اجتهاد شخصي. كما أن مفهوم الفصل بين الزمني والروحي، الذي كان إحدى سمات الحداثة الأوروبية، لا معنى له في الإسلام لأنه لا وجود فيه لمؤسسات دينية وروحية، يديرها رجال الدين، مستقلة عن النظام السياسي المدني، أو تهيمن عليه كما كان الحال في المسيحية الغربية. كان هناك سلطة المفتين والقضاة التي كانت تُصدر الأحكام في مواضيع غير سياسية حصراً، لأنها كانت تخشى غضب الخليفة أو السلطان الذي يمثل السلطة السياسية.

---

١٤. إكليروس: طبقة رجال الدين التي ميّزت المجتمع المسيحي الغربي، ولعبت فيه دوراً سياسياً حاسماً من كهنة وأساقفة وشمامسة.

ليس لمنطق العلمانية الكاثوليكية المصدر أو الدنيوية البروتستانتية النمط، أيُّ معنى في المجتمعات الإسلامية، ولا مكان لها أساساً في الشريعة الإسلامية. المسألة غير مطروحة، إذاً، في المجتمع الإسلامي. صحيح أنّ السلطة تستمد شرعيتها من الدين ومن رعايتها للمجتمع المثالي الذي وطّده النبي محمد والخلفاء الراشدون، لكن السلطة لا تستطيع إلا أن تكون مدنيّة في غياب النفوذ الذي تمارسه المؤسسات الدينية. لم تتصف سلطة الخلفاء بالقداسة ولا كانت حقاً إلهياً، ولم يدَّعِ الخلفاء أنهم معصومون عن الخطأ في أي مجال كان. لذا، واجه الخلفاء المسلمون أنواع معارضة شتى، واغتيلوا واستُبدلوا وعجزوا عن ضمان استقرار السلطة السياسية واستمرارها لأمد طويل في سلالة واحدة. لا ننسى أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين اغتيلوا إثر أعمال عنف مروِّعة، وأنه نشأ، ضمن عائلة النبي نفسها، الخلاف الكبير بين السُّنة والشيعة، ولا يزال حتى اليوم يمثل شرخاً داخل الإسلام نفسه. وعندما استلم الأتراك السلطة في المجتمعات الإسلامية، انسحب الشيعة من الساحة السياسية، ولزموا موقف الحياد ممّا أبقاهم خارج اللعبة السياسية، وأفقدهم بالتالي أيَّ موقف فاعل في السلطة، وأيَّ تأثير في مجريات الأحداث.

لم يؤمّن المجتمع المسلم، باستثناء بعض الفترات التاريخية القصيرة جداً، استمرارية الحكم أو الاستقرار أو تطوير المؤسسات وتقدمها. فالعصبية العربية التي شرحها ابن خلدون في نظريته الاجتماعية، لا تستطيع أن تمسك بزمام الأمور في الممالك والإمارات إلا بشكل عابر. وهكذا، انتزع البربر والأتراك والإيرانيون السلطة من العرب، وضاعت الأندلس. وحدهم المغول والعثمانيون أمّنوا استمرارية الحكم واستقراره، والسبب هو النزعة الثقافية الموحَّدة التي نشرتها هاتان الامبراطوريتان، لكنهما سقطتا مع ذلك تحت ضربات غزوات الغرب الحديثة وأفكاره الجديدة.

لم ينهض الشيعة من استكانتهم السياسية التي دامت قروناً طوالاً، إلا

بعد فرنجة إيران. بدأوا يشاركون عندئذٍ في المعركة السياسية وأنشأوا الجمهورية الإسلامية الجديدة في إيران، حيث تولى رجال الدين أنفسهم إدارة شؤون الحكم السياسي ومراقبتها من خلال نظام «ولاية الفقيه»، وهذا شيء مستجِد تماماً في الفقه الشيعي. كذلك، فإن إنشاء تنظيم «حزب الله» غير منسجم في الواقع مع نظرية «الإمام المنتظر» التي هي في صلب العقيدة الدينية الشيعية التقليدية. كما كانت الحركة الوهابية أيضاً ابتكاراً معاصراً حاربته طويلاً التيارات الرئيسية للسنّة، لأنها لم توافق على هذا التفسير المتشدد للإسلام الذي يميل إلى إنشاء ديكتاتورية دينية شاملة. لكن النفوذ النفطي للمملكة العربية السعودية وتحالفها الوثيق مع الولايات المتحدة، سمحا بتصدير الحركة الوهابية إلى كل المجتمعات الإسلامية حيث تنتشر بشكل ملحوظ.

أما الآن، بعد اعتداء الحادي عشر من أيلول، فالنظام السياسي والاجتماعي في المملكة العربية السعودية يواجه وضعاً خطيراً في إطار ظروف جيوسياسية مستجدة تماماً. كما أنها المرة الأولى التي تتعرّض فيها المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها لحملات الانتقاد في الصحف الغربية الكبرى، وخصوصاً الأميركية منها.

إن فرنجة الأنظمة السياسية في المجتمعات الإسلامية هي التي أشعلت السجال بشأن الزمني والروحي، وأضفت عليه طابعاً حماسياً لافتاً. تعصرن التنظيم السياسي في هذه المجتمعات على الطريقة الأوروبية أو أصبح متفرنجاً، وما لبث الفقهاء أن تنبَّهوا لقوة الكنيسة الغربية وللنفوذ المعطى لرجال الدين في أوروبا. وإذا كان الحكام المحليون يحاولون من جهتهم مأسسة الفقهاء وتوجيههم بشكل يخدم مصالحهم بغية منعهم من الإضرار بها وإيذائها، فإن الاستعمار الغربي حاول، من جهته، أن يثير رجعية هؤلاء الفقهاء ضد حكامهم ليقطع الطريق على أي إصلاح ناشط يُفضي إلى المطالبة بالاستقلال.

في المقابل، رأى الحكام الذين يتصف نظامهم بالهشاشة، أن بإمكانهم أيضاً استخدام الفقهاء أو تعبئتهم ودفعهم إلى التعبير عن وجهات نظر معادية للوجود الأجنبي وعن مواقف متطرفة ضد الدول الأوروبية العظمى المهيمنة على الأمم والمتلاعبة بمصيرها. كما جرى استخدامهم أيضاً في اللعبة السياسية المحلية بغية التهويل على المعارضة الديموقراطية التي تستوحي مواقفها من المبادئ السياسية الأوروبية، وتحريكهم في الصراعات الناشئة بين البلدان الإسلامية بشأن اتخاذ القرار بأهلية هذا الحاكم أو ذاك في إعادة الوحدة إلى المسلمين، واستلام الخلافة العثمانية التي أُلغيت عام ١٩٢٤.[١٥] باختصار، نستطيع القول إن الشرق المسلم اكتشف، مع وفود الحداثة إليه، كل «المحاسن» الناتجة عن مأسسة الدين ودخوله الرسمي إلى معترك اللعبة السياسية.

فَهِمَ الشرق، إذاً، لعبة التوازن بين الديني والروحي. أصبح الدخول في اللعبة الدينية مهنة رائجة كمثل الدخول في الجيش أو في المعترك السياسي. وهكذا، ترسخت القطيعة الشاملة بين المجتمع الإسلامي المعاصر والمجتمع الإسلامي التقليدي الذي أبصر النور على أيدي الفاتحين من الأعراق المختلفة القابلين بالتعدد الثقافي والديني، والذين لم يهتموا كثيراً بتطوير العقيدة الدينية، أو بالدور الاجتماعي لرجال الدين من قضاة وعلماء وفقهاء الذين لم يفكروا أبداً في الاعتراض الحاد على السلطة المدنية أو الإشراف عليها أو توجيهها في نشاطات معينة. بل على العكس، فإن أقصى ما حاول الفقهاء والقضاة فعله، هو الحدُّ من الشطط لدى الحكام وإحلال العدالة والرحمة أو زرع بذور التقوى الدينية والورع في قلوب الحكام الذين أصابهم الفتور الديني، أو تحذيرهم من تعاظم نفوذ غير المسلمين في محيط الحكام.

---

١٥. راجع في هذا الصدد: مؤلّفي، المتوسط: ساحة صراع وساحة حلم Georges Corm, *La Méditerranée: Espace de conflit, espace de rêve* منشورات L'Harmattan، باريس ٢٠٠١، عنوان الفصل الأول: «الدول العظمى تبحث عن خليفة يحكم الشرق».

لم يكن الفصل بين الديني والزمني معروفاً في أنظمة الخلافة أو السلطنة إبّان الحقبة الإسلامية الكلاسيكية، ولم يطرح تعايشهما أو طبيعة العلاقة بينهما أي مشكلة، لأن السلطة كانت في أيدي المدنيين الذين اقتصر همهم على الشأن السياسي، المركّز أساساً على تنظيم التعددية الإثنية والسياسية أو على إدارة الشؤون الدينية داخل العقيدة الإسلامية حين تتصادم التأويلات المتعارضة للقرآن أو المدارس الفقهية في ما بينها. وقد كان دور القادة يتمثل أيضاً بالوقوف في وجه انشقاقات القادة العسكريين وحكام المقاطعات.

لقد شهد المجتمع الإسلامي، إبّان الحقبة الكلاسيكية، اضطرابات دينية عندما وصل الأمر بالمدارس الفلسفية أو الاجتهادية إلى الاحتكام إلى قوة السلاح، وخاصة في الخلافة العباسية، إذ كانت الصدامات عنيفة جداً بين المحافظين المتشددين الذين يرفضون القيام بقراءة نقدية وتاريخية للقرآن، والمعتزلة الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة فلسفية دينية رائدة حاولت أن تعزز سلطة العقل وتتناول القرآن من وجهة نظر عقلانية، بصفته واقعة تاريخية.[١٦]

الواقع التاريخي للمجتمعات المسلمة بعيد كل البعد، إذاً، عن الصورة الراهنة التي يُنظر من خلالها إلى الإسلام بوصفه واقعة اجتماعية شمولية الطابع يتحكم فيها العامل الديني بالناس والمؤسسات بشكل استئثاري لا ثغرة فيه. لا شك في أن هذه الصورة عن الإسلام كرّسها التقليدان الأنثروبولوجي والأثنولوجي اللذان يفصلان بشكل مفتعل بين المجتمعات الغربية، ويجعلانها «استثناءً»، وبين باقي المجتمعات التي يُطبّقان عليها «معيار» الانشداه نحو الدين بشكل يشبه السحر، ويجعلها بالتالي منغلقة في هذا الإطار وأسيرة له.[١٧] إن هذه الصورة عن الإسلام هي نتيجة فرنجة العالم التي تعمّق الشرخ

---

١٦. أدّت هذه المعارك والصراعات الشرسة وانتصار المحافظين بعدما سيطر المعتزلة لفترة قصيرة في بلاط العباسيين، إلى لجم حرية تأويل القرآن وتفسيره، وإلى تثبيت أربع مدارس فقهية.

١٧. راجع بهذا الصدد، مرة جديدة: كتاب جاك غودي: **الشرق في الغرب**.

المزعوم بين الشرق والغرب، لا بل تفرضه. والسيّئ في هذا الأمر، أن الكثير من المفكرين المسلمين يستسلمون بشكل واعٍ أو لاواعٍ لهذه الصورة، ويحتبسون أنفسهم داخلها.[18]

في الواقع، لا تتجسّد إشكالية الإصلاح الديني في الإسلام في الوصول إلى الفصل بين الزمني والروحيّ، وليس لهذا الفصل أي تجسّد تاريخي في المجتمعات المسلمة لأنه يتضمن حصراً المجتمعات المسيحية. تتمحور الإشكالية في الإسلام حول مدى السلطة التي يمارسها النص الصادر عن الوحي القرآني وحول مرونة التفسيرات التي يمكن استخلاصها بالنسبة إلى التقاليد التي ترسخت في العصور الأولى التي أعقبت الوحي القرآني. هنا تكمن المسألة التي تعصف دورياً بالفكر الفقهي والسياسي في المجتمعات المسلمة.

المعركة غير المتكافئة بين القومية العربية العلمانية والإسلام «المتفرنج»

ثمة عامل أخير يفسِّر النجاح الذي تلاقيه فكرة الشرخ بين الشرق والغرب وتروِّج له الثقافة الغربية، يتجسَّد في المعركة الخاسرة التي شنتها القومية العربية العلمانية ضد قوى الاستعمار أولاً، ثم ضد إسرائيل لاحقاً. امتدت الحقبة الذهبية لهذه الحركة القومية بين عامي ١٨٢٠ و١٩٥٠، وتميزت بنهضة اللغة والثقافة العربيتين المستيقظتين من سُبات عميق طويل الأمد دام منذ بداية عهد المماليك وحتى نهاية العهد العثماني. وقد لعب مسيحيو العالم العربي دوراً بارزاً في هذه النهضة، لكنَّ مفكرين مسلمين

١٨. هناك العديد من المفكرين العرب الذين تسحرهم طروحات الإسلام الأصولي، كانوا في ما مضى من أنصار الدفاع عن العالم الثالث ومنجذبين إلى الاشتراكية أو متمركسين، ثم غيّروا فجأة أيديولوجياتهم عندما جرت الرياح في اتجاهات معاكسة. وبهذا، يشبهون إلى حد غريب، بعض المثقفين الغربيين الذين انتقلوا من الماركسية المتطرفة إلى الدفاع عن الليبرالية الجديدة والقيم الدينية الغربية، في إطار أصولي.

كثيرين طوّروا هم أيضاً نظريات راديكالية تهدف إلى تعزيز علمانية الدين الإسلامي الذي لم يعرف قطُّ نظاماً كنسياً، وإلى تأكيد الطابع التاريخي للوحي المحمّدي، إضافة إلى الطابع الأيديولوجي والتاريخي ـ لا الجوهريّ ـ لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بتنظيم سلطة الخليفة المستوحى على نطاق واسع من التنظيم الذي كان سائداً في بلاد فارس وبيزنطيا. كان مفكّرو هذه النهضة ومحرّكوها جميعاً من المعجبين بأوروبا ومؤسساتها، وقد حاولوا عبثاً التصدي للضغوطات الاستعمارية التي كانت تُمارَس عليهم لينصرفوا إلى التصدي للمواقف الرجعية والمعادية للحداثة السياسية الأوروبية في صفوف الفقهاء المسلمين المتشددين.

لم يكن متوقَّعاً أن تلقى الحركة القومية العربية ترحيباً من قِبَل الاستعمار الأوروبي، وقد عمل على إجهاض مهمتها في القرن التاسع عشر، وتحديداً على مشارف القرن العشرين، إثر تجزئة العالم العربي إلى دويلات وأنظمة متمايزة، عقب انهيار السلطنة العثمانية وقيام نظام الانتداب ونظام المحميات *اللذين* فرضتهما إنكلترا وفرنسا، وإيطاليا عَرَضاً (في ليبيا). لقد اصطدم الخطاب القومي والوحدويّ الذي ميّز المفكرين العرب المسحورين بفلسفة الأنوار والقومية المعاصرة، بالواقع القاسي للدول المجزَّأة الرازحة تحت سيطرة الدول الأوروبية العظمى. بدأ توافد المهاجرين اليهود إلى فلسطين التي كان يحتلها الإنكليز، وتمَّ رغماً عن إرادة السكان العرب. كما تمَّ إنشاء المملكة العربية السعودية عام ١٩٢٥ (التي نادت علناً بالمذهب الوهابي الإسلامي) على أنقاض مملكة الحجاز التي كانت تديرها العائلة الهاشمية المنفتحة جداً على الغرب. وقد ساهم هذان العاملان الإضافيان، في إبعاد تأثير الأفكار الليبرالية عن المشرق العربي، حيث فقدت هذه الأفكار مصداقيتها بسبب سياسات الغرب التقسيمية وتأييد الدول الأوروبية وأميركا المطلق لإنشاء دولة إسرائيل.

اتخذت القومية العربية، بعد الحرب العالمية الثانية، منحىً أكثر تطرفاً

مع ظهور الناصرية بشكل خاص، لكن مصر ـ عبد الناصر كانت تتعرض لسلسلة من الهزائم في مسعاها إلى تحقيق الوحدة العربية وتحرير الجزء من الأراضي الفلسطينية الذي قامت عليه دولة إسرائيل، كما أخفق مسعاها إلى تهميش النفوذ السعودي في الحياة السياسية العربية. كانت السعودية تنشر العقيدة الوهابية في الشرق الأدنى، أداة سياسية لمحاربة العقيدة الماركسية التي أضفت على القومية العربية هذا اللون الراديكالي، سواءً في شكلها الناصري المصري، أو في شكلها البعثي السوري أو العراقي. وقد قدَّم الغرب الدعم إلى المملكة العربية السعودية وغذّى في كل مكان من العالم الثالث مشاعر العداء للقوميات الراديكالية والعلمانية التي استطاعت أن تفرض نفسها كطرف فاعل إلى جانب حركة دول عدم الانحياز. وقد اضمحلّ نفوذ هذه الحركة أمام صعود نفوذ مؤتمر الدول الإسلامية تحت قيادة كل من المملكة العربية السعودية والباكستان.

سُحقت القومية العربية العلمانية بشكل حاسم، وأبعدت عن الساحة الفكرية في المشرق العربي الذي سيصبح ساحة لهيمنة «الصحوة» الإسلامية كمشروع تجدد سياسي. وقد تناولت سلسلة من الأبحاث والمؤلفات التي تناوب عليها مفكرون من الغرب أو من الشرق، دراسةَ ظاهرة «الإسلام السياسي»، وحققت نجاحاً ملحوظاً على الصعيد الإعلامي.

لقد فَقَدَ هذا الإسلام الجديد كل جذوره التاريخية الحقيقية نتيجة تعرضه لعملية فرنجة أو تثاقف غير ناجحة. وكانت هذه العملية نتيجة تطور السياسة الدولية لأن هدفها كان محاربة الاتحاد السوفياتي والماركسية، بقدر ما كانت أيضاً ردة فعل على الخطاب النرجسي المقسِّم للعالم بين شرق وغرب. وهذا التطور في السياسة الدولية هو الذي شجّع على إقامة أنظمة سياسية معتمِدة حصراً على تطبيق الشريعة الإسلامية، كالباكستان والسودان،[١٩] حيث

١٩. نشير إلى أن السودان انتقل في بداية السبعينيات من نظام سياسي علماني مستوحىً من =

التجليات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية معدومة، وحيث تعشش الأنظمة الاعتباطية والديكتاتورية ممارِسةً الظلم الاجتماعي: أي باختصار، حيث يسيطر التخلف بأشكاله الأكثر فجاجة.

وهكذا، خلت الساحة الشرق أوسطية لهيمنة «الإسلام السياسي» من جهة، ولانتصارات إسرائيل وثقافة الهولوكست من جهة أخرى: هذه هي الكمّاشة التي طوّق بها الغربُ السياسي الحركاتِ القوميةَ العلمانية، ومن ثمّ العالم، خلال سنوات الحرب الباردة. وكان الانتصار شاملاً: انهارت الأحزاب الشيوعية في الشرق وفي الغرب؛ اختفى الاتحاد السوفياتي واختفت معه القوميات العلمانية الراديكالية في العالم الثالث؛ وتضاعفت أيضاً النزعات العرقية وصراعات الأديان في كل مكان، جاعلة من الولايات المتحدة الحَكَمَ للفصل في النزاعات الجديدة.

استطاعت أميركا، من أجل تحرير الكويت، وهي دولة ـ مدينة نفطية، إرسال نصف مليون جندي غربي للسيطرة على شبه الجزيرة العربية، وضُرب الحصار على الشعب العراقي وجُوِّع وقُتِل، لأجل خير البشرية! باشرت كذلك جحافل الحلف الأطلسي قصفها على صربيا زاعمة أن دوافعه «إنسانية»، وسط موافقة دولية شبه إجماعية لمثل هذا العمل، ولم يعترض أحد في الدوائر الغربية على قدوم «مجاهدي الإسلام» من العرب الذين قاتلوا الجيش السوفياتي في أفغانستان لمناصرة مسلمي البلقان أو القوقاز.

انحراف «الملحمة» الإسلامية عن مسارها

غير أن هذه «الملحمة» النابعة من «الصحوة» الإسلامية أخذت تنحرف.

= الناصرية، إلى نظام إسلامي بتأثير من المملكة العربية السعودية ـ التي قدّمت مساعدات مادية هامة كانت بمثابة مسهّل قوي المفعول للتغيير ـ مما أدّى إلى نشوء حرب محتمة بين الحكم الذي فرض تطبيق الشريعة الإسلامية على كل السودانيين، وسكان جنوب السودان حيث أغلبية السكان إما مسيحيين وإما باقين على الديانات الوثنية الأفريقية.

في بادئ الأمر، بدأت عناصر من الحركة الإسلامية في الجزائر، ربما بالتواطؤ مع أحد فروع السلطة العسكرية الجزائرية، تعمل على تشويه صورة هذا البلد الذي كان سابقاً منارة العالم الثالث. وفي الوقت نفسه نُفاجَأ بانتشار لبس الجلباب والحجاب في أوساط الجاليات المهاجرة مبرقشةً المناظر المدينية والبورجوازية في العواصم الأوروبية الكبرى، وكأنها مشهدٌ انتُزع من عصور غابرة ليزيّن بغرابة العواصم العملاقة للحداثة الغربية. وها هي «شبكات الله» و«ضواحي الإسلام» التي يمكنها أن تُخلّ غداً باستقرار الغرب[٢٠]، وتجد فيها الأحزاب السياسية اليمينية المتطرفة في أوروبا الذريعة الكافية لبثّ أفكارها العنصرية.

هكذا، أصبح الإسلام يثير الخوف في أوساط الغربيين: إنه قنبلة ديموغرافية تحاصر الغرب وتخلق فيه طابوراً خامساً. أليس هذا الإسلام الذي طالما دلّلته الدوائر السياسية والأكاديمية الغربية، بحيث قوبل بالترحيب وتمكّن من الانتشار في كل مكان هناك، ناكراً للجميل؟ لا همَّ له إلا أن «يبخّ» باستمرار سمّ الكليشيهات والتعابير الجاهزة في وجه الغرب؛ لا همّ له إلا أن يقول عن الغرب إنه ملحد وعلمانيّ ومُدبّر لتلك «المؤامرة اليهودية ـ المسيحية» ضد الإسلام. وها هو يُهاجم الفِرَق العسكرية الأميركية التي أتت إلى شبه الجزيرة العربية لتحمي الكويت والمملكة العربية السعودية، ويعتدي على سفارتي الولايات المتحدة في أفريقيا.

عندما حصل الاعتداء على «أوكلاهوما»[٢١] سيتي في الولايات المتحدة

---

٢٠. راجع: أنطوان صفير، **شبكات الله: فروع الحركات الإسلامية في فرنسا وفي أوروبا** Antoine Sfeir, *Les Réseaux d'Allah: Les filières islamistes en France et en Europe*، منشورات Plon، باريس ١٩٩٧؛ وجيل كيبل: **ضواحي الإسلام**، المصدر المذكور آنفاً.

٢١. دُمّر في هذه المدينة مبنى للوكالة الفيدرالية للاستخبارات الأميركية F.B.I. على يد مجموعة أميركية يمينية متطرفة، وتمّ فوراً اتهام «الإرهاب» العربي أو الإسلامي بهذا العمل على مدى أيام قبل أن يقع أحد المسؤولين الأميركيين عن هذه العملية في قبضة السلطات الأميركية.

عام ١٩٩٥، أخذت أصابع الاتهام تشير بشكل حاسم إلى المسلمين. ثم أصيب الجميع بالذهول عندما تبيّن لاحقاً أن المسؤول عن العملية أميركي «قحّ» يضمر حقداً ذا طابع فوضوي على الدولة الفيدرالية. لا ينحصر، إذاً، الجنون بالإسلام، لكن منظمة «الجهاد الإسلامي» و«حزب الله» و«حركة حماس» هي التي تتعرّض لسمعة سيئة. فبعد اعتداء الحادي عشر من أيلول، بذل الإسرائيليون كل ما في وسعهم للتأكيد على العلاقة بين عناصر القاعدة المنتمين إلى منظمة ابن لادن، والمنظمات الإسلامية التي تحارب الاحتلال الإسرائيلي في لبنان وفلسطين. بات الإسلام من الآن فصاعداً معادلاً للإرهاب. فهل سيصبح الإسلام، آخر الديانات التوحيدية، طريدَ النظام الجديد الذي يفرضه الغرب المهيمِن على العالم؟ وماذا سيكون مصير هذا الدين الإسلامي الذي تمّ جعله غريبَ الأطوار ومنبوذاً، بعد أن تعرض لفرنجة منحرفة تحت وطأة الاستعمار الأوروبي والثقافة الغربية الظافرة؟

يصعب علينا الجواب عن هذا السؤال الآن، لأن جزءاً من الإجابة موجود في المسار المستقبلي لتطور الفكر الغربي والسياسة الدولية. ثم إن الثقافة الغربية لا يمكن توقع ردود فعلها، لأن طابعها الأساسي هو بُعدها الجدلي والتناقضي، وصعوبة إيمانها بقناعات ثابتة، وكذلك طابعها النضالي والأيديولوجي الذي اتسمت به منذ عصر النهضة: يحكمها الخطاب النرجسي عن الذات والتحقيري عن الآخرين؛ النماذج التوراتية الأولية والنبوية ولاهوت الخلاص و«الشعب المختار» التي تهيكل هذا الخطاب العلماني الذي ادّعى إزالة الصفة الدينية عنه؛ الصِدام بين الميل إلى تقوية الحريات إلى أقصى حد، والميل إلى تبني النموذج النبوي في نشر الأفكار والمعتقدات. كذلك، لا تتمثل معجزة الغرب في قوته بحد ذاتها، بل في قدرته على الحفاظ على هذه القوة وتوسيعها، بينما يكاد يقضي على نفسه وهو يبتلع الآخرين. الغرب هو أيضاً التأرجح بين مواقف متطرفة ومتناقضة

طبعت القرن العشرين وقبله القرن التاسع عشر.[٢٢] إنه الثورة والثورة المضادة في آن. إنه المواجهة العاتية بين الرأسمالية والاشتراكية. إنه العلمانية الداعية إلى إطلاق الحرية بشكلها الواسع ومواطنية على النسق الجمهوري، ويمثّل في الوقت نفسه حركة الانجذاب إلى تأكيد الهوية والانتماء العرقي والديني والتمسّك بتقاليد تخطاها الزمن، والنفور منها في آن، وغالباً المزج بينهما. هذا ما لا نستطيع تمييزه جيداً، لأن الغرب يبقى دائماً ظافراً، ولأن لدينا ميلاً إلى التباس بين القوة والرشدانية.

أما اليوم، فإن الغرب يقودنا إلى معركة أخرى: معركة العولمة الاقتصادية التي تريد إرساء نظام عالمي جديد و«عادل». فهل سنكون أكثر حكمة وتبصُّراً إزاء هذه المعركة؟

---

٢٢. نستعيد هنا عنوان الكتاب لإريك هوسباوم: **زمن التناقضات المتطرفة: تاريخ عصر القرن العشرين** Eric Hosbawm, *L'Âge des extrêmes: Histoire du court xx^e siècle*، منشورات Complexe، بروكسيل ١٩٩٩.

الفصل السابع

العولمة الاقتصادية والنظام العالمي الجديد

التبادل الحر يحقق خلاص البشرية

زالت فكرة العالم الثالث من الخطب الاقتصادية، وكرّس اندحار الشيوعية هيمنة الأيديولوجيا الليبرالية الجديدة بكل ما فيها من تصلّب. عرفت هذه الأيديولوجيا انطلاقتها الجدية الأولى في بداية الثمانينيات مع وصول مارغريت تاتشر إلى سدّة رئاسة الحكومة في بريطانيا ورنالد ريغان إلى رئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة، وأيضاً مع سقوط نظرية كينز[1] الاقتصادية وسيطرة نظريات ملتون فريدمان Milton Friedman[2] النقداوية. وتسببت هزيمة الفكر الاشتراكي في الغرب أيضاً بهزيمة المفكرين المعتدلين المطالبين بحل وسط بين الرأسمالية والاشتراكية. وأصبح من جراء ذلك، يُنظَر إلى دور الدولة في إدارة الشأن الاقتصادي بطريقة سلبية للغاية، إذ لا يمكن

---

١. كينز Keynes (١٨٨٣ـ١٩٤٦): اقتصادي ومالي بريطاني. كان لنظرياته في الاقتصاد تأثير كبير على السياسات الاقتصادية في العالم. فهو يرى أن واجب الحكومات أن تصرف جميع جهودها لتأمين العدد الكافي لفرص العمل، وذلك عبر تدخل الدولة من جراء قيامها بالمستوى المناسب من الاستثمارات التي تخلق الفرص العمل.

٢. ملتون فريدمان Milton Friedman عالم اقتصاد أميركي. له دراسات هامة في المسائل النقدية. نال جائزة نوبل عام ١٩٧٦.

تحقيق خلاص البشرية، وفقاً للفكر الليبرالي الجديد، إلا من خلال المبادرة الخاصة المتعارضة مع مبادرة الدولة، ومن خلال اقتصاد السوق الحر، لا الاقتصاد الاجتماعي، كما ادّعت ذلك الرأسمالية الألمانية لوقت طويل. وهكذا، انطلقت آلة تسير عشوائياً، تعمل من أجل التحرير الاقتصادي، وتعمل على إزالة المؤسسات العائدة إلى الدولة في البلدان الشيوعية سابقاً وفي أميركا اللاتينية والعالم الثالث، وتخلّف كل يوم فقراء جدداً.

أُنشئت منظمة التجارة العالمية على أنقاض «اتفاقية الغات» (الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة)، بعد إتمام جولات المفاوضات التجارية الدولية الكبرى التي بدأت في الستينيات واختُتمت في مراكش عام ١٩٩٤. نصّبت منظمة التجارة العالمية نفسها حارساً لتحرير المبادلات في السلع والخدمات على الصعيد الدولي. وقام الاتحاد الأوروبي بتوحيد أسواق أعضائه التجارية واستحدث عملة موحدة هي «اليورو»، كما يحاول جرّ بلدان المتوسط إلى تكوين منطقة للتبادل الحر. كذلك، وقّعت الولايات المتحدة مع المكسيك وكندا اتفاقات في إطار الهدف نفسه. وهكذا، أصبحت الكلمة الفصل للتبادل الحر من أجل تحقيق خلاص البشرية.

إنها «حملة صليبية» جديدة من سلسلة الحروب التي يستطيع الغرب وحده شنّها، مستنفراً كلَّ طاقاته ومواهبه وأمواله ووسائل إعلامه وأبحاثه الأكاديمية بغية إنجاح هذه المغامرة الجديدة. أما الجنة الموعودة فهي «عولمة الاقتصاد»، وتنحصر وسائل تحقيقها في حرية الاقتصاد والتبادل الحر وانسحاب الدولة من الميدان الاقتصادي.

ليست أسطورة الرخاء الاقتصادي الشامل أو نظرية «الخبز للجميع» جديدة. إذا عدنا إلى التوراة فقد نفهم ذلك بشكل أفضل: ألحق اللهُ الفقرَ والعوز بالناس والبشرية انتقاماً منه لكبريائهم وتغطرسهم. وحين طرد آدم وحواء من الجنة، قال: «تأكل خبزك بعرق جبينك.» لكن الثورة الصناعية الأوروبية، حفيدة عصر النهضة وفكر عصر الأنوار، واجهت التحدي، وقد

أتاحت المنجزات الهائلة التي حققتها أوروبا في مجال العلوم والتقنيات التغلبَ على ندرة الموارد.

مع الدولة أو من دون الدولة؟ هذا هو السؤال الكبير الذي ظنت الأحزاب الآمنة بالديموقراطية الاجتماعية الأوروبية[٣] أنها قادرة على الإجابة عنه بعد الحرب العالمية الثانية، وتصوّرته منزلةً متوسطة بين الأيديولوجيات المعادية للاشتراكية والرأسمالية. لكن الديموقراطية الاجتماعية تقاوم اليوم بصعوبة هجمات الليبرالية الجديدة التي تأخذ على عاتقها تحقيق كل الوعود السابقة بإقامة الجنة الاقتصادية، وذلك عن طريق انحسار الدولة وتنشيط التبادل الحرّ. هذه هي التجارة ذات الأثر «الطيب» على قلب كل من مونتسيكو وآدم سميث.[٤]

ليس هدفنا هنا محاكمة الأيديولوجيا الليبرالية الجديدة وأنواع تطرفها، بل الإيضاح أن المعارضة التي تواجهها هذه الأيديولوجيا منذ بضع سنوات لم تأتِ من العالم المتخلِّف، وهو الأقل تجهيزاً للإفادة من إطلاق حرية التبادل هذه، ولا من البلدان الشيوعية سابقاً حيث عادت الفروقات الاجتماعية إلى الظهور وكثرت المظالم ولحق الإجحاف بالناس وعادوا إلى ما كانوا عليه من الحرمان قبل قرن وأكثر قبيل استلام الأنظمة الاشتراكية الحكم، بل إن هذه المعارضة انطلقت عام ١٩٩٩ من داخل آلة القوة الغربية، كتابةً وقولاً وتظاهراتٍ جماهيريةً. وهي معارضة قوية انقلبت شغباً

٣. وهي أحزاب انشقت أساساً عن الحركات الشيوعية لعدم إيمانها بنظرية ديكتاتورية الطبقة العاملة لتحقيق المساواة بين الناس، وإنما حافظت على الهم الاجتماعي في رسم السياسات الاقتصادية وتطبيقها.

٤. Montesquieu و Adam Smith هما من كبار فلاسفة عصر الأنوار في أوروبا، الداعين إلى إقامة النظام الليبرالي في المجال السياسي كما في المجال الاقتصادي. يؤمنان بأن للتجارة أثراً إيجابياً على الحرية والانفتاح الفكري والثقافي، ولذلك فهما يقولان بأن التجارة «تهذب» الأخلاق وتجعلها دمثة، ولذلك يصنفون التجارة بأنها دمثة ولطيفة. le doux commerce.

في الشوارع، مستنفرةً مختلف قطاعات المجتمع (النقابات العمالية والمزارعين والأحزاب المدافعة عن البيئة وعلماء الاقتصاد اليساريين وممثّلي المنظمات الإنسانية الغربية العاملين في العالم الثالث). وأثار استنفارها هذا ردود فعل قوية لدى الدول، وانضمت إليها الجماعات الأميركية المعارضة للتبادل الحر، مشكّلة رافداً مهماً في هذا الحلف غير المتجانس. ولم تتحرك المنظمات التابعة للعالم الثالث إلا مؤخراً، معلنةً انضمامها إلى صفوف المعارضين الغربيين للعولمة.

يحمل الغرب، إذاً، في طياته، بالذات، تناقضاته، ذلك أنه منذ انتهاء الشيوعية وزوال التأثير الذي كان يمارسه العالم الثالث في إدارة الشؤون الدولية (لا ننسى أن زوال هذا التأثير مرتبط بأفول الشيوعية)، أصبح الغرب سيد اللعبة بلا منازع، في كافة الميادين. لقد شكّلت حرب الخليج رمزاً يختصر هذا الوضع الجديد حيث زال نفوذ الدول الكبير ـ ما عدا الولايات المتحدة وحلفاءها في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ـ التي كانت فاعلة على الصعيد الدولي، مثل الصين وروسيا والهند ومصر. ولم يعد هناك إلا هدف واحد للتاريخ تمليه سياسة تعميم العولمة الاقتصادية، بانضمام الجميع إلى منظمة التجارة العالمية لتتحقق سعادة البشرية من خلال التجارة «اللطيفة». هذا هو المثال الذي تتّبعه بلدان أوروبا الغربية منذ وقت طويل، وسلكت سبيله منذ ١٩٥٦ بعد أن أنهكتها الحروب وأعمال العنف.

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة وعدت بنظام عالمي جديد أكثر عدلاً وانسجاماً، يوفّر الإنصاف والعدالة للجميع، وذلك بعد حرب الخليج الثانية التي أدّت إلى استيطان عسكري مباشر، واسع النطاق، للقوات الأميركية في الشرق الأوسط، مترافقاً مع انهيار الاتحاد السوفياتي. استُنفرت منظمة الأمم المتحدة لإجبار العراق بالقوة العسكرية على الجلاء عن الكويت، وكان هذا أول قرار متخذ في إطار النظام العالمي الجديد. بالطبع، تعثر الشعار القائل بنظام أكثر عدلاً في رمال الصحراء، وأصبحت الولايات

المتحدة الزعيمة الوحيدة المتحكمة بلعبة السياسة الدولية، تدير شؤون العالم بمفردها أو إلى جانب الحلف الأطلسي والأمم المتحدة، وذلك تبعاً للظروف المستجدة أو المصالح الراهنة. أما الاتحاد الأوروبي فبقي حليفاً وفياً لا يناقش كثيراً القرارات الأميركية. وتركزت الأنظار على العامل الاقتصادي، والمغامرة الكبيرة للعولمة، والجنة الجديدة الموعودة للبشرية.

مغامرة العولمة الكبرى: من ١٤٩٢ إلى الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١

العولمة تجربة كبرى حيث تتحرك الناس والتقنيات والرساميل والسلع والخدمات وتتنقل وتنتشر، بينما تتضاءل الحواجز أكثر فأكثر. العولمة هي غزو العالم الذي ابتدأ منذ عام ١٤٩٢[٥] ويستمر حتى أيامنا هذه: أَوْرَبَة[٦] العالم، فرنجته، عصرنته، عولمته... إلخ. الحركة نفسها والمسار نفسه لكن بمصطلحات جديدة. ها قد سجّل الغرب انتصاره، الغرب البروميتي،[٧] غرب النهضة الأوروبية والثورة الصناعية، غرب الاختراعات الأميركية المتجلية في جميع الميادين. وقد انضمّ إلى مغامرة العولمة بعض الدول مؤخراً: اليابان أولاً ومن ثمَّ «نمور» جنوب شرقي آسيا (كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وماليزيا)، وأيضاً دول أوروبا الشرقية التي شهدت فترة من الرأسمالية الصناعية قبل سقوطها تحت نير الشيوعية السوفياتية، مثل الجمهورية التشيكية وبولونيا وهنغاريا، حيث تتدبّر هذه الدول أمورها نوعاً ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وتنضم إلى العالم المعولم بالرغم من اتساع رقعة الفقر فيها.

---

٥. هذه السنة هي التي تمّ خلالها فتح أميركا الجنوبية على يد كريستوف كولومبس Christophe Colombus باسم ملك إسبانيا.

٦. أَوْرَبة، بمعنى européanisation أي جعل العالم يفكر ويعيش بطريقة وأسلوب أوروبيين.

٧. نسبة إلى بروميته Prométhée وهو إله النار في الميثولوجيا اليونانية. وقد اختطف مؤسس الحضارة الإنسانية النار المقدسة من السماء ونقلها إلى البشر فعاقبه زفس Zeus وقيّده على جبل القوقاز حيث كان ينهش كبده المتجددة باستمرار عقاب كاسر، ومن ثم خلّصه هيراكليس.

لكن، إذا أردنا تقييم الوضع في الأمكنة الأخرى، فنجد بياناً أكثر تمايزاً وتناقضاً. لقد خلقت العولمة في كل مكان من العالم الثالث أثرياء منتفعين وطبقات اجتماعية جديدة ومناطق لجذب الاستثمارات الأجنبية الهامة في بعض البلدان الكبرى، كالصين، وأوجدت قطاعات أو فروعاً للنشاطات الاقتصادية التي تتنازل عنها الشركات المتعددة الجنسيات أو تتعاقد مع شركات محلية للإنتاج نظراً إلى رخص اليد العاملة، مما يساهم في إيجاد فرص عمل كثيرة، كما يحصل في الهند مثلاً مع عقود المقاولة من الباطن في مجال المعلوماتية. لكنْ، هل تؤدي موجة العولمة الجديدة هذه إلى الرفاهية المعممة والمنشودة؟ هناك العديد من المؤلفات تُصدرها المنظمات والمؤسسات الدولية (منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية والاتحاد الأوروبي) بغية الترويج للعولمة؛ ووسائل الإعلام المهيمنة (كالمجلة الأسبوعية البريطانية المرموقة: **الاقتصادي** ***The Economist***) ترصف الأرقام والإحصائيات التي يفترض بها أن تبرهن أهمية العولمة ودورها الطليعي. بالمقابل، يُصدر المناهضون للعولمة مؤلفات أخرى أكثر إقناعاً يثبتون فيها العكس، أي تزايد الفقر والتهميش الاجتماعي والبروز الحاد لتفاوت المداخيل وتردي الوضع البيئي. وكم يصعب على الإنسان الاهتداء إلى طريقه وسط هذه المعمعة السائدة، وكم عليه أن يتحلى بالدهاء ليتمكن من تكوين فكرة واضحة ومستقلة عما يجري، فالأدبيات المناهضة للعولمة قليلة الانتشار نسبياً بينما الأدبيات الأخرى مهيمنة في كل مكان وتسيطر على وسائل وقنوات الإعلام الكبيرة.

إن معارضة النفوذ الأميركي إثر حرب الخليج الثانية منذ عشر سنوات، بدأت تأخذ منذ اعتداء الحادي عشر من أيلول، منحىً جديداً، لكنها تبقى مع ذلك مهمشة نسبياً. فهل سيكون اعتداء الحادي عشر من أيلول عامل جذب وتمركز للحركات المناهضة للعولمة؟ أم سيساعد، بخلاف ذلك، دعاة العولمة على تذليل آخر الصعوبات الموضوعة في طريق تحقيقها؟ وهل

ستلجم حرب الحضارات والشرخ بين الشرق والغرب، هذه العولمة، أم سيعملان على تسريع مسارها؟ لا يسعنا الإجابة عن هذه التساؤلات إلا من خلال امتحان الدينامية الغربية نفسها التي نسعى إلى تحديدها في هذا الكتاب، ومن خلال امتحان دينامية فرنجة العالم الذي أصيب بالذهول لدى اكتشافه ثبات «رجل الكهوف»، ابن لادن وأعوانه: تلك الدُمى التي صنعتها القوة الأميركية نفسها وأتقنت استخدام الإسلام لتأمين مصالحها من خلالها، قبل أن ترتد وتنقلب عليها.

هذه هي الإشكالية المحبِطة التي نجد أنفسنا سجناءها، وليس سهلاً إيجاد منفذ للخروج منها. فمناهضو العولمة يجدون في الكارثة التي نتجت عن اعتداء الحادي عشر من أيلول ما يغذّي انتقاداتهم ومخاوفهم، بينما يجد دعاة العولمة فيها ما يدفعهم إلى الانقضاض بحيوية أكثر من أجل تحقيق أهدافهم. لا يبدو أن أحداً قادر على استشراف المستقبل، مع العلم بأن المفكرين الغربيين التقليديين يُطمئنون أنفسهم إلى أن الحرب التي شُنت في عقر دار العدو (أي حملة القصف الأميركية على أفغانستان) لم تؤدِّ، بخلاف التوقعات والمخاوف، إلى أي حركة عصيان أو تمرد عام في صفوف «البرابرة»: لم ينتفض «البرابرة» الموجودون خارج أفغانستان ولم يهبوا للعصيان، لا في آسيا ولا في الشرق الأوسط، مهد الإسلام؛ كما لم تُلاحَظ أي نشاطات معادية للغرب داخل الجاليات المسلمة القاطنة في دياره. أما الحكومات «المسلمة» المتحالفة مع الغرب، فصمدت في وجه الأزمة الصعبة، ولم تتهاوَ واحدة منها تحت ضغط جماهيرها الغاضبة.

لكن، هل يمكننا إغماض العيون وصمّ الآذان والتصرف كما لو أن اعتداء الحادي عشر من أيلول لم يحصل، أو كما لو أن هدف العولمة لم يُمَس أو لا يحتاج إلى تعديل أو إعادة نظر؟ هناك موقف معتدل ومتنور قيد التكوين يدعو إلى العمل على التصدي بحزم أكبر للفقر والتهميش والأنظمة الديكتاتورية وانتهاك حقوق الإنسان في العالم الثالث، وذلك بهدف أن

نتجنب في المستقبل بروز ظواهر كظاهرة ابن لادن وما تلقاه من تجاوب في صفوف المنبوذين والمعدومين. لكن هذا الموقف يصطدم بموقف آخر يتسم بالشك تجاه «فرنجة» العالم. ولهذا الشك مصدران فكريان مختلفان: جوهراني يمثله الجوهرانيون المقتنعون باستثنائية النموذج الغربي الذي لا يمكن تصديره إلى مكان آخر، وآخر يمثله دعاة النقد الذاتي الذين يعتبرون أن النموذج الغربي خطر وغير مثالي وظالم، ويجرّ بسبب شططه دماره بالذات. الجوهرانيون متشائمون ويعتبرون أن على الغرب أن يتحصن داخل حدوده وألا يقوم بالتبشيرية لقِيَمه ونمط حياته، بل أن يتمسك بهذه القيم ويقوم بالحرب إذا رأى أن مصالحه الحيوية في خطر (حرب الخليج الثانية) أو إذا كان هدفاً لاعتداء خارجي (اعتداء الحادي عشر من أيلول وحرب أفغانستان). أما دعاة النقد الذاتي، فيرون أنه يجب الحؤول دون تصدير النموذج الغربي إلى العالم الثالث، ولا يؤمنون بمصداقية هؤلاء الذين يعتبرون أن بالإمكان الإصلاح والحد من الشطط. بالنسبة إليهم، لا تملك الخُطب الصادرة عن الأمم المتحدة أو عن الهيئات الكبرى للتمويل، كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ذرة من المصداقية. بالمقابل، يعتبر الجوهرانيون أن كل مساعدة إضافية للعالم الثالث لا يمكنها إلا أن تؤدي إلى زيادة في الهدر، وإمعان في إثراء حكام متفعين وفاسدين.

تبدو، خلف هذه الوحدة الظاهرية، خارطة المواقف الغربية معقَّدة: من الموقف السياسي المتطرف الداعي إلى استعمال القوة في تحقيق مآربه ودوام الاستعداد للقتال والحرب، إلى الموقف المتّسم بالحيرة الفكرية والمتسامح حيال تعددية القيم في العالم، بالإضافة إلى الموقف الداعي إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى وتشجيع تزاوجها، وفي الطرف الآخر الموقف الانغلاقيّ الملتف على القيم الغربية والرافض لكل حوار واندماج بين الثقافات. ويعلو، وسط هذه الجوقة من المواقف الغربية المتنوعة، صوت الخطاب التقليدي الذي ينفخ في بوق العولمة من دون توقف.

خطاب العولمة أم خطاب بشأن الهوية

لكن، يجب أن ندرك أن هذا الخطاب المهيمن يمارس نفوذاً متزايداً على الإدارة الاقتصادية للعالم. تكمن قوة هذا الخطاب في ترديده المستمر أن الازدهار الاقتصادي الشامل يمكن تحقيقه شرط أن تُرفع القيود عن التبادل والتجارة، وتتمتع الشركات المتعددة الجنسيات ورجال الأعمال بالحرية الكاملة لكي يفيدوا من مواهبهم بشكل تام. وقبل أن تتدنى في البورصة الأميركية قيمة أسهم الشركات المخترعة لتكنولوجيات جديدة معقدة High Tech، كانت نماذج النجاح الفردي والإثراء الاستثنائي على طراز التكنولوجيا الفائقة التطور وعلى طريقة وادي السيليكون Silicon Valley،[8] واجهةً جذابة لتسويق الرأسمالية الليبرالية الجديدة إلى أقصى الحدود، ورمي الرأسمالية القديمة ذات النمط الاجتماعي ـ الديموقراطي على الطريقة الأوروبية.

أما خارج الغرب، فهناك أصحاب الثروات الجدد الذين ازدهروا في كل مكان. منهم من ظهروا بعد الارتفاع الجنوني لأسعار النفط ومن حولهم السماسرة والوسطاء الذين أُوكلت إليهم إدارة أموال الرِّشى المدفوعة للحصول على الصفقات الكبيرة في العالم الثالث، أو حتى في بعض الأحيان في الغرب نفسه، وإعادة توزيع هذه الأموال على المسؤولين السياسيين. (كشفت في فرنسا قضية فضائح الرِّشى المالية الموزَّعة من قبل الشركة النفطية الفرنسية المشهورة Elf، على سبيل المثال، أهمية الأموال المستخدمة). ومنهم أيضاً أصحاب الثروات الجدد الذين أنتجتهم الرأسمالية المتوحشة المتحررة من كل قيد، والتي نهضت على أنقاض الأنظمة الاشتراكية، وهم إجمالاً المسؤولون السابقون عن الأحزاب الشيوعية الحاكمة الذين ارتدّوا إلى

---

٨. وادي السيليكون Silicon Valley: منطقة في كاليفورنيا تتركز فيها كل إنجازات التكنولوجيا الفائقة التطور.

سوق المضاربة والتجارة ليشاركوا في نهب ثروات بلادهم. وهكذا، فإن المنتفعين من الخطاب المهيمِن والمصفّقين له كثيرون.

لا ننسى، هنا، الإشارة إلى عامل قوة إضافي ذي فعالية بالغة، يتعلق بالطلاب الذين يفدون من العالم أجمع، بأعداد متزايدة، ليتابعوا دراستهم العليا في الولايات المتحدة، حيث تؤمّن الشهادات الجامعية الأميركية في الشؤون المالية وإدارة الأعمال والاقتصاد لحامليها علاوةً في الراتب والمزايا الملحقة به في السوق الدولية للعمل، مقارنة مع حَمَلة الشهادات الوطنية أو حتى الذين تخرجوا من الجامعات الأوروبية العريقة. وهكذا، أصبحت الولايات المتحدة «كعبةَ» الرأسمالية ومحجَّها، حيث يزداد النفوذ الفكري المتصاعد من أيديولوجيا ليبراليتها الجديدة المناضلة، توهُّجاً وإشراقاً في جامعاتها.

ترتكز أيديولوجيا العولمة، إذاً، على قاعدة واسعة، ولا يبدو أن زاولها وشيك، ولا يلوح في الأفق شيء ينذر بأفولها. فالتطوير المستمر للسلع الجديدة والخدمات في كافة الميادين، والترويج لها عبر كافة أجهزة الإعلام الدولية، ولو بشكل عابر، لا يزالان يمارسان تأثيراً كبيراً في النفوس. لن تكون مهمة الحركات المناهضة للعولمة، إزاء ذلك، سهلةً، ولن يكون أيضاً سهلاً إقناع الفقراء بأن هذه الجنة الاستهلاكية والتكنولوجية جنة مصطنَعة، وأن الدخول إليها سيبقى متعذراً عليهم إلى الأبد. وتأكيداً على ذلك، فإن حركة مناهضة العولمة تعتمد على الطبقات الوسطى في البلدان الغنية، مُثيرة بشكل خاص المسائل المتعلقة بالتلوث البيئي والصحة الغذائية ونوعية الحياة. لكن اللافت أن كل هذه الأمور لا تلقى صدى في البلدان الفقيرة، حيث الانبهار بالحياة على النمط الغربي في أَوْجِه. «الماكدونالدز» و«الكوكا كولا» والسيارة الفردية أو الهاتف المحمول: كل تلك الأمور رموز جذابة، ولا تزال تمارس تأثيراً هائلاً، لا بل إن تأثيرها يتزايد في عالم تزدهر فيه أشكال التعبير عن الهوية والانتماء، ولا سيّما أنها تجسّد بالنسبة إلى الكثيرين مثالاً لحياة مشتركة جامعة تُطمَس فيها كل التناقضات والفروقات.

قد تبعث هذه المشاهَدات المبنية على الواقع الموضوعي للأمور، على الإحباط، لكنها تُظهر بالتأكيد أفول دور المنطق السياسي، بالمعنى النبيل للكلمة، في إدارة المجتمعات. وهنا، تكمن المشكلة الأساسية التي يجب التصدي لها. هذا الأفول أحدثه التطور الفكري للغرب نفسه حيث يتفوّق الآن الخطاب النرجسي الذي حاولنا وصفه وتحليله عبر هذا الكتاب، على الخطاب النقدي الذي انحسر في الحيّز الاقتصادي، كما تراجع نفوذ كل التيارات الفكرية التي احتضنت هذا الخطاب سابقاً. يجدر بنا التذكير ببساطة بالأعمال المميزة التي صدرت عن «نادي روما»[9] في السبعينيات، وحذّرت من هدر الموارد غير القابلة للتجديد، ومن النتائج الاقتصادية المشؤومة المترتبة عن ذلك. كما نذكّر أيضاً بكل الأدبيات الملتزمة التي وُضعت في تلك الفترة، ونادت بضرورة إقامة نظام اقتصادي أكثر عدالة. إلا أن انتصار الليبرالية الجديدة قد أطاح، للأسف، بكل هذا التيار الفكري، وتطاير الفكر النقدي أمام هذا الانتصار هباءً منثوراً.

لهذه الأسباب مجتمعة، تجد الانتقادات المناهضة للعولمة صعوبة في بلورة خطاب معاكس لخطاب العولمة، يمكن أن يلقى آذاناً مُصغية، أو يمكنه على الأقل أن يغيّر في توجه الفكر السائد أو يُحدث تغييراً في السلوكيات الاقتصادية للنافذين على الصعيد الدولي. لم تواجه النزعة النبوية messianisme للعولمة ما يتهدّدها ويشكّل عائقاً وتحدّياً لها حتى الآن، باستثناء تظاهرات الشارع أو الاضطرابات التي تثيرها إبّان انعقاد المؤتمرات الاقتصادية الدولية، علماً بأن هذه الاضطرابات تسيء إلى رسالة الحركات المناهضة للعولمة أكثر مما تخدمها أو تصب في مصلحتها.

إذا كان يمكن استخدام رمزية الحادي عشر من أيلول من أجل إعادة إحياء

٩. «نادي روما»: مجموعة أُنشئت في نيسان ١٩٦٨ وتضم أساتذة جامعيين ورجال أعمال وباحثين، يتركز همهم على معالجة المشاكل التي يطرحها مستقبل البشرية.

الفكر النقدي، فهذا لأنها ترمز إلى انتفاضة سياسية شاملة أكثر مما تشير إلى تحدي النظام الاقتصادي الجديد. ويبدو مُلحّاً، في الوقت الحالي، إرجاع الدور إلى المنطق السياسي لأنه هو الذي يعطي معنىً للنقد التقني لآليات العولمة.

حذارِ أن نخدع أنفسنا، فالتبشيرية التي تَعِدُ الجميع بالوفْر، مهما تكن غوغائية، تمارس تأثيراً تصعب مقاومته. فالخطاب الغربي حول الأصول والهوية والانتماء، أو الخطاب المضاد المعادي للغرب، حلّ منذ عدة عقود مكان الخطاب السياسي الصِّرف. ويسهِّل هذان الخطابان المتضادان مهمة الليبرالية الشمولية الجديدة، وكأنّها يمكن أن تصبح هي اللغة الوحيدة المشتركة لجميع الهويات المتواجهة. ولكن، بغية ذلك، يجب ألا يكون نظام العولمة الاقتصادية الجديد رديفاً لنظام امبريالي تحت إمرة الغرب، بل أن يكون نظاماً ديموقراطياً بكل معنى الكلمة، وهذا ما لا نلمسه حتى الآن.

إخفاق المبادئ الديموقراطية في النظام الدولي

يمكن أن نستخلص عبرة من تاريخ الغرب، وهي أن القوة لا تعني الحق، والمعرفة لا تعني الحكمة. لا يُقرّ الغرب بذلك، ولهذا السبب لم يستطع إقامة نظام امبريالي مستقر وعادل، سواءً داخل حدوده، أم في علاقاته مع المناطق الأخرى من العالم.

لم يستطع الغرب إقامة هذا النظام داخل أوروبا: سبق وأحصينا الحروب الأهلية التي اتخذت شكل الحروب الثورية، ثم القومية، والتي أعقبت الحروب الدينية وسبقت الحرب الباردة، من دون أن ننسى المجازر الشائنة التي أُلحقت بالجاليات اليهودية وبالغجر. لم ينجح الغرب في علاقاته مع باقي دول العالم: ذكّرنا بمجازر الإبادة التي تعرّض لها هنود أميركا وبتجارة النخاسة وبيع الرقيق الأفارقة التي ما إن اختفت في أوروبا حتى ازدهرت في الولايات المتحدة. وأشرنا أيضاً إلى الاستعمار وإخضاع القارات كلها تقريباً لسيطرة الغرب، كما تطرقنا إلى إنشاء دولة إسرائيل: آخر مشروع استعماري استيطاني كبير تحت شعارات توراتية فاقعة.

إزاء هذه المآسي التاريخية، لم تكن الإنجازات التي حصلت خلال العقود الأخيرة في تطوير القانون الدولي، مُقنعة البتة. كان إنشاء عصبة الأمم عند نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم منظمة الأمم المتحدة عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجربة فاشلة. والسبب أن هاتين المنظمتين اللتين يُفترض بهما أن تعملا على إحلال العدالة والسلام، لم تتمكنا من منع الحروب ولا ردع العنف ولا محاربة الجوع. كذلك، لم تنجح كل المثالية العقلانية، التي تتجسد في الثقافة الغربية من خلال الكتابات الشهيرة عن «السلام العالمي» للأباتي دو سان ـ بيار[10] Abbé de St-Pierre أو للفيلسوف الألماني كانط،[11] في أن تكون الإطار الفكري لإقامة نظام دولي مستقر ومتماسك. لم يتوصل الغرب الديموقراطي إلى التحرر من «الدعوة» الامبريالية التي نذر نفسه لها منذ بدايات النهضة الأوروبية. لكأنّ الغرب غير قادر على تخطي التناقض الجوهري بين النظام الديموقراطي والنظام الامبريالي، أو لكأنه لم يكن سيد ديناميته بالذات ولا نموه المدهش أو نفوذه.

صحيح أن الحرب الباردة كانت امتداداً للتناقضات التي حبلت بها أوروبا منذ الثورة الفرنسية وصدّرتها إلى العالم، وصحيح أنها كانت حرباً شرسة للغاية. لكن، لم يؤد انتهاء هذه الحرب بانهيار الاتحاد السوفياتي إلى انفراج سياسي شامل وإعادة تنظيم العلاقات الدولية بمزيد من المبادئ

---

١٠. الأبيه دو ـ سان ـ بيار Abbé de Saint-Pierre (١٦٥٨_١٧٤٣): منظّر سياسي فرنسي، كتب «مشروعاً عن السلام العالمي» (١٧١٣) حيث اقترح إنشاء كونفدرالية تضم الدول الأوروبية. كما اشتهر بهجومه على سلطة الملك لويس الرابع عشر المطلقة.

١١. كانط Kant (١٧٢٤_١٨٠٤): فيلسوف ألماني وُلد في كونيغسبرغ. من مؤلفاته: **نقد العقل المحض، نقد العقل العملي، نقد الحكم، أسس ما ورائية الأخلاق**. يحاول في أسئلته الإجابة عن الأسئلة الأساسية التالية: «ماذا أستطيع أن أعرف؟»، «ماذا يجب أن أعمل؟» «هل هناك إمكانية للرجاء.» وضع كانط العقل في صلب الوجود ومحوره كما وضع كوبرنيك الشمس في وسط النظام الفلكي. والعقل، حسب كانط، يفعل في الإطار النظري والعملي الأخلاقي.

الديموقراطية الكبرى للّيبرالية الظافرة، حتى شرّعت الأبواب أمام ممارسات أشد عنفاً وتوسع استثنائي للنفوذ العسكري الغربي، في شقه الأميركي خاصة، في منطقة الشرق الأوسط أولاً، ثم في البلقان، وأخيراً في آسيا الوسطى. لقد استخدمت الدولةُ الأميركية العظمى منظمةَ الأمم المتحدة أو الحلف الأطلسي لتأمين الغطاء الدولي لتحركاتها. ثم إن التحفظ الذي أبدته روسيا والصين إزاء القرارات الدولية المتخَذة، وغياب التلاحم بين دول الاتحاد الأوروبي بشأن السياسة الدولية، سهّلا مهمة الولايات المتحدة في وضع الهيئات الدولية الرئيسية تحت وصايتها لخدمة مصالحها ونفوذها.

يتخذ بسط النفوذ العسكري الغربي تحت غطاء الحلف الأطلسي ومنظمة الأمم المتحدة، طابعاً «امبريالياً» وانتهازياً تبعاً للمصالح الغربية التي تمليها الولايات المتحدة على العالم. ويتمثل الانحراف الأخير لهذا النظام الدولي الجديد في كيفية تعاطيه مع الأوضاع في فلسطين، إذ يرفض الغرب، ومعه الأمم المتحدة، تقديم حماية دولية للشعب الفلسطيني الذي لم يستطع منذ عقود من الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، بسطَ سلطته على الـ٢٢٪ من الأراضي التي بقيت له من فلسطين كما حددها الانتداب البريطاني، والتي تتضاءل كل يوم مع توسع رقعة المستوطنات الإسرائيلية. كما تضع الولايات المتحدة، زعيمة النظام الدولي وضامنة أمن إسرائيل، العنفَ الذي يمارسه الجيش الإسرائيلي الجبار على الفلسطينيين، في الميزان نفسه مع الاعتداءات التي تُوصَف بـ«الإرهابية» وتقوم بها المنظمات الفلسطينية المناضلة باسم مبدأ تقرير المصير، وهو مبدأ أقرّت الحداثة الأوروبية شرعيته في النظام الدولي. والمفارقة أن هذا المبدأ يطبَّق بقوة السلاح في البلقان، ويُمنَع تطبيقه في فلسطين، ويترافق مع موافقة الغرب الشاملة والعلنية على «حق» إسرائيل في «الدفاع عن نفسها» من خلال تنكيلها بالشعب الفلسطيني وتدمير القواعد المادية والمعنوية للسلطة الفلسطينية، ورعايته الاحتلالَ الإسرائيلي الذي يسمح بالانتشار المستمر والمخيف للاستيطان.

ليس النظام الجديد الذي أعقب الحرب الباردة إلا فوضى عارمة وتنافر

أصوات مخيفاً، لا يتناهى إلى مسامع الغرب لفرط ما يطغى الخطاب النرجسي على الساحة الإعلامية والدولية، حاجباً جميع الأصوات الأخرى. إن الغرب في انقياده إلى سياسة القوة ورغبته العارمة في بسط نفوذه العسكري، لم يعد مدركاً للتناقض الصارخ في المبادئ التي يعلنها لتسويق نظامه الامبريالي حيث تظهر الأفكار الديموقراطية التي يدّعيها مجرد ديكور كاريكاتوري نافر. لذا، تتخذ الأزمة التي تواجهها فلسفة الأنوار، وكنا تطرقنا إلى دراسة جوانبها على مدى صفحات هذا الكتاب، بعداً أكثر خطورة، لأنّ مصداقية هذه الفلسفة ومصداقية القيم الليبرالية والديموقراطية التي بشرت بها وانتشرت على نطاق واسع في العالم الثالث، مهدَّدتان بالانهيار الوشيك والتام.

يتعاظم الخطر، ولا سيما أن اداء الاقتصاد في نظام العولمة الجديد ليس بمستوى الآمال التي عُلقت عليه للوهلة الأولى. هدأت، لحسن الحظ، فورة الأسواق المالية العائدة إلى تكاثر تأسيس الشركات المختصة بالتكنولوجيا الرفيعة High Tech، وهي كانت فورة غير عقلانية. لكن في الوقت نفسه، تراجعت معدلات النمو، وهي محركة الاقتصاد، في البلدان الغنية على مستويات عديدة. كما تضاعفت الأزمات المالية والاقتصادية الحادة خارج الغرب: المكسيك (١٩٩٤)، جنوب شرق آسيا (١٩٩٧)، روسيا (١٩٩٨)، تركيا والأرجنتين (٢٠٠٠). لكن، لنفترض أن السحر الذي يمارسه التطور التقني والعولمة الاقتصادية اختفى، فإلى أي مستوى خطير من الفوضى سننحدر إذاً؟

مما لا شك فيه أن وضع الهند والصين، أضخم دولتين في العالم على المستوى الديموغرافي، لا يبدو بهذا السوء. استطاعت الهند، بالرغم من كل المصاعب التي تواجهها، أن تحافظ على نظامها الديموقراطي وعلى استقرار سياسي مدهش، برغم تجدد موجة النزاعات بشأن الهوية بين السيخ والمسلمين والهندوس، مودية بحياة رئيسة حكومتها أنديرا غاندي وابنها راجيف غاندي لاحقاً. لكن النزاع القائم مع الباكستان بالنسبة إلى مصير كشمير لا يزال محتدماً ويهدد بالانفجار أكثر من أي وقت مضى. أما الصين

فبقيت مجتمعاً معقَّداً، حيث من المؤكد أن هذه المعدلات المرتفعة في النمو الاقتصادي التي تحققها وتروّج لها، تُخفي في طياتها خللاً خطيراً في الفروقات الاجتماعية والمناطقية.

الغرب إطفائي مهووس بإضرام الحرائق

يجب أن يدفع هذا المشهد القاتم للساحة العالمية إلى واقعية أكبر لكي يتم القضاء على نوابض الخطاب النرجسي المبرر للهيمنة الغربية، والذي يتذرع بضرورة تنظيم العالم بينما يعمل على تفكيكه. لن تكون المهمة سهلة لأن هناك خوفاً يعترينا بشكل لاواعٍ من أن ننحدر إلى فوضى أكبر، ويُخشى، ولو بشكل لاواعٍ، من إصابة قوة الغرب، وهو هذا الإطفائي المهووس بإضرام الحرائق.

لقد أضرم الغرب، حقاً، النيران المتعددة. بدأ منذ عصر النهضة في أوروبا بإضرام النار في منابته بالذات، وفي مؤسسات نظامه القديم قبل حدوث الثورات. ثم حمل النار إلى زوايا العالم الأربع وكان وقودها التطور التقني وغليانه الفكري المتوثب وعنفه العسكري. والغرب الذي يضرم النار هو أيضاً الذي يطفئها، لأنه وحده يملك الوسائل لإطفاء النيران التي يشعلها. لكن المأساة أنه عندما يطفئها يغدو أشدّ عنفاً منه حين يشعلها.

هكذا أشعل الغرب مجملَ الأفكار والتوجهات الشيوعية والاشتراكية ثم أطفأها بسلسلة من الحروب المتتالية خارج حدوده، وبشكل خاص في دول العالم الثالث. وما إن أطفأها حتى أشعل نيران الصراعات المتمحورة حول قضايا الانتماء والهوية الدينية أو العرقية التي اجتاحت كوكبنا، وها هو يسعى إلى إطفائها منذ الحادي عشر من أيلول بسلسلة جديدة من الحروب وأعمال العنف.

إزاء هذا المشهد القاتم، يرفض خطاب الغرب النرجسي الاعتراف بجبروته ومسؤوليته. يدّعي أن التشنجات وأعمال العنف التي تحدث ليست ناتجة عن «فرنجة» العالم، بل إن المسؤولية تقع على الشعوب المتمايزة عن الغرب والعاجزة عن تقبل الحداثة وعن أن تكون ديموقراطية بشكل سلمي،

كما هي الديموقراطيات الغربية الكبرى التي أسقطت من قاموسها مفردات الحرب والعنف. اندلعت الحروب بين الفرنسيين والإنكليز والألمان طوال قرون بغية السيطرة على أوروبا والعالم، وها هم قد تصالحوا الآن، ويحققون سلمياً الوحدة التدريجية لأوروبا. ليست، إذاً، فرنجة العالم هي المسؤولة، بالنسبة إلى هذا الخطاب، عن النزاعات في العالم، بل إن مردّها إلى استمرار ظواهر التعصب الديني والعرقي خارج بلدان الغرب، وعجز هذه البلدان عن بناء الدولة المعاصرة. كل ما يفعله الغرب ـ حسب هذه النظرة ـ هو أنه يتجاوب مع طلب البلدان التي تكون مسرحاً دامياً لهذه النزاعات، ليتدخل فيُعيد إليها السلام والاستقرار.[١٢]

ليست الولايات المتحدة، والحالة هذه، إلا امبراطورية حارسة للسلام العالمي يجري استدعاؤها من غير رغبة لديها، للفصل بين الأطراف المتنازعة أو لنجدة الشعوب وإنقاذها من المِحن التي تتخبط فيها. فالولايات المتحدة، حسب هذه النظرة، امبراطورية رغماً عنها، فهي تستطيع العيش منعزلة عن سائر البلدان ومنغلقة على قارتها التي تحوي خيرات كثيرة، وليست بحاجة إلى كل هذه الامبريالية لتنمو وتزدهر. يبرّر منظّرو التيار الفكري المهيمن لهذا النظام العالمي الجديد، الفوضى القائمة والأوضاع المتأزمة في العالم، إما بجنون صدام حسين في العراق وميلوسيفيتش في صربيا، وإما بوجود حركة الطالبان في أفغانستان: أي باختصار، بوجود «محور للشر» خلَفَ «امبراطورية الشر». المنهارة، أي الاتحاد السوفياتي. ولولا ذلك لما كانت

---

١٢. المؤلفات التي تتبنى هذا المنطق في وصف تفاقم الصراعات خارج الغرب عديدة. هناك كتاب معياري لغسان سلامة بعنوان: **الحاجة إلى الامبراطورية: التدخلات والمقاومات في عصر العولمة**، Ghassan Salamé, *Appels d'Empire: Ingérences et résistances à l'ăge de la mondialisation* منشورات Fayard، باريس ١٩٩٦. أحد الكتب الأولى عن الموضوع: جان ـ كريستوف روفان، **الامبراطورية والبرابرة الجدد: أشكال القطيعة بين الشمال والجنوب**، Jean - Christophe Rufin, *L'Empire et les nouveaux barbare: ruptures Nord-Sud*، منشورات Lattés، باريس ١٩٩١.

هناك أزمات، ولما اضطر الغرب أصلاً إلى التدخل.

لا بل يذهب هذا المنطق في تصوراته أبعد من ذلك ليقول إنه لولا الميل «الفطري» عند المسلمين للجهاد، ولولا رفضهم المزعوم للديانات الأخرى، لما كان هناك أسامة بن لادن، ولما كانت هناك حرب في أفغانستان، ولكانت إسرائيل في سلام مع جيرانها، ولما كان عليها أن «تدافع عن نفسها» باستمرار ضد هجمات الفلسطينيين أو اللبنانيين. وهنا، نعود أيضاً إلى منطق الأنثروبولوجيا الجوهرانية: الغرب بطبيعته الوراثية والثقافية عقلاني وديموقراطي وسلميّ؛ لا يحارب إلا عندما يضطر إلى ذلك، أو عندما يهب لحقن دماء الضحايا المستغيثين، أو عندما يتعرض للاعتداء ظلماً. أما الشرق، حسب هذا المنطق، فهو بسبب تكوينه الوراثي، لا يفلح في التخلص من التعصب الديني أو القبلي. ولا يستطيع الغرب إزاء هذا الوضع أن يصرف نظره عن اضطرابات يمكن أن تهدد نظام العالم مهما كانت ثغرات هذا النظام الذي يحتاج إلى حارس لضبطه والحفاظ عليه. ليس الغرب، إذاً، إلا إطفائياً «كريماً»، واتهامه بأنه مولَع بإضرام الحرائق اتهام باطل، صادر عن جهات مصابة بهوس الاضطهاد، وينبغي إسكاتها.

الخوف من التغيير

يصبح الخطاب النقدي، بسبب هذه الرؤية، محرَّماً ومحارَباً من جهات تمارس الإرهاب الفكري على أبشع وجه. ويردّ بسذاجة خبيثة على كل من يشكك في الخطاب النرجسي والجوهراني بالسؤال التالي: «يا ترى بماذا يمكن استبدال النظام الغربي، وإنْ كانت شوائبه كثيرة؟» إنه حوار طرشان بين خطابين يرفض أحدهما الاستماع إلى الآخر، أو على الأقل لا يستطيعان التفاهم. هناك، من جهة، الخطاب الجوهراني والنرجسي الذي يعتبر الطبيعة البشرية موزعة على تصنيفات عرقية وثقافية جامدة، غير قابلة بالتغيير، وهي تصنيفات وصفناها بأنها صور تخيلية أكثر مما تعكس واقع التطور التاريخي؛ وهي تكوينات فكرية اصطناعية تهدف إلى حجب رؤية ظواهر القوة في

الغرب والانحطاط في الشرق. وهناك، من جهة ثانية، الفكر النقدي وأثره المشكك على المعتقدات والذي يؤمن بالتالي بإمكانية التطور والتقدم في المؤسسات البشرية والأخلاق والقيم المشتركة للإنسانية. لكن هذه الروح النقدية تخيف الغرب كما الشرق.

يخيف هذا الفكرُ الغربَ لأن هناك رغبة فعلية فيه بأن يُختتَم عهدُ الثورات والحروب ذات البعد الكوني، بشكل نهائي وحاسم. فالغرب دفع أثماناً غالية جرّاء مسار الثورات والعقائد العلمانية المختلفة التي جعلته يعيد النظر في بنائه وأسباب وجوده بشكل متواصل منذ عصر النهضة وحتى الحرب العالمية الثانية. ثمَّ، ألم يحن الوقت بعدُ لأن يجني الغرب ثمار التطور التقني والعلمي والعولمة، حتى لو توزعت الثمار بشكل غير متكافئ؟ إن هالة القدسية التي أصبحت تلف حدث المحرقة اليهودية Holocauste في الثقافة الأوروبية والسياسية الغربية، تهدف إلى أن يفهم جميع الغربيين ما معناه: «لن نعيد أبداً ما فعلناه وما شهدناه ووافقنا عليه، وعسى أن يكون الماضي عبرة للحاضر!!»

كما يخيف هذا الفكرُ النقدي أيضاً الشرقَ، فقد حصلت فيه ثورات كثيرة حاولت تقليد الغرب بشكل أعمى من دون أن تؤدي إلى نتائج تُذكَر باستثناء بعض بلدان شرق آسيا. إن الخطاب النقدي في الشرق مهمَّش بدوره، لا يلقى أصداء إيجابية إلا حين يكون خطاباً انفعالياً معادياً للغرب. الواقع، أن الوضع في العالم الثالث، سواءً في الأنظمة الديموقراطية الفاسدة والضعيفة، أم في الأنظمة الديكتاتورية التي تستغلّ كل الرموز المتعلقة بالهوية والانتماء مهما تكن رجعية وبلهاء، لا يشجّع على الفكر النقدي نظراً إلى الخوف السائد من أن يتسبب في انهيار المؤسسات القليلة الموجودة، ويُغرق المجتمعات في فوضى خطيرة ونزاعات دموية.

ليس عجيباً أن يؤدي هذا الفراغ الفكري والسياسي المتزامن مع تزايد الضائقة الاقتصادية في عدد من المناطق، حتى المزدهرة منها كالولايات

المتحدة، إلى تكاثر الانحرافات عبر تزايد العصابات الإجرامية mafias التي تعمل في الإتجار بالمخدرات والأسلحة والتهريب وتبييض الأموال، وعبر ظهور العديد من المذاهب الشاذة التي تمارس طقوساً جنونية نكراء، وكذلك عبر انتشار الشبكات المرتكزة على العصبيات العرقية والدينية الدموية. لا ننسى أيضاً أن الفن السابع الأميركي (أي السينما) يعظّم منذ سنوات طويلة مجازر إبادة الهنود في أميركا عبر أفلام «الوسترن» التي تحفل بالجرائم المرتكَبة ضدهم، وذلك من دون خوف من حسيب أو حتى إحساس بالذنب. كذلك، امتدحت المسلسلات التلفزيونية التي شهدت نجاحاً منقطع النظير، كلّ أنواع الممارسات العنيفة، كاختطاف الطائرات وتصفية الحسابات بين أفراد المافيا، وقيام البعض بتطبيق العدالة والقوانين بأيديهم. من هنا، لا تبدو صور الحادي عشر من أيلول جديدة أو غير مألوفة. سبق للسينما والمسلسلات التلفزيونية والروايات المثيرة وأفلام الفيديو،[١٣] أن أنتجت نماذج مشابهة لها. بالمقابل، تُهمَّش الشخصيات الفنية أو الفكرية التي تسعى في أعمالها إلى الوقوف في وجه هذا التيار وانتقاد الانحرافات الهذيانية التي تسِم إنتاج الصور وقصص العنف والخطاب النرجسي، لا بل يُضفَى عليها طابع الشذوذ والغرابة.

المواجهة بين الجذرية الرافضة ومحاولات المجتمع المدني إعادة إرساء قواعد جديدة للأخلاق

ليست الحيرة التي تنتابنا اليوم في مواجهة الوضع القائم والخيار بين الفوضى وضبط النظام، بالأمر بالسهل، إذ يسود الخوف من المسّ بالنظام السائد، مهما يكن ظالماً ومجحفاً، لأن البديل قد يكون انهياره بالشكل الذي

١٣. كمثل رواية الكاتب الأميركي توم كلانسي: **على الطلب** Tom Clancy, *Sur ordre* منشورات de poche، جزآن، ١٩٩٩. تتحدث حبكة الرواية عن مؤامرة ضد الولايات المتحدة، يتورط فيها العرب ويفجّرون طائرة ضد مقر السلطة.

انهار فيه البرجان التوأمان في مركز التجارة العالمية. أصبح الخوف شاملاً ويهيمن على جميع المناطق في العالم، حيث تنتشر النزعات المحافظة التي تُؤْثِر الحفاظ على النظام القائم ومقاومة التجديد فيه، مما يعرقل نشوء اتجاهات إصلاحية سياسية، داخل الغرب وخارجه.

تُستنفر الطاقات، كما رأيناه، في تحقيق الإصلاحات الضرورية في المجال الاقتصادي بغية التكيف مع مبدأ التبادل الحر المعمَّم. وتحاول الديموقراطية الليبرالية في الغرب أن تتكيف مع تعددية الثقافات والمطالب بشأن الهوية التي تتضاعف في كل يوم، ولا تتمكن المبادئ الجمهورية التقليدية للمواطنية من التكيف معها أو حملها على الانحسار أو التراجع. كما يتعاظم، خارج الغرب، الخوف أيضاً من الفوضى التي يمكن أن تتسبب بها مطالب ديموقراطية أكثر جرأة، تدعو إلى الشفافية والاستقامة والإنصاف في إدارة الشأن السياسي. لقد تركت الثورات والثورات المضادة وكوكبة الديكتاتوريات العسكرية التي نتجت عنها، ذكريات سيئة كثيرة، مما يحول دون ظهور حركات راديكالية سياسية هدفها التغيير الجذري.

لذا، لا يبدو سهلاً اقتراح حلول أو نماذج بديلة أو بروز قوى ضبط وتوازن فعّالة، قادرة على المساهمة في الحدّ من الفروقات الاجتماعية والمظالم ونهب الموارد الطبيعية والأموال العامة أو نهب أصول الشركات الكبرى العامة أو الخاصة على أيدي حفنة من المدراء عديمي الذمة والأمانة، أو الشراء العلني لأسهم شركات خاصة بقصد السيطرة على رأسمالها من دون سبب وجيه أو فائدة للمساهمين (اللهم إلا العلاوات المدفوعة لمدراء تلك الشركات ومصارف الأعمال). وتتصاعد من كل مكان الأصوات المطالبة بضرورة التقيد بمبادئ العدالة والتحلّي بالقيم الأخلاقية، لكن هذه الأصوات لا تعبّر عن نفسها من خلال حركات سياسية راديكالية كبيرة، بل تبقى منحصرة فقط في المنظمات التابعة للمجتمع المدني أو في المواقف الجريئة لبعض القضاة الشجعان الذين يحاولون تهذيب أخلاق الحياة العامة أو عالم الأعمال والصفقات الاقتصادية.

لا ننسى أن هناك أيضاً، في العالم الأكاديمي، تعليم مادة «أخلاقيات العمل الاقتصادي» التي تُدرَّس في الكثير من الجامعات، وهناك أيضاً صناديق استثمار تضع مدَّخراتها فقط في شركات «نظيفة»، أي تلك التي تحترم البيئة وتطبق القوانين تطبيقاً كاملاً ولا تُنتج أية أسلحة أو سجائر أو كحول. يذكّر هذا كله بتشدد الأخلاق الذي كانت تنادي به الكنائس البروتستانتية في بريطانيا وأميركا عند أول نشأتها، ويحلّ محل أو يأخذ الدور الذي لعبته قيم المواطنية في إطار الجمهوريات الناشئة والقيم العلمانية المرافقة لها. هناك أخيراً الحركة المناهضة للعولمة وحركة الزراعة البيولوجية وجمعيات الدفاع عن حقوق المهاجرين، وكل الجمعيات الإنسانية المناضلة ضد انتهاك حقوق الإنسان، وفي مقدمها منظمة العفو الدولية الشهيرة. لكنْ، مهما تكن الأهمية التي تتصف بها هذه الحركات الساعية إلى إيقاظ الرأي العام المخدَّر، نشعر بأنه من دون تعبئة سياسية بالمعنى الحقيقي للكلمة، ومن دون وسائل إعلام أكثر استقلالية عن التكتلات المالية الكبيرة، فإن الأفق السياسي يبقى مسدوداً.

هناك أيضاً الجهود التي تقوم بها البلدان المنتمية إلى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD لمحاربة تبييض أموال المخدرات والجريمة والفساد والتهرّب من دفع الضرائب. وقد دفع اعتداء الحادي عشر من أيلول مجلس الأمن في الأمم المتحدة إلى إصدار قرار بالغ الأهمية (القرار ١٣٧٣)، يُرغم الدول على البحث عن أموال المنظمات الإرهابية وتجميدها. لكن هذا القرار الصادر عن الأمم المتحدة سيزيد من الدور الكبير للولايات المتحدة وهيئاتها المختلفة للتجسس والأمن، التي تبسط سلطتها على الأنظمة المصرفية الوطنية والدولية.

وفي العالم الثالث نفسه، هناك جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان والجمعيات المناضلة من أجل حقوق المرأة والطفل أو حقوق المزارعين الفقراء. هناك أيضاً منظمات البِرّ الدينية أو العلمانية والجمعيات التي تسلِّف القروض الصغيرة للمزارعين أو العاطلين عن العمل في المدن، وهناك

التنظيمات المهنية التي تحاول في بعض الأحيان أن تلعب دوراً سياسياً فاعلاً.

نضيف إلى هذا كله، المؤلَّفات الهائلة التي تنشرها الهيئات الدولية عن ضرورة التنمية البشرية، واستئصال أسباب الفقر وتقنياته، وإرساء دعائم التنمية المستديمة والحاكمية والشفافية في إدارة الشؤون العامة وحماية البيئة: ملايين من الصفحات المطبوعة على مرّ السنوات من منشورات وتقارير متخصصة وكتب ومحاضر جلسات وندوات دولية، تُصدرها الهيئات المختصة في الأمم المتحدة والمؤسسات التابعة لها، كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية واللجان الاقتصادية الإقليمية التابعة للأمم المتحدة والمجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للمنظمة الدولية، وأحياناً الجمعية العامة نفسها.

تريد هذه المؤلفات الرتيبة التي تكرر نفسها باستمرار، أن تحملنا على الاعتقاد أنّ العالم يعيش في ظل نظام نموذجي، حيث الأخلاق والقيم ومحاربة الفقر هي الشغل الشاغل للنظام الدولي الذي يديره الغرب. لكن المشكلة متجسدة في الواقع اليومي الذي لا يتأثر بهذا الخطاب، وهو الواقع الامبريالي الذي تريد الولايات المتحدة فرضه على العالم. لا يؤثّر هذا الخطاب ميدانياً، ولا يغير شيئاً في البنى القائمة وموازين القوى المسؤولة عن انتشار الفقر وزيادة تدمير البيئة والنفوذ المتعاظم للمافيات ولكل أشكال الفساد. فهذا الخطاب ليس بالمستوى المطلوب للتصدي للخطاب النرجسي المهيمن ولا للحملات الإعلامية المتواصلة ذات الطابع الدعائي والتي تحيط بشكل محكم بالحياة اليومية للمواطنين في كل أنحاء المعمورة، وتصوغ رؤيتهم العابرة لأحداث العالم وتطوراته.

المواطن المستهلك أم المواطن المسيَّس؟

حلَّ المواطن المستهلك مكان المواطن المسيَّس الذي كان نموذجه المواطن في اليونان القديمة أو ذاك الذي صاغته النماذج الثورية المعاصرة.

يستهلك المواطن المعاصر المنتوجات كما يستهلك الأفكار العابرة التي تقترحها عليه وسائل الإعلام المهيمنة تبعاً للأنماط المتتالية التي تبتكرها التكنولوجيا على الدوام. أصبحت التربية نفسها «سوبر ماركت» يسعى فيها كل واحد، تبعاً لموارده المالية، إلى توفير الشهادات العلمية لأولاده التي تسمح لهم بالحصول على مهنة تدرّ عليهم دخلاً محترماً. وفي رأس الهرم المعقَّد المؤلَّف من «السلع» الخدماتية التربوية المعروضة، هناك الجامعات الأميركية الكبرى حيث القيمة السوقية لشهادتها (أي مردودها المالي لحامليها) هي من دون شك الأعلى. أما الصحافة ووسائل الإعلام، بما فيها السينما، فتحتكرها في كل مكان المجموعات المالية الكبرى التي تميل إلى احتكار وسائل الاتصالات، والنشاطات الترفيهية، ودُور النشر الرئيسية.

وقد دخل تدريجياً أصحاب الثروات الجدد في العالم الثالث والبلدان الاشتراكية سابقاً، إلى نادي الأغنياء الأكثر ثراءً في العالم، الذين تزداد مشاركتهم في إدارة الشؤون العامة والنظام الدولي، ويضعون طائراتهم الخاصة ويخوتهم في تصرف السياسيين الكبار.[١٤] لا بل يدخل هؤلاء الأثرياء الكبار بدورهم إلى المعترك السياسي على الطريقة الأميركية، حيث يتطلب الدخول في هذا النادي الكثير من الإمكانيات المالية. كما يعمل هؤلاء على إنشاء مؤسسات خيرية أو ذات هدف أكاديمي، تجعلهم في موقع يمارسون من خلاله تأثيراً معيناً في المجتمع المدني والحياة الثقافية في بلادهم، لا بل على الصعيد الإقليمي أو الدولي. أما المواطن العادي فقد أصبح مهمَّشاً

١٤. إن الرئيس جيمي كارتر، وهو قدوة في النزاهة، قد قبل هبة مالية من ولاية عبيدي لدعم مؤسساته الإحسانية. وولاية عبيدي هو المؤسس والمدير لبنك التجارة والإعتماد الدولي BCCI الذي تسبب في أكبر فضيحة تبييض أموال في القرن الماضي. لكن الرئيس الأميركي ارتبط بصداقة معه ويبدو أنه كان يسافر أيضاً على متن الطائرة الخاصة التي يملكها. كما أن جيمس ولفنسن J. Wolfensehen، رئيس البنك الدولي، لم يتردد أيضاً في استقلال طائرة صديقه رئيس الوزراء اللبناني المشهور بثروته رفيق الحريري للمجيء إلى لبنان عام ٢٠٠١ في زيارة لم يُعرف إن كان خاصة أم رسمية.

ومسحوقاً وتافهاً، وعليه أن يقنع بدوره كمستهلك أو كفقير جديد أو قديم، من دون أن يشغله أي شيء إلا همّه اليومي في تأمين حاجياته وتربية أولاده. ويمكن، في أحسن الأحوال، للمواطن المنتمي إلى الطبقة الوسطى، والذي يمتلك جهاز كومبيوتر، أن يعلن رفضه لهذا الواقع عبر شبكة الإنترنت.

غالباً ما يخلط النظام الامبريالي الحالي بين الحرية السياسية التي تتميز بها المواطنة وحرية تداول السلع الاستهلاكية (أو القدرة على الإفادة من التشكيلة الكبرى من الخدمات والسلع المتوافرة، وكلها متشابهة تقريباً). أما النشاط السياسي، فيقتصر على السجالات الحامية التناقضية الطابع عبر التلفزيون، وهي تشبه صراع الدِّيَكة الذي يجب ألاّ يتعدى دقائق معدودة، بينما لا يملك إزاءها المُشاهدُ الساكن، الوقتَ الكافي لاستيعاب تعابيرها المشفَّرة، أو شيء من هذه المناظرات الكلامية المتقطعة التي لا تُجدي نفعاً. لذلك، سيفضِّل المواطن المُتعَب الهروب إلى أمكنة الترفيه المتوافرة، أو، في أفضل الأحوال، تكريس أوقات فراغه في خدمة قضية واضحة ذات هدف محدَّد كالاهتمام بالقضايا الإنسانية في العالم الثالث، أو حماية البيئة أو المستهلك... إلخ. لم يعد البعد السياسي، كما حددت معالمه فلسفة الأنوار، يدخل ضمن اهتمام المواطن اليومي، ولا يستطيع أن يكون كذلك.

يمكن أن تدوم أزمة هذا النظام ذي الطابع الامبريالي طويلاً، لأن فرنجة العالم لا يمكن الرجوع عنها. وإذا كان الخطاب النقدي في الغرب لا يستطيع التوصل إلى إرساء سلطة أخلاقية ذات مصداقية عالمية، وإذا كان لا يستطيع الشفاء، هو نفسه، من بعض النرجسية التي تميَّزَ بها تحت ستار الماركسية، حين كان يبث أفكارها محاولاً خلق توازن فعال مع النرجسية الليبرالية المحافظة[١٥] وهي تفرض سيطرتها اليوم على الساحة بشكل حاسم،

---

١٥. كان للفكر الماركسي الغربي طابعه النرجسي هو أيضاً، حين رأى في التطور التاريخي للغرب النموذج الذي يجب أن تحتذي به حتماً المناطق الأخرى في العالم لكي تتوصل إلى =

فيُخشى، والحالة هذه، أن يتفشّى القلق الحياتي والوجودي الكبير الذي يعتري تطور الديموقراطية الحديثة وتنتشر عدواه بشكل كامل. ولا يبدو أن الهيمنة الثقافية التي يمارسها الغرب على كوكبنا ستنتهي قريباً، ولا يبدو محتملاً أن نرى على المدى القصير انبعاثاً ما لفكر فلسفي وتاريخي في مكان ما من العالم. فلا الصين ولا الهند، وهما دولتان جبارتان تاريخياً، قد أنجبتا حضارتين عظيمتين، مؤهَّلتان على ما يبدو لصياغة رؤية سياسية جديدة للمستقبل، أو لإعادة الدفق والحيوية إلى الصيرورة البشرية.

لن يتحقق التغيير الإيجابي، وسط عالم متفرنج كعالمنا، إلا حين يُفَكُّ الحصار الذي تمارسه الثقافة الغربية على خناق العالم، ولا يبدو هذا وشيك الحدوث على المدى القريب. ومع ذلك، فإن فك هذا الحصار وحده سيسمح بالقيام بإعادة نظر أكثر استقلالية في الثقافات الكبرى الأخرى، أو بإحياء جديد للفكر النقدي والفلسفي والسياسي بمشاركة العالم غير الغربي فيه، وفي هذه الحالة سيتمكن هذا العالم من استعادة الثقة بنفسه. تكمن المشكلة، إذاً، في معرفة ما إذا كان الفكر النقدي سيظل مهمَّشاً ضمن المنطق الذي تسير وفقه الآلية الراهنة للنظام الدولي، وهو امبريالي الطابع أكثر مما هو ديموقراطي، بالرغم من بعض التقدم الإيجابي الذي أحرز في هذا المجال. وقد سعينا من خلال محاولتنا فكَّ رموز التعقيدات الناتجة عن فرنجة العالم، إلى أن نفتح الباب لسجال نقدي حرّ، بنّاء، يمكنه تعرية الكليشيهات والأفكار المسبقة التي تفترض أن العالم مقسَّم إلى مناطق متناحرة لا يمكنها التلاقي.

= تحقيق الحداثة وتحرير الإنسان من كل أشكال العبودية.

الخاتمة

حِكمة «بربرية»

الحداثة وانعدام التناسق في إيقاع التاريخ

في ختام هذه التأملات حول تداعيات أحداث الحادي عشر من أيلول، يشير هذا العنوان[1] إلى ضرورة القيام ببعض الاستنتاجات السليمة والواقعية بعيداً عن السفسطة الفلسفية المعقَّدة التي تتناول الثقافة الغربية من خلال ذاتها والعالم من حولها؛ ذلك أن التساؤلات الوجودية الكبرى التي أثارتها النهضة الأوروبية في كل مكان من العالم، لم تجد لها أجوبة مقنعة على ما يبدو. صحيح أن هذه التساؤلات خلاّقة ومبدعة من دون ريب، لكن الأنظمة الفكرية الأساسية التي نبعت منها أنقصتها التواضع في اليقين.

إن تركز العقلية الأوروبية أو الغربية على ذاتها، وبشكل خاص ميلها إلى جعل التوحيد في الدين، في مظهره اليهودي أو المسيحي، أو منذ حين، في مظهره «اليهودي ـ المسيحي»، وميلها كذلك إلى جعل التوحيد في مرتبة أسطورة لأصول الرشدانية الغربية ومنابعها: إن كل هذا أدّى إلى

---

١. نستعيد عنوان الكتاب الرائع للمؤلف أرنالدو موميليانو: حِكَم بربرية، حدود الهَلْيَنة، Arnaldo Momigliano, *Sagesses barbares: Les limites de l'hellénisation* منشورات Maspero، باريس ١٩٧٩.

انحراف في أنماط تفسير صيرورة تاريخ البشرية. لقد أصبحت هذه الأسطورة، كما شرحنا، نقطة الفصل المركزية للشرخ الوهمي الذي يفترض أن يقسّم النفسية الإنسانية إلى «عقليتين» متعارضتين بشكل جذري: عقلية الشرق وعقلية الغرب. لم تستطع علمنة المُثُل العليا والطوباويات المعاصرة أن تحول دون استمرار التعصّب الذي أرست قواعده قرون من القراءات التوراتية، أو تزعزع أركان البناء الذي رسّخته النماذج الأولية للعهد القديم.

أنتجت فلسفة الأنوار، ضمن التيارات المتناقضة التي جرفتها في مسارها، ترسيمات الفكر ذي الطابع الإنسانوي المتخطي للقوميات والأديان. ولكنها أنتجت أيضاً التصلب نفسه الذي كان يميز الترسيمات التوراتية القديمة؛ بينما الفكر الداعي إلى قبول تعددية القيم، وإلى الشك في كل ما يبدو يقيناً، وبالتالي إلى التواضع الفلسفي، لم يُفضِ إلى خلق فكر عقلاني حقيقي أو نظام أخلاقيات يمكن اعتماده لبناء عالم أفضل. إن الفكر الإنسانوي الحديث، يستطيع، في أحسن الأحوال، أن يُلهم القيام بمبادرات وأعمال إنسانية الطابع، تبقى أسيرة لعبة المصالح للدول الغربية الكبرى. ويلهم هذا الفكر أيضاً التيارات الداعية إلى التفاف الغرب حول نفسه وانطوائه على قيمه الخاصة وانسحابه من النظام العالمي، تاركاً «البربرية» في مواجهة مصيرها المظلم المحتوم، لأن الحداثة على الطريقة الأوروبية يبدو، في الخطاب النرجسي الغربي، أنها فشلت في إرساء دعائمها خارج إطار الغرب.

ما ننساه غالباً أن التاريخ يتطور تبعاً لإيقاعات يصعب علينا تحديد نوابضها وسرعتها الحقيقية. ننسى أن «الحداثة» ليست إلا مظهراً مخادعاً وشعارات معيارية وضعته الثقافة الأوروبية بشكل مصطنَع في خضمّ الغليان الإبداعي لعصرَي النهضة والأنوار. هذا مع العلم بأن جذور هذا الغليان ربما كانت قائمة في فترات سابقة من التاريخ الأوروبي، كما ذكرنا سابقاً. إن سرعة إيقاع التغيرات التقنية هي التي أعطتنا الانطباع بتسريع التاريخ. إنما،

أليس هذا الانطباع وهماً وخداعاً؟ إذا كنا نفهم من التاريخ، ليس فقط تطور الفكر البشري وتراكم المعارف العلمية، بل أيضاً تطور الأخلاق والقيم والقضاء على العنف والجوع والحرمان وكل أنواع النبذ في الغرب كما في العالم، فعلينا، إذاً، الاعتراف بأن التاريخ لم يؤمّن فعلاً التقدم البشري، وأن إيقاع تقدمه من البطء بحيث لا يمكن من تلمسه وقياسه.

وإذا كانت الحداثة تشير إلى مهارة مكتسَبة في التطور التقني، تتزايد باضطراد منذ قرنين عمّا كانت عليه في الحقبات السابقة، فعلينا التذكير أيضاً بأنها تسير وفق وتائر متفاوتة باختلاف مناطق العالم. وبما أن الحداثة مرادفة للفرنجة، فهي تصطدم بعقبات كثيرة تحدّ من انتشارها وتدفع الناس إلى مقاومتها مما يعيق توحيد العالم. ننسى غالباً كيف أن إيقاع الفرنجة أو مستواها مرتبطان بصدمات نفسية أحدثها الاستعمار بأشكاله المختلفة. وبرغم ذلك كله، نرى أن توحيد العالم بات محتوماً بسبب تطور التقنيات ووسائل الاتصال. إن أي ديكتاتورية، مهما تكن طاغية، لا يمكنها إيقاف مد العولمة والأثر الهدام للحداثة على المؤسسات الاجتماعية والدينية والسياسية وعلى العادات التي ترجع إلى إيقاع زمن تاريخي آخر مختلف عن إيقاع زمن الحداثة.

لكنّ تفاوت الوتائر الزمنية لانتشار التطور التقني، يضع عراقيل خطيرة في وجه العولمة، لأنه لا يحقق النتائج نفسها في المناطق المختلفة من العالم، أو داخل كل منطقة بين مختلف الفئات الاجتماعية. يخلق هذا الاختلال في وتيرة مسيرة التطور مساحات حيث ينفجر التشنج على الحدود الوهمية للشرخ، المعيقة لانتشار العولمة. وما أحداث الحادي عشر من أيلول إلا شاهد على ذلك. لكن الإيقاع الزمني المعيش لدى مختلف فئات المجتمع، ليس هو الإيقاع الحقيقي للتاريخ، كونه لا يستطيع أن يكشف عن نفسه إلا لاحقاً، بعد انقضاء قرون، عندما تموت حضارات وامبراطوريات ويجرفها نهر التاريخ الهادر الذي لا يمكن أبداً توقع سيرورته.

ما من شك في أن الحداثة افتقرت، قبل كل شيء، إلى فضيلة التواضع، وجهدت منذ عدة قرون لكي تسرّع مجرى التاريخ، لا بل تسيطر على كافة مكوناته وروافده في المسارات الفرعية العديدة للتاريخ، وتوحّدها في مسار جامع، بالرغم من صعوبة الإحاطة بمجرى التاريخ وتفسير معانيه. فتعطي الحداثة الانطباع، حتى بالنسبة إلى الفكر العلماني، أنها تقع في «الكفر»، وتريد أن تنتزع من الله أو من الآلهة كل أسرارها، وتحل مكان اللاهوت وعلم الكلام والأخلاق والحكمة.

لذا، ليست التأملات اللاهوتية الطابع ـ أو الفكر الساكن التأملي للفلسفات الدينية في الشرق الأقصى ـ هي التي تؤدي إلى العنف والحروب، بل ما يؤدي إليها هو الاستنتاجات المتسرعة والعدائية الطابع التي تستنفر في إدارة المجتمعات وتكوين مؤسساتها وتنظيمها. ويتم استغلال القلق الوجودي للإنسان الذي يتجسّد في حاجته إلى بُعد روحي ومقدّس في حياته، لتبرير كل الشطط بكافة أشكاله، سواءً كان مستوحىً من قراءة بدائية للنصوص الدينية، أو من «رسالة» تدّعي العلمانية، لكنها في الواقع ما تزال تتواصل في أفعالها النمط المقدَّس، أو «السحري» و«الكاريزماتي» القديم، كما تسميه الثقافة الغربية.

يستمر، إذاً، النموذج التوراتي في تأكيد فعاليته في الغرب أكثر من أي وقت مضى، من خلال خطاب نرجسي تُضاعف آليات العولمة من حدَّته. لا يزال المنطق الدينيّ وحملات العداء ذات الطابع «الصليبي»، ناشطة للغاية، ما بقيت هذه العبارة متداولة في اللغة الشائعة والعلمانية الطابع. تستمر آليات إضفاء طابع القدسية في الحياة الحديثة، ولو اقتصرت مهمتها في إنتاج المواطنين المستهلكين للسلع والخدمات المعقدة تقنياً، أو إنتاج صراعات حول الهوية، تدفع ببعض الفئات من المواطنين إلى المطالبة بـ«الحق في التميّز» عن غيرهم للتعويض عن قلقهم في الحياة، الذي ينسبونه إلى جذورهم العرقية والدينية.

يمكننا القول، إذاً، إن العلمانية في العالم الغربي فقدت جانباً هاماً من رسالتها الأولى المنادية بالقيم الجمهورية التي تتجاوز الفروقات العرقية أو الدينية، وتسمو عليها بإلغاء الامتيازات المرتبطة بإدعاء الحقوق من الله، لخلق مجتمع جديد يؤمّن السعادة والوفاق للجميع في حاضرة تتسع أفقها لكافة المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية. وتجد العلمانية اليوم نفسها مُرغمة، باسم التطور الحديث لمبادئ الديموقراطية الليبرالية، على تقبُّل، لا بل على تشجيع، نزعات تأكيد الهوية المتصاعدة من وراء القلق الوجودي النابع من إنجازات الحداثة وتعميمها إلى كل شعوب العالم، بالإضافة إلى الحروب العملاقة الكونية التي فجرتها هذه الحداثة.

من البديهي أن البديل عن انكسار العلمانية لا يتمثل في التشدد الديني والأخلاقي المفتعَل الذي تتميز به النزعات الأصولية المتسللة إلى الديانات الكبرى المؤسَّسة عالمياً، كالحركات الإسلامية أو البروتستانتية في أميركا أو حركات الاستيطان اليهودي التي تبرر نفسها في فلسطين بادعاء ضرورة تطبيق النص التوراتي: فكل هذه الحركات مجرد كاريكاتور. فلا الديانات المؤسَّسة ولا الأشكال المختلفة للنزعات العرقية ـ وبعضها يستوحي القيم الدينية أو القومية ـ ولا الحركات الدينية المتطرفة التي تزين نفسها بمبادئ أخلاقية ذات طابع عرقي أو قومي، تستطيع أن تقضي على الشرور والمعضلات الناتجة عن فرنجة العالم.

إعادة بناء العلمانية وتأمين بريقها

علينا أولاً أن نعيد إلى العلمانية مجدها باعتبارها عاملاً جوهرياً مؤسِّساً للحاضرة «الحديثة»، بخلاف الحاضرة القديمة في العصور الوثنية، أو الحاضرة التي ينظمها التوحيد التوراتي، حيث كانت حياة الآلهة في المجتمعات القديمة، أو حياة الإله الواحد في المجتمعات التوحيدية، متصلة بشكل وثيق بالحياة الطقوسية والفكرية. والعلمانية هي العنصر الأساسي في

مكونات المواطنية، وهي الحل الشافي الوحيد لداء التعصب وللقضاء على النزعات الجماعية الاستبدادية ولجمها. وهي أيضاً الركيزة الحقيقية لاستقلالية الفرد، والضمانة الأكيدة لاحترامه من قبل السلطات القائمة، كما تشكل أداة نقدية لكل نظام يقع في الجمود المميت، سواء أكانت حجة هذا الجمود من ادّعاء الحفاظ على مبادئ دينية أم مدنية.

إن جوهر العلمانية ليس فقط نموذجاً لتنظيم دور كل من الحيّز الزمني والحيّز الروحي في المجتمع، وهو ليس مرتبطاً حصراً بتاريخ المسيحية الغربية. كما لا يُفترض بالعلمانية أن تكون مجرد تأكيد للطابع الزمني للحياة السياسية، لتهدئة النزاعات الدينية الناشئة بين أبناء الدين الواحد، بل عليها أن تصبح موقفاً صلباً في رفض كل محاولة ترمي إلى جعل أي نوع من أنواع التمايز بين المواطنين تمايزاً جوهرياً للتفريق؛ وكذلك كل محاولة لجعل أي معتقد أو نظرية في مستوى الحقيقة المطلقة المحرَّم إخضاعها لقدرة العقل على الفحص والنقد. لهذا، ينبغي القيام بـ«علمنة» العلمانية، أي جعلها تتخطى دورها كعقيدة مسيحية غربية تحديداً، لكي تتبوأ مركزها الحقيقي كقيمة عالمية. وحدها هذه العلمانية قادرة على هيكلة القانون الدولي بشكل فعّال قابل للمصداقية، ذلك أنه يجب ألاّ تؤثر فيه أية عقيدة نابعة من إيمان ديني خاص واجتهاداته، أكان من منبع يهودي أو مسيحي أو إسلامي أو أي مصدر عقيدي آخر.

وهكذا، بدلاً من تشجيع «حوار الأديان» (الرائج في هذه الأيام بغية زرع الوئام بين المواطنين في مدننا التي يتزاوج فيها أبناء أعراق وديانات مختلفة)، وهو لا يستطيع أن يقدم حلولاً للمشاكل السياسية الزمنية الصِّرفة، محلية كانت أم دولية. ألا يجدر بنا أن نزوّد المواطنين بالمعارف الحقيقية والأصيلة التي يقدمها اللاهوت والأنطولوجيا لمعالجة القلق الكياني للإنسان إزاء مصيره؟ إن الخطاب حول الهوية والانتماء يعبّر عن العُصابات الخطيرة التي أصابت المجتمعات في الشرق كما في الغرب، ولن يؤمِّن أبداً السلام

ولا الراحة ولا الجواب الشافي عن الشعور بانعدام معنى الوجود أمام الشقاء الذي أصاب الإنسانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، بما فيه الويلات التي جرَّها الاستعمار القديم وتجارة الرقيق الأفريقي، واقتلاع ملايين الناس من جذورهم واستعمارهم وتهجيرهم أو إبادتهم، لا بل كذلك الصدمات التي خلّفتها الفتوحات لدى الفاتحين أنفسهم عندما انطلقوا من أوروبا لغزو الأصقاع غير المأهولة أو شبه المأهولة في أوروبا والعالم.

لا شك في أننا نفهم اليوم بشكل أوضح عذاب الذين عانوا الاجتياح الديموغرافي الأوروبي لأراضيهم، ابتداءً من عصر النهضة، أمثال الهنود في أميركا أو السود في أفريقيا، مع العلم بأن هناك خطاباً نرجسياً غربياً يحاول ألا يعترف بمسؤوليته عن هذا العذاب أو يقلل من حجمه.[٢] وهناك إغفال لصدمات نفسية أخرى عاناها هؤلاء الذين بادروا إلى الاجتياح الدامي للأصقاع، واستأصلوا السكان الأصليين من جذورهم وهمّشوهم وحجّموهم إلى أبعد حدّ. ومردّ هذا الإغفال إلى إخفاء العُصاب الذي سبّبته عمليات الاستئصال والإبادة لدى هؤلاء الذين تسببوا بها. وربّما كان جزء من الثقافة الغربية، وتحديداً «الفن السابع» في شقّه الأميركي خصوصاً، يحاول إخفاء هذا العُصاب من خلال التمجيد الطويل للعنف الذي مارسه الأقوياء على الضعفاء، وتباهى به الإنسان الأبيض على الإنسان الملوّن، وافتخرت به حضارة التقدم على «البربرية» والبدائية.

إن ملحمة الإنسان الأبيض في أميركا وأفريقيا، وبشكل خاص أفريقيا

٢. وهكذا مُني المؤتمر الدولي لمحاربة العنصرية ومعاداة الأجانب والتعصب، الذي نظمته الأمم المتحدة في دربان Durban (أفريقيا الجنوبية) في أيلول ٢٠٠١، بفشل ذريع. اصطدم المؤتمر بمسألتين رئيسيتين: اعتراف الغرب بمسؤوليته عن الفظاعات المرتكَبة في نظام الرّق والإتجار بالأفارقة، ومسؤولية إسرائيل عن شقاء الفلسطينيين. وقد غادرت الولايات المتحدة وإسرائيل المؤتمر قبل اختتامه، كعلامة احتجاج.

الجنوبية، وكذلك هجرة اليهود إلى فلسطين لتأسيس دولة إسرائيل وتوسيع حدودها هازئين بالقانون والنظام الدوليين، فصولٌ صارمة انطبعت آثارها في ذاكرة الشعوب المحتلة والمهزومة، وكذلك الشعوب الغازية والفاتحة. ليس صدفة أن يبقى العنف الداخلي هو الأقوى في المجتمع الأميركي، وأن تشتمل الحرية في هذا البلد على اقتناء السلاح الفردي في المنزل. وليس صدفة أن ذلك التعاطف اللامتناهي الذي تبديه الولايات المتحدة تجاه إسرائيل في غزوها لفلسطين، لأنّ هذا الغزو يعيد إلى الأذهان، على نحو مصغَّر، غزو القارة الأميركية، ويكرّر في اللاوعي الجماعي البروتستانتي، الترسيمة التوراتية المتعلقة بـ«أرض الميعاد» الجديدة.

علينا التسليم هنا بأن المبادئ الكبيرة للأخلاقيات ذات الدعوة الكونية التي ميزت عصر النهضة الأوروبية، لم تطبَّق ولم تُحترَم، مما يقلل كثيراً من المصداقية التي كانت قد اكتسبتها. لا بل أسوأ من ذلك، تُنتهك هذه المبادئ كل يوم ضمن النظام الدولي على يد نظام أميركي امبريالي لا يمكن التصدي له. أما العمل من أجل تقديم المساعدات الإنسانية الطابع التي تتبع حتماً المصالح السياسية للبلدان التي تدور في الفلك الامبريالي، فلن يكون أبداً البديل عن نظام للقيم يُطبَّق بطريقة متماسكة. إن مفهوم المواطنية الذي علقت عليه الشعوب آمالاً كبيرة، يتآكله في كل يوم فقدان مصداقية القيم الجمهورية والإنسانوية، المتمحورة حول العلمانية التي تطرح شعار المساواة على الصعيدين الفردي والاجتماعي على حد سواء.

لقد سعت كل الأنظمة الكبرى النافذة التي بلغت مستوىً حضارياً متقدماً، إلى إيجاد قواعد عالمية للقيم والأخلاق. بلغت فلسفة الأنوار، انطلاقاً من تراكم معرفي هائل، مستوىً متطوراً لم تبلغه الحضارات الأخرى، وهي آخر فلسفة استطاعت تاريخياً أن تضع قانون سلوك أخلاقي وقيمي يعتمد على رؤية متماسكة لحاضرة عالمية وعلمانية. لقد آن الأوان

لنُصلح الجوانب الأساسية في هذه الرؤية، ونعيد ترميمها لأنها مهدَّدة بـ«الخيبة» التي يعاني منها الفكر الديموقراطي في فترة «ما بعد الحداثة»، كما هي مهدَّدة أيضاً بالاستخدام الانتقائي والعنيف لمبادئ حقوق الإنسان في النظام الدولي. لذا، تبدو الرعاية التي علينا أن نوليها للقيم الجمهورية، أمراً أساسياً في العالم المفتوح والمهجَّن الذي نعيش فيه، ولا سيما إذا كنا نريد فعلاً إيقاف هذا السياق الجهنمي لانتشار أنواع العُصاب التي يخلقها التشبث الأعمى بالهوية وجعلها سلعاً ثقافية تسوَّق كمخلفات الثقافات العرقية أو الطقوس الدينية، وهي تدرُّ أرباحاً مالية كبيرة، أو تتحوّل إلى أعمال أكاديمية تؤجج الصراع بين الشرق والغرب، وتحتبس الذين تدّعي حمايتهم وإنقاذهم في سجن التعصب العرقي والديني الذي تصوغه الجوهرانية الثقافية.

لا يُفترض بالقيم الجمهورية أن تُعتبر ترفاً يتمتع به حصراً الإنسان الأبيض المتحضر الذي لا يعرف بدوره كيف يتصرف في عالم معولم ومهجَّن. على العكس، إن بعضاً من جوانب الحداثة هو الذي أدى إلى تبخيس القيم الجمهورية في العالم. فمَنْ ذا الذي يستطيع أن يصدّق فعلاً أن السكان الفقراء والمُعدَمين يريدون التخلي عن مزايا دولة القانون والأمن الاجتماعي لصالح الإبقاء على الولاء القبلي والعرقي والديني؟ إذا كان الأمر صحيحاً، فكيف يستطيع العالم الغربي المدّعي أنه أصبح خائباً وحائراً، أن يمارس هذا «السحر» على ملايين الناس من جميع بلدان العالم، الساعين إلى الهجرة إلى الغرب، على الرغم مما يشاع عنه في أوساطهم من أخبار سلبية؟

يقودنا الحس السليم، في هذا السياق، إلى القول إن الفشل في توطيد دولة القانون وتحقيق رأسمالية ذات توجه إنساني يُؤمّن عملاً وحياة لائقين، يضطرنا إلى الانكفاء إلى الرابط التقليدي العرقي والديني الذي يوفر طمأنينة نفسية وهمية في غياب تأمين العيش الكريم. ومع ذلك، لا يمنع هذا الانكفاء ضحاياه من الرغبة في دخول «الجنة» الغربية.

تبديد الالتباس بين الحرية والتبادل الحر

يساهم الخطاب الظافر لأيديولوجيا السوق، في أشكاله الأكثر شمولية وتوتاليتارية وسذاجة، في إفراغ القيم الجمهورية من محتواها. هذا الخطاب هو الحفيد الأخير لأيديولوجيات السعادة العلمانية التي أنتجتها حضارة الأنوار في انتصارها النهائي على قرينتها الماركسية الراقدة الآن جثةً هامدة في قبر الأفكار المتناقضة التي تُنتجها الفلسفة الأوروبية.

لذا، يجب أن تنصبّ الجهود كلها على التصدي لخطاب أيديولوجيا السوق الظافرة، لأن هذا الانتصار للّيبرالية الرأسمالية الخالصة والقاسية أصبح يقمع أي نوع من الفكر الاقتصادي البديل، ولا يلقى كل من يجرؤ على انتقاده أو التحذير منه آذاناً مُصغية، بل يجري اتهامه زُوراً بأنه «سلَفي» يحنّ إلى أزمنة غابرة لم تحقق السعادة البشرية. ويعاد في هذا السياق التذكير بسلسلة المآسي التي جلبتها الاشتراكية للبشرية، بغية إثبات أنه لا خلاص خارج صورة «رجل الأعمال» وحريته المقدسة، وهو الذي يجسّد فكرة الليبرالية والنظام الديموقراطي في عالمنا المعاصر. هكذا، يصبح التبادل الاقتصادي مرادف لمفهوم الحرية بالمعنى الأسمى للكلمة، ويحمل الناس على الاعتقاد بأن الحرية تتجسد أساساً في مبدأ التبادل الحر، على النطاق الدولي.

وهنا، ننسى أن التبادل الحر، يتطلب لكي يكون منصفاً وذا فائدة فعلية، تجانساً في مستويات الإنتاجية، أي تحكماً متساوياً ومشتركاً في فوائد التقدم الاقتصادي بين أطراف التبادل التجاري في النظام الدولي، سواءً تعلق الأمر بالكيانات الدولية أو بالفئات الاجتماعية التي تملك إمكانيات متباينة في الثروة والثقافة. لهذا السبب، تؤدي حرية التبادل الاقتصادي الدولي إلى تمايزات اجتماعية تتسع عمقاً في النظام الداخلي للدول، إذا لم تخضع لضبط اجتماعي يتسم بالشفافية، بينما يدمّر التقدم التقني أجزاء كاملة من

النشاطات الاقتصادية أو الاجتماعية من دون أن يستعيض عنها، في الوقت نفسه، بنشاطات جديدة قادرة على الحلول مكان فرص العمل المفقودة.

ينطلق كل هذا من حسّ سليم بديهي في رؤية الأمور؛ ومع ذلك، فإن الآلة الغربية تخطته وصمّت آذانها عن سماع الذين ينددون بهذه المرحلة من الرأسمالية المتوحشة التي قذفت في أحشائها تدريجياً كلَّ الدول. تغدو الأوضاع في العالم الثالث غير محتمَلة، والسبب أن الدول هناك لا تتمتع بمؤسسات الدولة الراعية للحد الأدنى من الحمايات الاجتماعية التي تتصف بها الدول الغربية وتمنعها، لحسن الحظ، من التداعي السريع والسهل. لكن العولمة والليبرالية الجديدة تُنتجان في الغرب نفسه ظواهر النبذ واللامساواة. لهذا السبب بالذات، تستمد الحركات المناهضة للعولمة طاقتها من البلدان الغربية. وتدليلاً على إفرازات العولمة السلبية، يقول العالم السياسي الأميركي ستانلي هوفمان:

> العولمة الاقتصادية عامل مدهش لخلق اللامساواة بين الدول وداخل الدول نفسها. ثم إن همّ التنافسية على الصعيد الدولي، يحدّ من قدرة الدولة على تقليص الفوارق بين الناس.[٣]

نضيف، هنا، أن حجم الطغيان الفكري الذي تمارسه العقائد الليبرالية الجديدة الظافرة، يساهم بدوره في الحدّ من قدرة الدولة، لأن هذا الطغيان يمنع حتى المفكرين الأكثر عقلانية واعتدالاً من إسماع أصواتهم. وتنتصر مرة أخرى مبادئ عقيدية مبسطة تحول دون أي إعادة اعتبار لدور المعارف المتراكمة والعلم والرشدانية في تحقيق الرفاهية الفعلية للمجتمعات. ثم إن الجهود الحثيثة والمثمرة التي قامت بها المجتمعات المدنية أو المحاكم

---

٣. ستانلي هوفمان، وضع العالم المزري، جريدة لوموند *Le Monde*، ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢.

لإدراج القيم والأخلاق في الحياة الاقتصادية، لا تخلق، لسوء الحظ، توازناً فعالاً يحد من الفوضى ومآسي العولمة. من هنا، يجب اللجوء إلى تنظيم مؤسساتي متين مستوحىً من نظام للقيم الاجتماعية والاقتصادية، يتحلى بالجرأة على استخلاص نتائج عقلانية مدروسة لتجربة الحداثة بكل ما فيها من فشل ونجاح، كما دعا إلى ذلك يورغن هابرماس.[٤]

في هذا الميدان بالذات، كما في ميدان التأمل الأنطولوجي المذكور في بداية الخاتمة، لا تساهم الثقافة الحديثة القائمة على الاستهلاك السريع والعابر للأفكار والأنماط الثقافية، في بناء حكمة اقتصادية واجتماعية. فالتربية الرائجة على المستويين المدرسي والجامعي ما تزال تتكوّن من البرامج الأكاديمية والإنسانوية القديمة التي ترقى إلى القرن التاسع عشر، وهي غير قادرة على تزويد الطالب بمعارف تقنية واجتماعية كفيلة بأن تجعله يعي دوره كمواطن مسؤول، أو يتحكم بالمسائل الأساسية التي يطرحها تطور العالم (كالتحكم بالتقدم التقني من أجل غايات تتعلق بالتضامن الاجتماعي، ومراقبة الوتائر التي تستثمر من خلالها الموارد الطبيعية أو البشرية، أو معالجة تدهور البيئة المادية والأخلاقية للمجتمعات، أو إجراء نقد لمسلّماتنا الفلسفية والتاريخية المعاصرة، على غرار النقد الذي قام به كارل بوبر). فلا بدَّ من عملية نقدية أمام هيمنة التقنيين والتكنوقراطيين والمال وأثره المدمّر، ووسائل الإعلام غير المراقَبة التي غدا المواطنون بتأثيرها مجرد مستهلكين ساكنين أو ناخبين بشكل آلي، وسط هذا الفراغ الكبير في الفكر السياسي؛ وهذا ما يتطلب إعادة النظر في البرامج التربوية، على كافة الأصعدة.

يجب أن يتصالح كل من العلم والتقدم التقني والسياسي من خلال نهضة جديدة قد تكون بعيدة في المنظور القريب، لكن ستتضاءل من دونها فعلاً احتمالات تحقيق عالم أفضل، يبصر النور ذات يوم. أما إذا بقيت

---

٤. راجع مقدمة هذا الكتاب.

الحال على ما هي عليه، وإذا لم تتم هذه المصالحة، فإن المستهزئين بكل المبادئ سيصبحون على حق، وإلى جانبهم جميع الانتهازيين والمضاربين والديكتاتوريين وجلاوزتهم ورجال المافيا وأصحاب الثروات العملاقة والعنصريين والنرجسيين العُصابيين، الذين لا يرون أمامهم إلا عالماً متصدعاً، تحكمه تراتبية المال والعِرق والثقافة والدِّين، كما ينادي بها دعاة الجوهرانية القاتلة. وهم، في الحقيقة، مثل لاعبي البوكر، المراهنين على عالم سيبقى ممزَّقاً وخاضعاً لتراتبية حديدية، تنظم التعدد المجتمعي والعرقي والديني عبر التفريق الذي يزرعه بين البشر كل من المال، والعرق والدين. عندئذٍ، لن تكون فلسفة الأنوار والقيم الجمهورية والعلمانية واحترام المجتمع والانتماء المواطنيّ إليه، إلا خدعة أو وبالاً يعيث فساداً بعالمنا؛ فيكون مئات من ملايين القتلى قد قضوا من أجل لا شيء، من جراء النزاعات العسكرية المتعددة منذ الحروب الدينية وفتح أميركا.

هذا ما نرفضه جملة وتفصيلاً، حيث تقع على عاتقنا مسؤولية محاولة تحويل فرنجة العالم والقضاء على كل القلاقل الوجودية وخيبات الأمل الناتجة عنها في كل مكان، إلى عالم أكثر عدلاً إن لم يكن أكثر «حداثة»، فهذا المفهوم يحمل في طياته كل الالتباسات النرجسية التي ينبغي علينا الخروج من أفخاخها الكثيرة.

أجّجت الحرب الأميركية على العراق وقبلها وبعدها الحرب «المسرحية» المفتوحة على الإرهاب، الصراعَ بين الغرب والشرق. كان اعتداء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر رسَّخ وَهْم وجود شرخ بين «الديموقراطية» في الغرب المسيحي و«الإرهاب» في الشرق المسلم، وعمّقت الهيمنةُ الغربية وتَسلُّط «الامبراطورية الأميركية» هذا الشرخ، وزادته تصدُّعاً وتشقُّقاً، وشطرت العالم إلى معسكرين: «امبراطورية الخير» بزعامة الولايات المتحدة، و«محور الشر» تحت راية أسامة بن لادن وصدام حسين.

يدحض هذا الكتاب وجود شرخ بين الشرق والغرب، ويسعى إلى فك رموز هذا «الهذيان» وتفكيك مقوّماته من خلال نقد أهم مقولات كل من الفكر الغربي والفكر العربي أو الإسلامي، اللذين أضحيا أسيري هذه الجدلية العقيمة المفروضة عليهما. ويفنّد المبرِّرات و«الأكاذيب» التي أدّت إلى ترسيخ هذا التصوُّر «الموهوم» واستلهمت مفاهيمها من غرب «لاهوتي» بروتستانتي وشرق مسلم «سلَفي». كما يصرُّ على نقد المقومات الأساسية للثقافة الغربية «النرجسية» التي تستوحي روحيتها من آلية الفكر اللاهوتي ـ السياسي وتؤجج مقولة «صراع الحضارات» ومخاوف الغربيين من سقوط «حضارتهم» بين أيدي «البرابرة» الشرقيين! كما ينتقد ردود الفعل للفكر العربي تجاه الثقافة الغربية وفشله في فهم تعقيدات هذه الثقافة.

الدكتور جورج قرم، مفكر وكاتب وسياسي واقتصادي لبناني، من مواليد ١٩٤٠. خريج جامعة باريس في القانون الدستوري والعلوم الاقتصادية. بدأ حياته المهنية كخبير اقتصادي في كل من بيروت وباريس والجزائر، ثم عُيّن في العام ١٩٩٨ وزيراً للمالية اللبنانية. اهتم بالكتابة حول أزمة الهوية في كل الشرق والغرب، ونشر العديد من المؤلّفات الفكرية والاقتصادية والسياس
تمت ترجمة العديد منها إلى لغات مختلفة.

ISBN 1 85516 751 4

